مجموع مؤلفات ورسائل وبحوث

أ.د. عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار

أستاذ الدراسات العليا في كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

تراجم

المجلد السابع عشر

رتبه وأعده للطباعة
د. محمد بن عبد الله الطيار

دار التدمرية

مجموع مؤلفات ورسائل وبحوث

أ. د. عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار

أستاذ الدراسات العليا في كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

تراجم

المجلد السابع عشر

رتبه وأعده للطباعة
د. محمد بن عبد الله الطيار

دار التدمرية

مجموع مؤلفات ورسائل وبحوث
عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار
تراجم

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

مجموع مؤلفات ورسائل وبحوث

عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار

أستاذ الدراسات العليا في كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

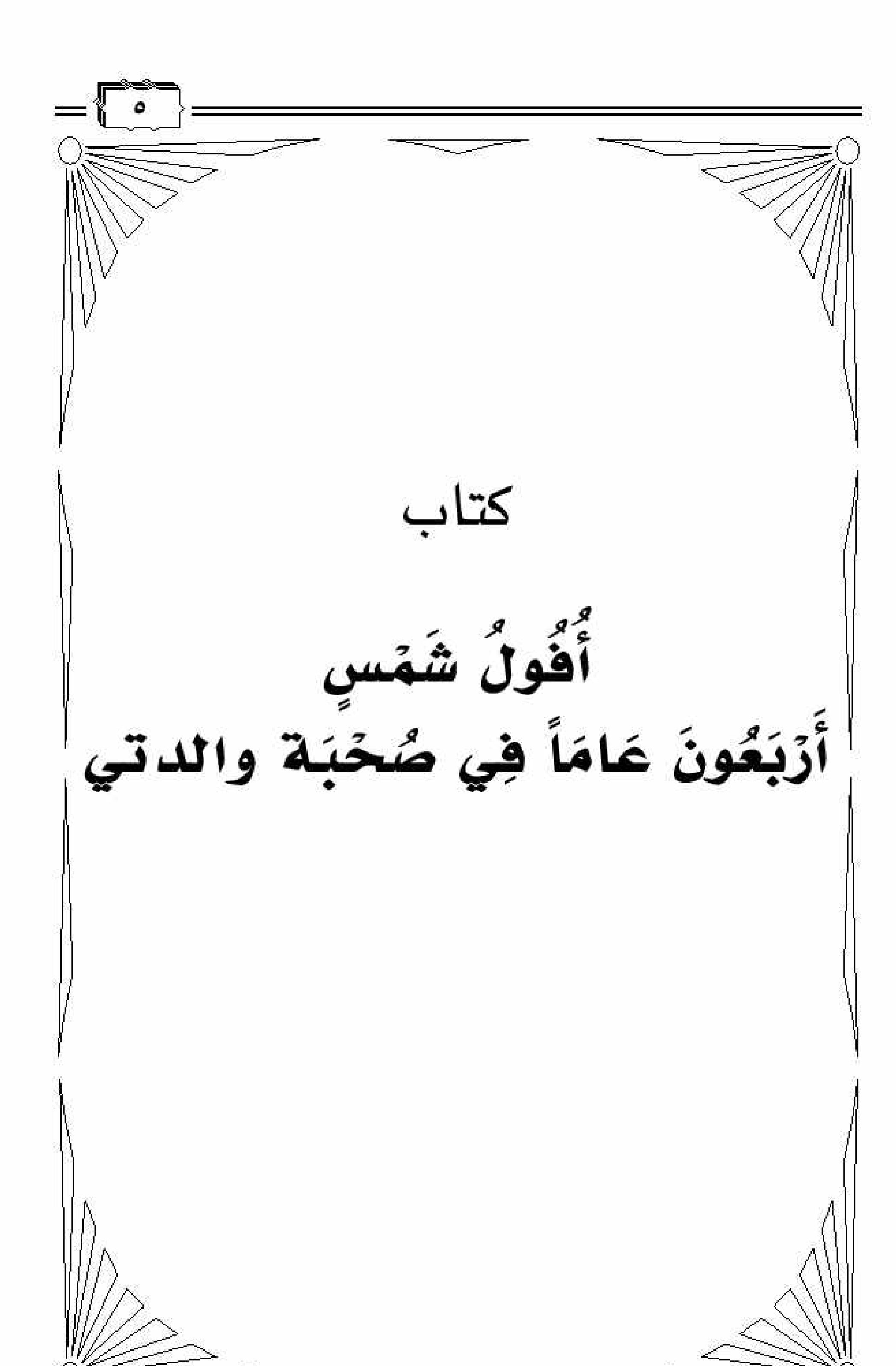
تراجم

المجلد السابع عشر

رتبه وأعده للطباعة

د. محمد بن عبد الله الطيار

بسم الله الرحمن الرحيم



كتاب

أُفُولُ شَمْسٍ
أَرْبَعُونَ عَامَاً فِي صُحْبَةِ والدتي

إهــــــداء

أهدي هذا الكتاب إلى هؤلاء كلهم

إلى والدتي: صاحبة القلب الرحيم.. العطوفة الحبيبة.. الغالية الرحيمة.. الباذلة الكريمة الرقيقة العفيفة.. الرفيقة الشريفة.. من صبرت لأنام، وجاعت لآكل، وتعبت لأرتاح، وملأت عليّ الدنيا من كل الوجوه. أسكنها الله الفردوس الأعلى من الجنة ووالديها وذرياتها آمين.

وإلى: كل من فقد أمه إسهاماً في تخفيف مصابه، ومواساةً له في فقد أغلى الناس عنده، وتصبيراً له لينال أجر الصابرين.

وإلى: أخوالي صالح، وعبد الله، وإبراهيم، وخالتي أم راشد، وأبنائهم، وبناتهم، وأحفادهم جميعاً.

وإلى: أبناء خالتي قبيلة سعود بن سليمان الطيار، وأخته أم أحمد وأبنائهم وبناتهم.

وإلى: إخواني سعود ومزعل وعبد الرحمٰن وجبر، وأخواتي أم سعود وأم ناصر وأبنائهم وبناتهم جميعاً.

وإلى: أبنائي محمد وأسامة وأيوب وأنس وبناتي جميعاً.

وإلى: أبناء أخي عبد العزيز: محمد وطارق وحسان وأحمد ومعتصم وأخواتهم.

وإلى: أبناء أخي علي: محمد وعبد المحسن وأخواتهم جميعاً.

وإلى: كل قريب لوالدتي الغالية.

وإلى: كل من يحبها وتحبه من رجل وامرأة في جميع مناطق المملكة العربية السعودية وخارجها أهدي هذا الكتاب، عنوان محبة ووفاء، ورمز مودة وإخاء، ورجاء دعوة صالحة في ظهر الغيب لي ولوالدي وإخواني وذرياتهم جميعاً.

شكر ودعاء

قال ﷺ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**» [رواه الترمذي]، وقال ﷺ: «**من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» [رواه أبو داود].

اللهم إني أشهدك أن والدتي صنعت إليَّ معروفاً لا أستطيع أن أكافئها عليه، وأشهدك أن إخوتي سعوداً وعلياً وعبد العزيز صنعوا إليَّ معروفاً لا أستطيع أن أجازيهم عليه حيث وجهتني والدتي وساعدها إخوتي للعلم وفرغوني له، وساعدوني بكل وسيلة، وأراحوني مادياً ومعنوياً، وهيأوا لي الجو خلال أكثر من عشر سنوات وأنا في العقد الثالث من عمري.

وإني بهذه المناسبة أرفع أكف الضراعة سائلاً الله تعالى أن يغفر لهم، وأن يحفظ الحي منهم، وأن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يلطف بالميت وأن يعلي منزلته وأن يجعله في الفردوس الأعلى من الجنة، وأن يجمعني بهم ووالدي وإخواني وذرياتنا والمسلمين في جنات النعيم اللهم آمين.

كما لا أنسى أن أشكر ابني البارّ محمداً الذي كان يتابع معي هذه الخواطر حتى رأت النور، وتولى طباعتها وإخراجها بمساعدة أخيه أسامة، زادهما الله براً وتوفيقاً وهدىً وصلاحاً، وجعلهما وإخوانهما وأخواتهما مباركين أينما كانوا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.



آيات من كتاب الله

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١].



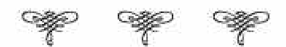
من مشكاة النبوة

قال رسول الله ﷺ للرجل الذي جاء يسأله: «من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**» [رواه البخاري ومسلم].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: «أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، حدثني بهن ولو استزدته لزادني» [رواه البخاري ومسلم].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل للنبي ﷺ فقال: «أجاهد؟ قال: «**لك أبوان؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**»» [رواه البخاري ومسلم].

وقال رسول الله ﷺ: «**رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف**» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة**» [رواه مسلم].



أقوال مأثورة

* قال ابن عمر رضي الله عنهما لرجل: «أتفر من النار وتحب أن تدخل الجنة؟ قال: إي والله، قال: أحيٌّ والداك؟ قال: عندي أمي، قال ابن عمر: فوالله لو ألنت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلنّ الجنة ما اجتنبت الكبائر».

* قال الحسن البصري رحمه الله: «حق الوالد أعظم، وبر الوالدة ألزم».

* جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إن لي أماً بلغ بها الكبر وإنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها وأوضئها وأصرف وجهي عنها، فهل أديت حقها؟ قال: لا، قال: أليس قد حملتها على ظهري وحبست نفسي عليها؟ قال: إنها كانت تصنع ذلك بك وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنع ذلك وتتمنى فراقها».



أبيات من الشعر

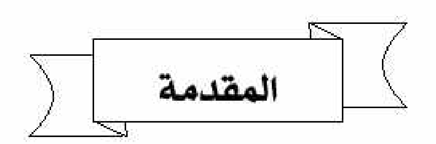
قال الشاعر:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت ... لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طُرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنني ... لأعلم أن الموت حتم مؤجل

وقال الآخر:

لأمك حق لو علمت كثير ... كثيرك يا هذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي ... لها من جواها أنة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة ... فمن غصص منها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها ... وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها ... حناناً وإشفاقاً وأنت صغير
فآهٍ لذي عقل ويتّبع الهوى ... وآهٍ لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها ... فأنت لما تدعو إليه فقير





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

تتحرك المشاعر وتختلط الأحاسيس ويبقى حنان الوالدين، وحبهما لا يدانيه حب، وعطفهما لا يدانيه عطف، ومتى فقدهما الأولاد أو فقدوا أحدهما وحلت المصيبة امتزجت الدموع وخيم الهم وأصبح الكرب يؤرق الولد، يتذكرهما في كل بقعة وكل زاوية من البيت.

يتذكر تلك الجلسات واللقاءات، يتذكر متعة الحديث ولذة اللقاء لكنه لا يملك حيال ذلك شيئاً.

يتذكر الضحكات والكلمات ومجاذبة أطراف الحديث، يتذكر ذلك النور في البيت وذلك الأنس وتلك البركة، فلا يشعر بِهمٍّ ولا غمٍّ ولا سأم ولا ملل، كلما أرهقته الدنيا واكتحلت عيناه برؤية والديه أو أحدهما نسي كل شيء وذهب عنه كل شيء.

الوالدان جنة الدنيا ومتعتها وسعادة الحياة وبهجتها، كم يعظم الخير وتكثر روافده ما داما في البيت يرفعان الصوت بالتسبيح والتهليل والحمد والدعاء.

فكم يخنس الشيطان ويخسأ وهما يوثقان الصلة بالخالق العظيم، وكم يندحر الشيطان وتسد أمامه الأبواب وهما يعالجان أحوال الأولاد ويسعيان باستصلاحهم بكل وسيلة.

إنهما الوالدان النعمة المسداة، فهل نعرف شكر هذه النعمة ونسعى لتحقيق هذا الشكر بكل ما يتاح لنا من وسيلة؟

أجل إن وقع المصائب عظيم، ولاسيما إذا كانت المصيبة موت أغلى الناس وأبرهم وأكرمهم وأكثرهم حقاً على المرء.

عشت مع أمي أعراض مرضها ثم لازمتها في شهرها الذي توفيت فيه، ثم انتقلت معها في الإسعاف إلى الرياض ولحقنا الأخ جبر بسيارته، وبدأت أفكر في الصبر على الفراق ولم أستعد لذلك اليوم ولكن ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

لوعة المحزون وأنات المكروب، وهمهمات المكلوم تعبير بليغ عن حجم الهم والمعاناة.

كم كانت نعم الله عليَّ عظيمة، لقد عشت بجوارها وفي كنفها بل وأتصبح وأتمسى بالنظر إلى وجهها البهي ـ نضَّر الله وجهها في الجنة ـ عشت عقوداً أربعة أستمع إليها وأجلس معها في الصباح والمساء وأكرمني الله خلال أكثر من عقدين مضيا بأن آكل معها يومياً أنا وإخوتي من إناء واحد بِرّاً بها ووفاءً بشيء من حقها علينا.

ولم أكن وحدي في الميدان بل كان إخوتي كلهم يتنافسون في برِّها ويتسابقون في كسب رضاها، وكثيراً ما يخفي الواحد منهم عمله لئلا يطلع عليه غيره خوفاً من المنافسة، بل قرّت عينيَّ في العقد الأخير من عمرها بتنافس أولادنا على برِّها وكسب رضاها ومتابعة حاجاتها الخاصة التي قد تفصح بها لأبنائنا أكثر منا.

لكن فجأة مضت وتجرعنا آلام البعد والفراق في لحظة كانت أصعب موقف مرَّ عليَّ في حياتي، لكنه التثبيت من الله الحكيم العليم.

لا زلت أذكر كلمة لأخي ـ عبد الرحمٰن ـ ونحن في استراحة ونحن من حولها ومعنا أولادنا فقال: كيف سنصبر على فراقها؟ ثم دمعت عينه وغيره ممن سمع كلامه ولم أكن حريصاً على تصور ذلك الموقف لخطورته ولكنّ قدر الله نافذ.

وتذكرت كذلك جلسة مع أخي وحبيب قلبي الشيخ سليمان الحربي وقد تحدثنا حول البرّ وصعوبة فراق الوالدة وهل يمكن أن يتحمله الشخص؟ فقلت له: الأمر عظيم، لكن نسأل الله الثبات.

كل ذلك تذكرته حينما وافاها الأجل ولو كان العمر يعطى لأعطيتها ـ والذي فطر السماء والأرض ـ عمري كله.

فلو كان يفدى بالنفوس وما غلى   لطبنا نفوساً بالذي كان يطلب
ولكن إذا تم المدى نفذ القضا   وما لامرئ عما قضى الله مهرب

أخي القارئ ـ أختي القارئة ـ هل لكم أمٌّ على قيد الحياة؟ إن كان الجواب بنعم فأسألكم بالله أن تبرُّوا أمهاتكم ما دام في العمر إمكان؛ فالعز والشرف، والتوفيق والسعادة، واللذة والحياة الكريمة، والمجد والسؤدد في برها والقيام بحقها.

ألم تروا رجلاً باراً كيف حياته؟ كيف تتسهل أموره وتنفتح له أبواب الخيرات وتندفع عنه أبواب الشر؟ يأتيه الخير من حيث لا يحتسب، ويندفع عنه الشر من غير بذل سبب.

وبالمقابل ألم تروا رجلاً عاقاً تضيق عليه الدنيا حتى تصبح أضيق عليه من جب الإبرة؟.

نعم أربعة عقود عشتها مع والدتي في بيت واحد، وإكراماً لها تركت الكثير وتنازلت عن الكثير وتحملت ما لا يعلمه إلا الله، وأسيئ بيَ الظن لمَّا تركت المنصب في وزارة الشؤون الإسلامية ولكن لا يعلم عن ظروفي وأحوالي بعد الله إلا والدتي التي تركت من أجلها أعز الأشياء وأغلاها في الحياة.

ولكن مهما كان التكليف منها فهو أشهى وألذ من الماء البارد للعطشان في الصيف الحار، والطعام اللذيذ للجائع في ليل الشتاء القارس.

هذه ـ العقود الأربعة ـ أذكر أحداثها وكأنني أرى معظمها الآن رأي العين، ولعل أول حدث عشته مع أمي وأنا أعيه جيداً (جرح أصبعي) البنصر

من اليد اليمنى ولا يزال أثره إلى اليوم، حيث سقطت عليه حجارة كبيرة قدته نصفين ولم يبق إلا العصب فأرسلتني والدتي على الفور إلى الجيران ـ وكان الجوار في السابق له نكهة خاصة من حيث الاجتماع والمحبة والتعاون وتبادل الطعام وغير ذلك ـ وبيت الجيران فيه امرأة صالحة كانت لي مثل أمي، حيث كنت كثيراً ما أجلس عندهم لأقضي الوقت مع أولادها ـ هذه المرأة هي أم عبد المحسن بن حمود النافع ـ متعها الله وزوجها بالصحة والعافية ورزقهما بر أولادهما حيث بادرت على الفور بعلاج الجرح، وكان مما وضعته عليه ـ الكحل ـ الذي لا يزال أثره إلى اليوم، وربطت أصبعي وأعطتني شيئاً طيب خاطري ومسحت دمعتي وأرسلتني لوالدتي التي أعلنت حالة الطوارئ ومنعتني من الخروج من المنزل ـ خوفاً عليَّ ـ من الالتهابات ـ الشمم ـ.

أخي القارئ: هذه خواطر قيدت أصولها في أوقات متفاوتة وتحت إلحاح الإخوة والأبناء من ذرية أم سعود ـ رحمها الله ـ عزمت على إعادة صياغتها وإخراجها لعلها تكون معينة للقاصرين المقصرين في البرّ، ومبشرة للسابقين المتسابقين في البرّ، ومن لطف الله بي ورحمته أن غالب هذه الأوراق قيدتها في مكة ـ شرفها الله ـ وأنا أمام الكعبة، إذ لم أحتج إطلاقاً لمراجع بل كنت أسجل ما يفتح الله به عليَّ مما تسعف به الذاكرة، وقد حرصت كل الحرص أن تكون بأسلوب سهل واضح دون تعقيد أو التواء أو مبالغة.

ومعاذ الله أن أذكر شيئاً لم يقع، فوالدتي أشرف وأعز من أن أتصنَّع لها وأتزيد بشيء لم يحدث، وأجزم أني نسيت الكثير وأن غيري من إخوتي وأخواتي وأخوالي وأعمامي وأبناء عمي وزوجات إخواني وصويحبات أمي يعرفون أشياء لم أقيدها.

ولذا فمن حق الوالدة عليهم جميعاً أن يبلغوني بما عندهم مشافهة أو كتابة لإضافته في الطبعات القادمة إن شاء الله تعالى، وهم بذلك يهدون لي هدية أغلى من كل شيء.

أسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يغفر لي ولوالديَّ وأن يجمعني بهما في الجنة وأن يجزيهما عني خير ما يجزي والداً عن ولده، وأن يصلح لي ذريتي وأن يبارك في ذرية والدتي أم سعود وأحفادها ومن ينتسب إليها ومن يحبها ومن تحبه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

وكتب
أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار
١٤/٤/١٤٢٤هـ
الزلفي ص. ب. ١٨٨ ـ الرمز البريدي: ١١٩٣٢
الجوال: ٠٥٠٥١٢٣١٠٠، ٠٥٠٥٤٥٨٥٩٥

ماذا يكون اسم الكتاب؟

ترددت كثيراً في تسمية هذه الخواطر هل أتركها دون عنوان يحمل اسمها أو أضع لها اسماً، وهذا الاختيار ملت إليه لكن أي اسم أطلقه على هذا الكتاب هل أسميه:

هكذا تكون النساء؟ أو مواقف سطرتها الوالدة؟ أو أربعة عقود في صحبة والدتي؟ أو لا نامت عين من لا يبر بأمه؟ أو أمي أثبتت أنها لا كالأمهات؟ أو من لي بمثل أمي؟ أو يا من تعيش أمهاتهم أفيقوا؟ أو إلى من تعيش أمهاتهم؟ أو هكذا كانت والدتي؟ أو عظمة النساء في والدتي؟ أو أمي الحنونة؟ أو بيني وبين والدتي؟ أو أمي ومسيرة الحياة؟ أو أمي ومسيرة الحب والحنان؟ أو أمي أغلى أم في الدنيا؟ أو أمي والذكر الخالد؟ أو أمي والدموع الحانية؟.

كل هذه الأسماء وغيرها خطرت عليّ ولكني رأيت أن أضع أصدقها وأدقها وأسلمها وهي: «**أربعون عاماً في صحبة والدتي**» وهي أربعة عقود كلها في صحبة والدتي لأني أذكر ما وقفت عليه وعايشته منذ كنت صبياً لا أتجاوز العاشرة من عمري إلى آخر أيامها رحمها الله ـ.

ثم عرض عليَّ الابن أسامة ونحن في الطريق إلى مكة أن أضع عنواناً رئيساً وهو «**أفول شمس**» وبعد التفكير والتأمل رأيت أن ذلك مناسب جداً ومعبر أدق تعبير عما أريد فسميته بذلك.



كل نفس ذائقة الموت

يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ويقول تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧].

ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ﴾ [الجمعة: ٨].

الموت له أجل مضروب ووقت محدود لا يتقدم ولا يتأخر قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

الموت ذاك الضيف القادم والموعد المتحقق، لا يمكن أن يسلم منه أحد، ولا ينجو منه أحد، ولا يهرب منه أحد، الناس أمامه سواسية، لا يهاب بواباً ولا يخاف حجاباً، لا يمنعه حراس ولا يؤخره ارتفاع بنيان قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ [النساء: ٧٨].

لم يسلم منه أفضل الخلق، بل كان يمسح العرق عن جبينه ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**».

الموت حق ولو نجا منه أحد لنجا منه رسول الله ﷺ.

وإذا دهتك مصيبة فاصبر لها ... واذكر مصابك بالنبي محمد

وصدق القائل:

الموت باب وكل الناس داخله ... فليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

والقائل:

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ‌‌ ‌‌ متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب
نشاهد ذا عين اليقين حقيقة ‌‌ ‌‌ عليه مضى طفل وكهل وأشيب

والقائل:

هو الموت جسر للأنام مساير ‌‌ ‌‌ عليه سنمضي كهلنا والأصاغر

وهكذا تجرعت أمي سكرات الموت، وكانت تقول: «يا ولدي الموت ساعة وتنقضي، لكن الموت ما بعد الموت، القبر وما بعده».

ولو أن هذا الموت يقبل فدية ‌‌ ‌‌ فديناك أموالاً كراماً وأنفسا

فأسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يجعل قبرها روضةً من رياض الجنة، وأن يفسح لها فيه، وأن يفتح لها باباً إلى الجنة يأتيها من روحها وريحانها وطيبها، وأن يجمعني بها ووالدي وذريتها في الجنة.



كلماتٌ في البر

برُّ الوالدين من كمال الدين، وحسن الإسلام، ومن أفضل العبادات، وأجل القربات، وأيسر الطاعات، وأقصر الطرق إلى الجنات، وهو من أسباب مغفرة الذنوب، وزيادة الأعمار، والبركة في الأرزاق.

الأبوان في هذه الدنيا هما رمز العطف والحنان، وعنوان الشفقة والرحمة، الأبوان هما زينة الحياة وبهجتها، وسعادة الوجود، وامتداد الأنس، وتمام الرعاية والعناية، وحصول السكينة والرحمة.

وجود الأبوين دعاءٌ مستمر، وحنان صادق، ومتابعة ملازمة، ورحمة نازلة في البيت.

هل هناك أجمل من بيت فيه والد يسبح ويهلل ويدعو ويذكر ويقرب من الله ويبعد من الشيطان.

هل هناك أبهى وأحلى وأشهى من بيت فيه والدة على مصلاها ترفع يديها داعية بالبركة والحفظ والسعادة والطمأنينة، تستر السيئات وتغفر الزلات، وتتغاضى عن الهفوات، إن جاءها القليل شكرت، وإن لم تعط شيئاً سكتت، يضيق صدرها عند حصول الخلاف حتى بين الأطفال، إنها البركة في البيت، والنور فيه والسكينة والطمأنينة.

فهنيئاً لكل بيت فيه زاهدة عابدة تنتقل بين غرف البيت تدعو وترجو، وتخاف وتبكي، استغفار وانكسار، ودعاء للأولاد والبنات بالحفظ والرعاية والصلاح والهداية.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى. قال ﷺ: «**فهل لك من والديك أحد حي؟**» قال: نعم. بل

كلاهما. قال: «**فتبتغي الأجر من الله تعالى؟**» قال: نعم. قال: «**ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة**» [رواه مسلم].

وسأل رجل رسول الله ﷺ فقال: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قال: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» [رواه البخاري ومسلم].

ويؤكد ﷺ على أهمية حقوق الأم لأنها قاست آلام الحمل والرضاعة والمتابعة، فعلى جلالتها ومكانتها تزيل الأذى عنك بنفس رضية وقلب حان ودمعة صادقة، بل وأحياناً تزرع قبلة على خد الصغير وهي تمسح الأذى بيدها الكريمة؛ فاللهم ارحمهما كما ربيانا صغاراً، اللهم أعل منازلهما في جنات النعيم.

كم ليلة باتت تعد النجوم وتضع يداً على يد تنتظر قدومك إلى البيت وأنت تلهو مع صحبك وأترابك غير مبال بما تقاسيه وتعانيه، كم ليلة لم تذق طعم النوم لأنها تعلم أنك تشكو من ألم وتحرص ألا تشعر بها لئلا يضيق صدرك عليها.

لقد وقفت فيما وقفت على هذه القصة العجيبة لأم وولدها؛ فقد كانت فتاة في عمر الزهور تحلم بفارس أحلامها، حتى إذا جاءها الخاطب الكفء وافق والدها فزوجها وقلوب الجميع تلهج بالدعاء أن يرزقها الله الذرية الصالحة، وبسَّر الله الأمر وجاء الولد وقد تعهده أبواه بالتربية والرعاية حرصاً عليه، حتى إذا شب عن الطوق وكبر اختارا له أحسن البنات وزوجاه، وخلال شهر من الزواج بدأت العلاقات تتوتر بين أم الزوج وزوجة الابن، وتأزمت الأمور ومرض الأب فمات، ثم بقيت أم الزوج وحدها، فهجراها وتركاها في البيت وحيدة، وحملت زوجة الابن ووضعت ولداً، فتعلق قلب الجدة به، ولكن الابن وزوجته يمنعانه من الذهاب إلى جدته ورؤيتها، وعاشت الجدة عشر سنوات تعاني من الهموم والآلام وهي ما زالت في سن الشباب، ولكن

هموم ولدها وزوجته وولدهما كانت تؤثر عليها، وذات مرة أرسلت رسالة تقطر أسى وتفيض مشاعر إلى ولدها وأخبرته أنها تحس بدنو أجلها وأنها لا تريد من الدنيا شيئاً وإنما تريد رؤيته وولده، ولكن الزوجة العاقة تقف بالمرصاد لمحاولات الأم؛ فماتت أمه بعد فترة وندم ندماً عظيماً، ولكن هيهات أن ينفع الندم بعد أن دفنت أَعْظُمُ والدته في التراب.



حياتها الخاصة
ومواقف مرت بها

(١) من هي أمي؟.
(٢) اسمها ونسبها ونشأتها.
(٣) ذريتها.
(٤) زواجها وحياتها مع زوجها الأول والثاني.
(٥) وفاة زوجيها.
(٦) العمليات الجراحية التي تمت في حياتها.

من هي أمي؟!

هي الصابرة الوفية، العابدة التقية، الصائمة المصلية، العطوفة الحفية، الصادقة الأبية، عفيفة اللسان، القريبة من الرحمٰن، المتحببة للجيران.

هي الباذلة للمال، المرضية لجميع من حولها، المربية للأيتام، صبرت على محن الزمان ونوائب الدهر، وتنوعت المصائب التي حلت بها وهي كالجبل الأشم، تنظر إلى ما عند الله فتتحطم هذه المصائب على جدارها الصلب، وكأني بها ترجو أن تكون من أهل هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

كم من صغير أفرحته، وكم من كبير قدرته، وكم من مبتلى صبَّرته، وكم من عليل واسته.

تميزت بالشكر وإكرام النعمة لأنها تعرف قدرها، فلله درُّها، ما أطيب قلبها الذي تحمله، وما أرجح عقلها، وما أسخى يدها منذ عرفت الدنيا، وأنا لم أسمع كلمة لا ترضي فيها، بل كل من عرفها أحبها ودعا لها.

لا أعرف امرأة في زماننا اجتمع عليها الناس محبة ووفاءً وحمداً وذكراً حسناً مثلها، هذه هي أمي صاحبة المحامد التي كانت في حياتها لا ترضى أن يمدحها أحد أو أن يثني عليها، ولا نسمع منها صباح مساء إلا الدعاء لنا وذرياتنا بالتوفيق والصلاح، ولله درُّها، كم من إساءة تحملتها وصبرت عليها وردت عليها بالحسنة، وكأنها تتمثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولله درُّها، كم قومت معوجاً من الأخلاق وأصلحت كسراً في البيوت وردت شارداً من الشباب دون تهويل أو تشويش أو مبالغات.

هذه هي أمي، فهل يجود الزمان بمثلها؟ وهل تستطيع أرحام النساء أن يلدن مثلها في هذا الزمن؟ وليس عليّ في ذلك لوم، فكل فتاة بأبيها معجبة، رحمكِ الله يا والدتي وغفر لكِ، وجمعني وإياكِ ووالدي وذرياتنا في جنات النعيم.



نشأتها، اسمها ونسبها

هي: «منيرة بنت سابح بن صالح بن عبد المحسن بن محمد ابن عبد الله بن على الطيار» تلتقي بوالدي في الجد عبد المحسن، فوالدي محمد بن أحمد بن عبد المحسن، وينحدران من سلالة جعفر الطيار، فالأسرة من الأشراف وهي متفرقة في أنحاء المملكة وخارجها، وأمها حصة بنت فرحان بن محمد الفرحان.

وقد نشأت والدتي كعادة بنات جنسها في كنف والديها، إلا أن أمها ماتت وهي صغيرة فربتها زوجة جدي ـ أم أخوالي عبد الله وإبراهيم ـ تربية حسنة واعتنت بها وعوضتها وأختيها ـ قبيلة وسبيكة ـ عن فقد أمهم فجزاها الله عن والدتي وخالاتي وعنا خير الجزاء، وجعلها الله في الفردوس الأعلى من الجنة.

ولا أعرف على وجه التحديد سنة ولادة أمي، إلا أنها تقول حينما جاء البشير بانتصار الملك عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ في موقعة السبلة وأنا كنت مع جدك صغيرة مثل هذه وتشير إلى إحدى البنيات الجالسات وعمرها في حدود أربع سنوات أو خمس.

ولذا فيظهر أن ولادتها كانت سنة ١٣٤٢هـ.

وقد سألت خالي صالح ـ حفظه الله ومتعه بالصحة والعافية ـ فقال: أنا أكبر منها بست سنوات وخالي ميلاده قبل موقعة السبلة بعشر سنوات.

وتوفيت في ظهر يوم الأحد: ١٤٢٤/٣/٢٤هـ رحمها الله رحمة واسعة عن اثنين وثمانين عاماً قضتها في جهاد مرير من أجل لقمة العيش وتربية أبنائها على الخير والفضيلة، عوضها الله سعادة أبدية في جنات عدن، وأوردها حوض سيد المرسلين، وحشرها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وذريتها وأحبابها وجيرانها وجميع المسلمين.

ذريتها

توفيت والدة أمي وهي صغيرة وتوفي أبوها عام ١٣٩١هـ، وتوفي ولداها عبد العزيز ثم علي، وصبرت على ذلك كله وسألَتِ الله أن يكون العوض في ذريتها، وقد تكاثرت ذريتها ولله الحمد.

وقد خلفت ثمانية أولاد وبنتين هم حسب ترتيبهم الزمني:

حصة أم الدكتور سعود الحمد، وسعود وعلي وعبد العزيز وأحمد ـ توفي صغيراً ـ وعبد الله ومزعل وعبد الرحمٰن وجبر والجوهرة ـ أم ناصر الفهد الناصر ـ وهي أصغر ذريتها.

علماً أن أكبر أحفادها هو الدكتور سعود بن عبد العزيز الحمد وآخر ذريتها قبل وفاتها هي (فيَّ) بنت علي بن عبد العزيز الحمد المولودة في: ١٣/ ٢/ ١٤٢٤هـ، وآخر ذريتها قبل إتمام هذا الكتاب هي (ليان) بنت محمد بن عبد الله الطيار المولودة في: ٤/ ٦/ ١٤٢٦هـ.

وإليك هذا المشجر يبين أولادها وأحفادها
إلى تاريخ: ١/ ٧/ ١٤٢٦هـ في الصفحة التالية:

منيرة
رحمها الله

والدها: سابح بن صالح بن عبدالمحسن
ابن محمد بن عبدالله بن علي الطيار.
والدتها: حصة بنت فرحان بن محمد الفرحان.
أشقاؤها: صالح وسبيكة.
إخوانها من الأب: عبدالله وعلي وإبراهيم.
أختها من الأم: قبيلة.

أولادها من زوجها الأول:
(محمد بن أحمد الطيار)
حصة - سعود - علي
عبدالعزيز - عبدالله
أولادها من زوجها الثاني:
(عبدالله بن ناصر الجبر)
مزعل - عبدالرحمن
جبر - الجوهرة

أمي وسيرتها مع أبي ـ رحمهما الله ـ

كانت والدتي تروي لي كثيراً بعض المواقف مع أبي وتذكر محبتها الشديدة له، وكيف أن الله ـ جل وعلا ـ فرق بينهما في عز شبابه حيث توفي رَحِمَهُ اللهُ في ريعان شبابه ولمَّا يبلغ الأربعين.

وتقول لي: إن والدك شديد، ويهتم بالنظافة ويحرص على الأولاد والعناية بهم، وكان كثير السفر إلى الأحساء لطلب الرزق ولا يقيم عندها إلا قليلاً.

وكانت والدتي تدعو له مع والديها في كل مناسبة وتسأل ربها أن يجمعها به في الجنة، وأنا أسأل الله بمنه وكرمه أن يجمعني بهما في جنات النعيم وسائر إخوتي وأخواتي وذرياتنا وأحبابنا وجيراننا ومن له حق علينا.

ولعل من أظرف الطرائف التي ذكرتها لي تلك الليلة الليلاء التي أخذت فيها الوالدة مع زوجات أعمامي تيساً مليئاً من اللحم فقمن وذبحنه وأخفين أمره وأكلن منه حتى شبعن وأعطين منه لوالدي وأعمامي وجدي ولم يعلم عنه والدي، وكان يبحث عنه والوالدة وصويحباتها قد أخفين الأمر وكثيراً ما تسألني الوالدة عن حكم ذلك شرعاً فقلت لها: ما دمتم أكلتم منه وطبختم لهم منه فلا شيء في ذلك، وقد طلبت مني أن أتصدق بقيمته لمن هو له، فنفذت أمرها إكراماً لها ـ رحمها الله ـ.



أمي وسيرتها مع زوجها الثاني أبي بندر عبد الله بن ناصر الجبر ـ رحمهما الله ـ

اضطرت والدتي ـ رحمها الله ـ تحت وطأة الحاجة للموافقة على الزواج من أبي بندر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي تقدم لها بعد وفاة والدي بأشهر ولكن اختلفت العائلة، فمن موافق عليه ومن رافض، وكانت والدتي موافقة عليه، ولذا لم يهتم جدي سابح رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمعارضة من عارض، وكان يقول: ما دامت منيرة موافقة فسيتم الزواج، وفعلاً تم زواجها من أبي بندر، وأنجبت أول مولود فسماه أبوه ـ ناصراً ـ وسماه المعارضون للزواج ـ مزعل ـ لأن هذا الزواج أزعل بعض الأقارب فغلبت هذه التسمية، وصار اسم أخي ـ مزعل ـ ولا يزال بعض كبار السن إذا سلموا علينا يذكرون قصة التسمية، ومن هؤلاء ـ الرجل المبارك صاحب الغيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبو عبد الله إبراهيم الغنام ـ متعه الله بالصحة والعافية، قلّ أن يقابلني إلا ويدعو لها ويضحك ويذكر هذا الأمر ـ جمعنا الله ووالدينا به في جنات النعيم ـ.

هذه قصة الزواج: أما سيرة والدتي مع زوجها الثاني فقد كانت سيرة حميدة، وكانت تربينا على تقديره واحترامه.

وكان أبو بندر رَحِمَهُ ٱللَّهُ واسع الصدر عطوفاً رحيماً، لا يعنف ولا تسمع منه إلا كلمة طيبة من الدعوات الصادقة بالصلاح والهداية وكان يفضلني رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ولده ويشجعني على الذهاب للمسجد مبكراً ومراجعة الدروس، ويعدني بالحوافز والهدايا، وكثيراً ما يضرب بي المثل للآخرين في الدراسة والعلاقة مع الأم والصلاة في وقتها، كل ذلك ونحن صغار لم نبلغ بعد.

إنه فريد في تعامله طاهر القلب عف اللسان واسع الصدر وهؤلاء هم الخيار من الخيار.

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

وكما قيل:

بيض الوجوه نقية حجزاتهم ... شم الأنوف من الطراز الأول



أمي ووفاة زوجيها

توفي والدي رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ عام ١٣٧٣هـ وأنا صغير لا أتجاوز شهرين، فنشأت مع إخوتي يتيماً لكن والدتي ـ رحمها الله ـ عوضتني عن كل شيء، وكنت أسألها عن أبي فتقول: إن أقرب شبه له منكم أخوك سعود، وأقرب شبه له منكم في الكلام واللسان علي رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ، وتقول: إنه كان حريصاً عليكم، لكن ظروف المعيشة جعلته لا يستقر عندنا ولا يجلس معكم كثيراً لكثرة سفره وتنقله من الزلفي إلى الأحساء لطلب الرزق.

فقلت لها: كيف كان وقع وفاته عليك؟ قالت: يا ولدي لما علمت كادت تخرج روحي من بين أضلعي، لكني صبرت وتحملت وكلما نظرت إليكم تذكرت الهم والمعاناة، لكن الله يسَّر الأمور وانقضت وكأنها ما حصلت.

أما ظروف وفاة زوجها الثاني ـ أبي بندر ـ فهذه أذكرها جيداً كنت معها ذات ليلة وجاء والدها جدي سابح رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ على غير المعتاد، فقالت: يا ولدي، ما تعودنا مجيء جدك، لعل الأمر خير، فقال: يا أم سعود، معي خط (رسالة) جاءت من الرياض وأظنه حول ـ أبي بندر ـ وكان مريضاً، فقالت: لعله خير ـ إن شاء الله ـ فقال جدي: اقرأ يا عبد الله الرسالة، فقرأتها وإذا فيها خبر وفاته، وكان ذلك في صفر من عام ١٣٨٧هـ وكنت في السنة الثانية بالمعهد العلمي.

فحَمِدتُ الله واسترجعت، وخرج جدي وبت مع والدتي، وغيَّرت ملابسها ولم تخبر أحداً حتى الصباح، وبدأت معاناة أخرى لكنها كانت أخف من الأولى؛ لأن أخي سعود كان مكتسباً لكنه في تلك الفترة في المنطقة الشرقية، والموجود من إخوتي علي وعبد العزيز ـ رحمهما الله ـ.

أمي والعمليات الجراحية

الحياة لا تصفو لأحد بل هي مليئة بالأكدار والمنغصات، فمن أضحكته يوماً أبكته في اليوم الثاني، وهكذا لا تدوم على حال والليالي حبالى يلدن كل عجيب.

ووالدتي بلغت الذروة في الصبر والتحمل وأذكر أنها عملت ثلاث عمليات جراحية:

الأولى: في صيف عام ١٣٨٧هـ، وكنت وقتها طالباً في السنة الثانية في المعهد العلمي وقال لي أخي سعود إن نجحت وتفوقت سافرت معنا إلى الرياض، وقد اجتهدت وتحقق ما أراد، فسافرنا إلى الرياض مع أخي سعود وكانت معنا الوالدة وهي تشتكي من شعر ينبت في العين، فعرضها أخي ـ حفظه الله ـ على طبيب كبير مشهور يقال له: «الغوري» وكان من أشهر أطباء العيون في ذلك الوقت، وأجرى للوالدة عملية نزع الشعر، وأحست بالراحة والطمأنينة، وذهبت المنغصات التي كانت الوالدة تشكو منها، وتحسن نظرها كثيراً، وجلسنا في الرياض عدة أيام زرنا خلالها الأقارب وكانت رحلة لا أنساها لأنها أول رحلة إلى عاصمة بلادنا الحبيبة.

الثانية: في عام ١٤٠٧هـ بدأ نظر الوالدة يضعف، فقالت لنا: أنا أحس أنني لا أرى بعض الأشياء، فراجعنا المستشفى، وأفادوا أن الماء الأبيض يحتاج إلى عملية، وسعينا في فتح ملف في مستشفى الملك خالد الجامعي، ويسَّر الله الأمر عن طريق صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض ـ حفظه الله وتولاه وجزاه عنا وعن والدتنا خير الجزاء ـ ودخلت الوالدة المستشفى ونجحت عملية العين الأولى، ثم رغبت في أن تجري العملية للعين الأخرى، وفعلاً تم ذلك، ومنذ ذلك التاريخ وهي ـ ولله الحمد ـ لا تشكو من عينيها.

الثالثة: وفي صيف عام ١٤١٨هـ وكنا نستعد لأداء العمرة وجهزنا بعض

الأمتعة، وفي تلك الليلة أحست الوالدة بآلام في بطنها وصارت تشتد عليها، وفي آخر الليل ألححت عليها ورجوتها أن نذهب للمستشفى فوافقت ـ على مضض ـ وهي تقول: أنا متوكلة على ربي وما قدره الله عليَّ سينفذ.

وبعد وصولنا المستشفى وإجراء الفحوصات اللازمة أفادنا بعض الأطباء باحتمال نزيف في البطن، وطوال تلك الليلة لم نذق طعم النوم، وفي الصباح أعيدت الفحوصات وتأكدنا أنه لا يوجد نزيف لكن هناك التهاب حاد في المرارة.

وتشاورنا مع إخوتي فألحّ الأخ سعود ـ حفظه الله ـ على أن يكون إجراء العملية في أحد مستشفيات الرياض، وفعلاً اتصلت بأحد الأقارب فيسّر الله سريراً في المستشفى العسكري عن طريق أحد الأطباء، وبعد إجراء الفحوصات اللازمة ثبت أن المرارة فيها التهاب ولا بد من استئصالها، وبعد أن تحدد موعد العملية يسَّر الله طبيباً سعودياً ـ من خيرة الأطباء ـ وتحدثت معه وبينت له مكانة الوالدة في نفوسنا ورجوته أن يلبي طلبها، لأنها ألحت أن أدخل معها غرفة العمليات، فقال الطبيب: تدخل حتى يتم تخديرها وبعد ذلك تخرج، ثم انتظرنا حتى خرجت من العملية وقد تم استئصال فتق كانت تشكو منه كثيراً منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وقد استأصله الطبيب دون علمها، لكنه يقول: وجدناه في طريقنا فأجرينا له العملية، وكانت هذه العملية عن طريق المنظار، وبعد تنويمها ذهبت ورجوت المسؤول عن المستشفى وطلبت منه أن أرافق والدتي فقال: ألا يوجد امرأة؟ قلت له: إن راحتي وراحة والدتي في مرافقتي، فقدَّر طلبي ـ رفع الله قدره ـ وطلب نقلها إلى الجناح الخاص وهو مشترك يدخله الرجال والنساء، ورافقتها ثلاثة عشر يوماً استفدت خلالها في المراجعة والقراءة ما لا يتحقق لي في مدة طويلة، وهذا كله من بركاتها.

وقد ألحّ أخي ـ جبر ـ على أن ينوب عني في المرافقة فرفضت، لكنه تصرف وأخذ ورقة من الطبيب وأصبح يجلس عندي وإذا جاء وقت النوم ينام في مصلى الجناح الخاص.

وقد أكرم الله الوالدة بالشفاء وتحسنت صحتها ولم تَشْكُ خلال السنوات الأخيرة إلا في نهاية عام ١٤٢٣هـ، وأوائل عام ١٤٢٤هـ حيث أحست بآلام، البطن ثم توفيت بعد ذلك ـ رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته ـ.

أمي والعلاقة بأولادها

(١) أمي والشفقة على أولادهـا.

(٢) كان من دعائها.

(٣) قصة الجحة [البطيخة].

(٤) كانت هي الأم والأب.

(٥) بركاتهـا على أولادهـا.

(٦) مرض أخويَّ عبد العزيز ثم عليّ.

(٧) كانت نوراً يشع في البيت.

(٨) يبقى الولد صغيراً حتى تموت أمه.

(٩) أمي وهم السكن لأولادهـا.

(١٠) تربيتها لنا على حب الجيران.

(١١) والدتي وبعض أقاربها.

(١٢) أمي وزوجات أولادها.

(١٣) الإحسان إلى الوالدين.

أمي والشفقة علينا

أمي تشفق علينا بشكل يستغربه الكثيرون، ولولا أنا عايشنا هذا الأمر ورأيناه واقعاً ملموساً لما صدقناه، وأضرب لذلك مثلاً عايشته معها ويعلمه بعض الإخوة ممن حَجُّوا معنا في عام ١٣٩٦هـ، وكنا في مزدلفة وسمعنا شخصاً ينادي بالميكرفون اليدوي عن شخص تائه اسمه سعود وهو يقول: سعود ـ سعود، يكررها، فرفعت والدتي الحاجز الذي بين الرجال والنساء وقالت: عبد الله، لا يصير هذا أخوك سعود، فقلت لها: يا والدتي، نحن في مزدلفة وأخي سعود في الزلفي، فقالت: ما في قلبي إلا أخوك، ولما سمعت الشخص ينادي خفت على أخيك، فقلت لها: لا، هذا الرجل ليس سعودياً، ويبحث عن قريبه الذي ضيعه قبل يومين، فارتاحت واطمأنت ودعت لي ـ رحمها الله رحمة واسعة ـ.



كان من دعائها

كثيراً ما كانت تكرر: «جعل الله يومي قبل يومكم» فنبادر جميعاً ونقول: بل يومنا قبل يومك يا أماه، فتغضب وتقول: «لا تضيقوا صدري يا عيالي، موتكم قبلي جرح في قلبي وجرح القلب لا يبرأ، أما موتي قبلكم فيؤلمكم ويكدر خواطركم، لكن تستطيعون الصبر ويكفيني منكم الدعاء».

ولذا قيل: موت الولد صدع في فؤاد الأم لا يجبر وجرح في فؤاد الأب لا يندمل.



أمي وحادثة الجحة (البطيخة)

هذه قصة حدثت عام ١٣٧٩هـ تقريباً ـ حسب إفادتها ـ وقد حدثت في بيتنا الذي بجوار الجامع ـ الجنوبي ـ ووقتها لم أدخل المدرسة بعد.

تقول والدتي ـ رحمها الله ـ: إنها كانت تحضر الماء على رأسها من ـ عسيلة ـ وهي بئر ماؤها عذب وتبعد عن البلد في ذلك الوقت في حدود الكيلوين (٢ كم)، وقد أهدى لها الذين تنقل الماء لهم بأجرة (بطيخة) ومن حرصها على وقتها، ولئلا تذهب عنها رفيقاتها إلى مكان الماء فتحت باب بيتها وأدخلت ـ البطيخة ـ وأغلقت الباب وكان في البيت حسب كلامها إخوتي علي وعبد العزيز ـ رحمهما الله ـ فلما رأوا البطيخة والوقت بعد المغرب ولونها أخضر خافوا وفزعوا فأحضروا بعض الثياب واجتهدوا في إخراجها يظنونها حيواناً صغيراً، وأغلقوا الباب، وسدوا جميع المنافذ بالفرش والثياب فلما رجعت والدتي بقدرها بعد المغرب وأرادت أن تدخل البيت وجدت البطيخة عند الباب، ووجدت الباب محكماً والمنافذ مسدودة من تحت ومن الجهات كلها، فطرقت الباب بقوة وفتحوا لها وأدخلت البطيخة وضحكت وضحك إخوتي وفرحوا بها، وكانت والدتي تروي لنا القصة في حياة إخوتي وتضحك وتضحكنا معها إذا تذكرت الموقف، وكان إخوتي يؤكدون ذلك ويذكرونه جيداً.



أمي قامت بدور الأم والأب في وقت واحد

عاشت والدتي فترة عصيبة بعد وفاة والدي رَحِمَهُ اللَّهُ والكبير من أولادها عمره لا يتجاوز الثانية عشرة والصغير ـ أنا ـ كان عمري شهرين فقط، وكانت تقوم بدور الأم والأب من حيث التربية والنفقة والرعاية والأحوال ميسورة، ولكن الله ـ جل وعلا ـ إذا أخذ شيئاً أعطى أشياء، قامت على أمورنا تكد وتكدح وتنقل الماء على رأسها القدر بريال.

تقول لي ـ رحمها الله ـ: إني أذهب قبل الفجر وآتي بقدرين قبل صلاة الفجر، ثم آتي بالثالث بعد الفجر، ثم أتفرغ لإخوانك ليذهبوا إلى المدرسة، وبعد نقل الماء على رأسها قامت بالعمل مع بعض النساء تحصد الزرع وغيره عند بعض أصحاب المزارع، كل ذلك بحثاً عن لقمة العيش لصبيتها اليتامى الذين أصبحت هي الأم والأب لهم، ثم أخذت تحصد الحشيش وتلقط التمر من بعض المزارع القريبة، وهي تعمل بجد واجتهاد ونشاط دائب سعياً وراء لقمة العيش؛ فهل يعي شباب اليوم وفتياته هذه المعاناة ويحمدوا الله على ما هم فيه من النعمة ورغد العيش ويقوموا بشكر ذلك على الوجه المطلوب.



أمي وبركاتها عليَّ وعلى إخوتي

رفع الله قدر الوالدين وأعلى مكانتهما، وهذا أمر مقرر معروف لكل أحد، ولكن لا يعرف كثير من الناس قدر والديه وفضلهم وبركاتهم عليه حتى يواري عليهما أو على أحدهما التراب.

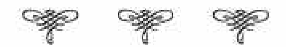
ووالدتي ـ رحمها الله ـ أدركت أنا وإخوتي بركاتها علينا في حياتنا، فكم من المحامد دفعتنا إليها وربَّتنا عليها وجعلتها جزءاً من حياتنا، ولعل من أهم ذلك عندها الاجتماع والتآلف وتجاوز ما قد يقع بين الأقارب مما لا بد منه أحياناً، وكذلك غرس فضل الصدقة والبذل في نفوسنا منذ أن كنا صغاراً غير مكتسبين، بل إنها منعت إخوتي من بيع ناتج المزرعة من الخضار وغيرها وأمرتهم بتوزيعها مجاناً هدية للقريب والجار وصدقة على المحتاج.

وكم كانت تستمتع ضحى كل يوم وهي تتولى توزيع ما يحضره أخي علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المزرعة، ثم بعده أخي سعود الذي تحمل مسؤولية المزرعة كاملة وكفانا هذه المهمة وهيأ لي الجو العلمي فجزاه الله عني خيراً.

وفي بعض الأيام إذا جئت إلى جناحها في البيت ورأيت على وجهها علامات الغضب وسألتها وحاولت معها من هنا وهنا أفصحت لي أن نصيب فلان أو فلانة من الخضرة لم يصلهم إلى الآن، فأقول لها: أنا أوصله الآن إن شاء الله، فيسر خاطرها وتظهر عليها علامات البشر والفرح، كل ذلك محبة للصدقة وبذلاً لها.

ولذا كم تعلمنا منها هذه المعاني العظيمة، وكانت تقول لي كثيراً: يا ولدي إذا أنفقت من هنا عوضني الله من هنا، بل تقول لي: إذا أعطيت الصغار من الموجود عندي من الحلاو والعلوك وغيرها يعوضني الله من

أحدكم مباشرة، وهذا ما رأيناه رأي العين في مسائل الإنفاق على الأهل والأقارب، وصدق رسول الله ﷺ: **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»** [رواه البخاري ومسلم].



أمي ومرض أخويَّ عبد العزيز ثم علي

الأمراض من جملة ما يبتلي الله به عباده، والابتلاء سنة ربانية لحكم عظيمة يظهر بعضها للناس وكثير منها لا يدركونه قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وقد خلق الله الخلق لعبوديته، ولذا ابتلاهم واختبرهم ليستخرج منهم عبودية السراء وهي الشكر وعبودية الضراء وهي الصبر، قال ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**» [رواه مسلم].

المرض سبب لتكفير الذنوب والخطايا، صح عنه ﷺ قوله: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**» [رواه البخاري].

وعلى من أصابه مرض واشتد عليه الأمر أن يتذكر ما أصاب رسول الله ﷺوالسلف الصالح، فكل مصيبة بعد رسول الله ﷺ جلل.

وإذا دهتك مصيبة فاصبر لها ... واذكر مصابك بالنبي محمد

وهكذا كنت دائماً أربط مصاب أخويَّ ـ رحمهما الله ـ بهذا الأمر ويطول الحديث مع والدتي حتى تنتهي بالحمد والشكر ويطيب خاطرها.

وقد تجرعت ـ رحمها الله ـ غصصاً عظيمة مما أصاب أخوي خلال ست سنوات مضت كلها معاناة ومع ذلك تحملت وصبرت فعوضها الله خيراً.

أولاً: مرض أخي عبد العزيز ومعاناة والدتي:

أصيب أخي عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ بمرض عام ١٤٠٩هـ وتم اكتشافه ذات ليلة حيث ارتفعت حرارته، وبعد التحاليل والأشعة اكتشف الأطباء مرضه، ثم أحيل إلى المستشفى التخصصي بالرياض، وبدأت المراجعات وأخذ العلاج بانتظام، وفي شهر صفر من عام ١٤١١هـ رغب أن يجري فحوصات في أمريكا فذهبنا إلى هناك وجلسنا أكثر من أسبوعين، ولكن النتائج كانت نفس النتائج في المستشفى التخصصي بالرياض، بل قال لي أكبر الأطباء هناك: إن النتائج واحدة والعملية التي تجري هنا في أمريكا هي نفس العلمية التي تجري في التخصصي، وأنصحك إذا أقدمتم على العملية أن تكون هناك أريح للمريض وأقل في معاناته، وبعد أن عدنا قلت لأخي: استخر في العملية، ثم قال: أنا وكلت الأمر بعد الله لك انظر الأصلح لي، فقلت له: أرى ألا تستعجل فيها مادام العلاج يناسب ولا تحس بمضاعفات فانتظر، وهكذا استمر إلى بداية عام ١٤١٣هـ حيث ألح الدكتور المعالج بإجراء العملية، وبعد استخارة واستشارة انتهينا إلى إجرائها.

وقد دخل المستشفى يوم الأحد: ٢٢/ ٤/ ١٤١٣هـ الساعة الحادية عشرة صباحاً، وبعد أسبوع أجريت له العملية ـ زراعة النخاع ـ في يوم الإثنين: ١/ ٥/ ١٤١٣هـ الساعة السادسة مساء.

وبعد أخذ العينات مني ومن الأخ سعود تبين أن الأخ سعود هو المناسب، مع أني كنت حريصاً على أن أكون المتبرع لكن ما قدره الرحمٰن غير ما خططت له.

وبعد يومين أي: في يوم الأربعاء: ٣/ ٥/ ١٤١٣هـ الساعة التاسعة مساء تم عزل الأخ عبد العزيز ومنعنا من الدخول عليه، ولا نراه إلا من خلف الزجاج، وقد خرج وسمح لنا بزيارته بعد ثلاثة أسابيع من العزل في يوم الأربعاء: ٢٤/ ٥/ ١٤١٣هـ الساعة الخامسة مساء، وبعدها بأسبوعين خرج نهائياً من المستشفى في يوم الاثنين: ٦/ ٦/ ١٤١٣هـ الساعة الثالثة والنصف مساء وكانت مدة بقائه في المستشفى أربعة وأربعين يوماً.

وقد مرت والدتي بظروف عصيبة خلال هذه الفترة، وكنت آخذها لزيارته وإذا رأته من خلف الزجاج يكاد قلبها يتقطع، وأنا أشجعها وأصبرها وأدعو لها وأطمئنها، والله أعلم ما في داخلي من المشاعر الملتهبة.

وقد صورت هذه المعاناة كلها في قصيدة طويلة وقد حاولت أن ألقيها بحضوره وحضور والدتي فما استطعت من تأثري وتأثرهما وبقيت حبيسة حتى كتابة هذه الأسطر وقد عنونتها:

«همٌّ ومعاناة»

حبست دمعي كظمت مُرَّ شكاتي ... وأرخيت للتفكير حبل قناتي
وأشعلت من صبرٍ جنوداً شمَّرت ... وتقاسمت إنقاذ نور حياتي
ولجأت للرحمن أطلب ضارعاً ... أرجو كريماً واسع النفحات
قد هدَّني جهد وطول تفكرٍ ... وشرود ذهن واضح اللمحات
حل المصاب فزلزلت أعماقنا ... وتدافعت من بينها خطواتي
يممت وجهي نحو بارئ نسمتي ... وتوجه الملهوف حول نجاة
لما عرفت الحزن كدَّر خاطري ... فعلوت بالتوفيق في وثبات
وسألت أحباباً كراماً أخلصوا ... وتوافقوا في الشد من عزمات
لما تحدد موعد لدخولنا ... أضنيت نفسي من لظى حسراتي
قد راعني خوف ألمَّ بخاطري ... لكنَّ ذكر الله كان نجاتي
لا همَّ هذي حاجتي مبسوطة ... أنت المؤمل أن تجيب شكاتي
هذي جفوني أبرقت بل أمطرت ... فأهاج مني دمعها عبرات
وبدأت أذكر للصحاب مراحلاً ... كانت صدىً في القلب من كلمات
كانت جروحاً غائرات حية ... تخفي وراها جملة الحُفُرات
عون من الرحمٰن قوَّى همَّتي ... وأقال ما قد كان من عثرات
رقد الحبيب على السرير عشية ... فبكيت من أعماقي النخرات
ونظرت أين الأنس أين مبيتنا ... فأتى الجواب محشرج الزفرات
يا خيرتي من إخوتي يا مهجتي ... يا درعي الواقي من اللفحات

يا درة التوجيه دمعي ساكب ... ومنابع العزمات صار فتاة
يا صانع المعروف أبشر لا تخف ... فالله ألطف والدعا قنواتي
يا باذل الإحسان حبك مشهد ... أذكاه صوتُ الناس بالدعوات
يا جامعاً سُبْل المكارم مرخصاً ... ما عزَّ من نقدٍ بيسر هبات
لما دخلت بيوم ثانٍ قبلها ... عشرون في أحدٍ وفي الضحوات
ذا كم ربيع آخرٌ هو رابع ... من أشهر الأعوام والسنوات
وأتى سنْبسُ مقرراً لزراعة ... وكذاك فهدٌ والحضور رواتي
في يوم اثنينٍ لأولِ خامسٍ ... كانت زراعة صفوتي وحياتي
كانت دموع العين تجري ثرة ... تخفي وراها لوعة الحسرات
لكنّ فضل الله ﷻ ... في جوف ليل ظاهر البركات
وعلمت بعد تمامها بنجاحها ... أحسست قلبي مسرع الضربات
عزلوا الحبيب بغرفة موصودة ... عشرون يوماً خلْف ذي الحجرات
كانت زيارة حبِّنا من خارج ... خلف الزجاج نصوِّب النظرات
جاء البشير بفك حجرٍ فجأة ... فخررت للرحمن في السجدات
ورحلت يوم الأربعاء ميمماً ... شطر الحبيب أعجل الخطوات
لكنَّ أمي قد علاها هاجس ... تبغي الذهاب بهمةٍ وثبات
حاولت إقناع الحبيبة لم أطق ... وأطعت أمي صفوة الخيرات
وذهبت أطوي البيد أرقب لحظة ... ألقى الحبيب معطر الثغرات
كان اللقاء سويعة محفوفة ... بالخير والتبريك والدعوات
هذي الحنون فهل يجود بمثلها ... رحم النساء حواضرٍ وبداة
هذي الوفية لو علمت بحالها ... صبرت على شظف وطول شتات
هذي الأبية كم علت من مَشْرَف ... قطعت فيافٍ رحبة الفلوات
كم كان قلبي غارقاً في حبها ... لهفي عليها جمَّة البركات
يهنيك يا حبي دعاء شريفةٍ ... من نسل جعفر صاحب الخيرات
يهنيك دعوة أمنا في ليلةٍ ... ليلاء من ليل الشتاء الشاتي

مساء الثلاثاء: ٧/ ٦/ ١٤١٣هـ

وبعد خروجه رَحِمَهُ اللهُ من المستشفى التخصصي أخذ يتردد عليه وكنت أرافقه في جميع مراجعاته وتتتابع مني الكلمات التي تدفعه إلى الأمام وتقوي عزيمته وثقته.

وكان رَحِمَهُ اللهُ جبلاً من الصبر والثبات واليقين بالقدر المحتوم، وقد عاوده المرض في رمضان على إثر ـ حازوز ـ في رجله.

ولما سافرنا إلى مكة أنا والوالدة في: ١٤١٣/٩/٢٥هـ ذهب إلى المستشفى ونوِّم هناك وخرج بعد رمضان، ثم تماثل للشفاء وقويت معنوياته ولم يحس بشيء ولله الحمد وكانت لنا مراجعات كل ثلاثة أسابيع.

ولما عدت من القاهرة في: ١٤١٤/٢/١٤هـ استقبلني في المطار وبصحبته ـ سعود الحمد ـ ابن أختي، وعدنا إلى الزلفي ولم يكن فرحي بعودتي إلى أرض الوطن بأكثر من فرحي بصحة أخي ونشاطه وقوة معنوياته.

ثم في شهر ربيع الأول أحس بآلام، وبدا معه بعض الصفرة في اللون فنوِّم في المستشفى وجلس ثلاثة أسابيع؛ خرج بعدها وتماثل للشفاء، وفي الأسبوع الثالث من شهر ربيع الثاني من عام ١٤١٤هـ اشتد عليه المرض فلزم الفراش.

وفي صبيحة يوم الأربعاء: ١٤١٤/٤/٢٠هـ ذهب إلى مستشفى الزلفي ونوِّم فيه ليلة الخميس.

وفي صبيحة الخميس قرر الذهاب إلى المستشفى التخصصي، وذهب به الأخ عبد الرحمٰن وكنت يومها في الشرقية لإلقاء محاضرتين حول كشمير.

ولما علمت بدخوله التخصصي رجعت مباشرة إلى الرياض واتجهت إلى المستشفى ليلة السبت، ووجدت الأخ في حالة غير طبيعية فأيقنت بقرب أجله وأوصيت الأخ سعود السليمان الطيار بأن يعطي قسم العناية المركزة هاتفه بالرياض للاتصال به عند الحاجة، وعدت في ليلتي لأبدأ التمهيد للوالدة.

ولما صليت الفجر جئت إليها على حسب العادة فسألتني عن أخي فقلت لها: إنه متعب جداً وعليه أجهزة كثيرة وأسأل الله أن يلطف به وأن يكتب له ما فيه الخير والصلاح، فأحست الوالدة بثقل كلماتي.

ثم عدت إليها في الساعة الثامنة لتناول طعام الإفطار فلم أذقه فألحت عليّ وقالت: هل مات أخوك؟ فقلت: لا، أما البارحة فلم يمت، وأما هذا الصباح فالله أعلم، لكنه في حالة خطيرة جداً ثم ذهبت إلى القصيم ـ للدوام ـ وجلست في مكتبي إلى الساعة الحادية عشرة والنصف وكنت على اتصال بالمستشفى.

وفي لحظات جاءني شعور غريب فقمت من الكرسي واتجهت إلى سيارتي وعدت لوالدتي، وكان من عادتي الصلاة في الطريق خلال السنوات الماضية، إلا أنني نسيت ولم أقف ووصلت إلى البيت فوجدت أخويّ علي وعبد الرحمٰن خارج البيت لا يدريان ماذا يصنعان، وقد علما بخبر وفاته التي كانت في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً من يوم السبت: ٢٣/ ٤/ ١٤١٤هـ.

فلما وقفت عند عبد الرحمٰن قال: عبد العزيز مات، فقلت: الحمد لله على قضائه وقدره، ثم قلت لهم: هل أخبرتم الوالدة؟ فقالا: لا، فلما رآني صابراً متجلداً ولله الحمد قال: هل أنت داري؟ قلت: نعم لأخفف مصابهم والله يعلم ما في نفسي، فقلت لهم: سأخبر الوالدة، ثم أتيت واتصلت بسعود السليمان الطيار وأخبرته بالأمر وطلبت منه الذهاب إلى المستشفى وأخذ الجثة وإن لم يأذنوا له يخبرني وأذهب ـ أنا ـ لاستلامها لكنه ـ رجل مبارك ـ ذهب إلى المستشفى وأنهى الإجراءات واستلم الجثة واتصل بي فاتفقنا على أن تكون الصلاة عليه بعد صلاة العشاء ليكون عندنا وقت كاف لتغسيله والإتيان به إلى الزلفي، ثم بدأت التمهيد للوالدة واتصلت بأخي سعود وقلت له: سنحتاج الجمس لنحضر عبد العزيز رحمه الله.

فقالت الوالدة: هل مات؟ فقلت لها: كلنا سنموت وبدأت ألاطفها بسيل من المواعظ مخوفاً ومذكراً ومرغباً ومبيناً عاقبة الصبر ومشيراً إلى أنها قدوة في البلد، وأن الناس سيتناقلون موقفها، ثم جاء إخوتي وجلسنا عندها وكل يدلي بدلوه، ثم جاءت أختي أم سعود وقابلتها وقلت لها: لا نريد بكاء فنحن بحاجة لتثبيت الوالدة فقالت: إن شاء الله، وفعلاً سرَّني موقفها حيث كانت تحمد الله وتشكره وتكثر من الحوقلة، وهكذا حلت المصيبة وحمدنا الله على

تجاوز المحنة وحمدناه على صبر الوالدة، إذ كنت أحمل هماً كبيراً خوفاً عليها من عدم تحملها للموقف لأني أعرف مدى محبتها له.

ثم تولينا الرد على الهاتف وانتظرنا وصول الجنازة وشققت الأكفان وجهزتها وكل ما سنحتاجه في تغسيله، ثم ذهبت إلى المغسلة في مسجد الغنام وانتظرنا حتى وصلت مع أذان المغرب، فقلت للإخوة: صلوا وبعد الصلاة نغسله إن شاء الله.

وبعد الصلاة بدأنا تغسيله وكنت ألهج بالحمد وأكثر الاسترجاع، وقد ساعدني الأخ عبد الرحمٰن وسعود السليمان ومزعل وجبر وجهزناه مع أذان العشاء، وذهبنا به إلى الجامع ثم صلينا عليه ـ وقد أممت الناس في الصلاة عليه ـ وقد شهد الصلاة عليه في المسجد والمقبرة خلق لا يعلم كثرتهم إلا الله وذلك لمحبة الناس له، رغم أن الوقت بعد العشاء.

ثم حملناه على الأكتاف إلى المقبرة وأنزلناه في قبره، ولحدته أنا وإخوتي والأخ سعود السليمان، وهذا كله في يوم السبت: ٢٣/٤/١٤١٤هـ.

وأصبحنا نجلس عند الوالدة ولا نترك فرصة للشيطان، وإذا جاء أحد لتعزيتها لا يطيل عندها، وحضرت خالتي أم راشد وألححت عليها أن تدخل السرور على والدتي لتنسيها مصيبتها.

ومنذ ذلك الوقت حرصت على أن أرثيه فلم أستطع حتى جاء شهر الله المحرم من عام ١٤١٥هـ وكنت أتابع الأبناء في الاختبارات وكنت حريصاً على أولاده ـ يرحمه الله ـ ولما رأيت دخولهم وخروجهم للمكتبة بدأت القصيدة وكانت هذه الأبيات:

أماه هل تزهو بنا ذي الدار ... أم هل تغرد في الدجى أطيار
ما للحمام يموت في أغصانه ... والناس تبكي دمعها مدرار
أماه عشت مكفكفاً لمدامعي ... الموت حل فأيقن الطيار
قالوا أخوك موسد في قبره ... فأجبت إن ملاذيَ الغفار
عشت السنين مع الحبيب هنيَّة ... ذقنا المسرة صفوها نختار
أمٌّ تلاحظ خطونا بتوازن ... يهوي لها بين الضلوع أوار

عشنا كأحسن صبية في حيِّنا عشنا فراخاً في العشاش نزار
لما كبرنا صرت أرسم خطوه نعم المؤدب إنه صبَّار
ما كان يأبه بالتوافه طبعه بل كان يهفو للعلا يختار
أعلى مكاني بين أترابي فما يرضى هواني لو طغت أكدار
كم كان يمحض نصحه متبسماً صوناً لنفسي أن يهب غبار
عبد العزيز فجعتني برحيلكم هذي فراخ يضْطَر بن صغار
إن جاء ليلي بت فيه مكبلاً أهوى الفرار ولا يسوغ فرار
أو جاء صبح كان قلبي مولعاً فبطلعة الأطفال لي استبشار
يا رب شُدَّ عزيمتي بصلاحهم فأخي حبيس ما لديه جوار
أبدي التصبر بين أحبابي لكي يسلو ولست بقادر فأحار
ماذا أقول إذا رأيت دموعهم تجري على الخدين كيف تثار
ما لي رجعت إلى الوراء مقلباً صفحات ماض كله أكدار
لما جثا كابوس ظلٍ مطبق مرض الحبيب تكاتفت أستار
لم يعرف الإخوانُ سراً خافياً حتى ثوى في قبره الطيار
أخفيت سراً لا أبوح بمثله مهما تشيع بدارنا الأخبار
لما أتى وقت الزراعة هدَّني هم ثقيل كي يقرَّ قرار
وعيون أحبابي تسيل دموعها لكنَّ قلبي جره التيَّار
يا ويح ذي الحسرات ما لي مخرج كيف الخلاص وقد بدت أخطار
أأجود بالدمع السخي لموقف قد هدَّني فتقطَّعت أوتار
إني أفكر في الصغار وكلما عضت بي الأكدار جا إنذار
أماه لو وقفت دموعي برهة هل يستقيم الحال أم ينهار
أماه ضمي صبية قد أينعت سنواتهم عدداً كما الأشجار

ثانياً: مرض أخي عليّ رَحِمَهُ اللهُ ومعاناة والدتي:

أحس أخي علي رَحِمَهُ اللهُ في رجب من عام ١٤١٥هـ آلاماً في البطن صاحبها قلة شهية، وبعد مراجعة لمستشفى الزلفي رغب أن يراجع في

المستشفى العسكري بالرياض، وبعد اتصال بابن العم ـ زيد ابن عبد المحسن الطيار ـ تم حجز الموعد واختار له طبيباً من أمهر وأكفأ الأطباء.

وبعد التحاليل والإشاعات اكتشف الطبيب مرضاً نادراً في بطنه وبعد المراجعة الثانية في شعبان من عام ١٤١٥هـ قرر الطبيب العملية الجراحية، فرغب أخي علي ألا تكون في رمضان، فحدد الطبيب موعدها في نهاية شوال، وأجريت له العملية وبقي في المستشفى ثلاثة أسابيع ثم خرج في منتصف ذي القعدة، وقد أقمت وليمة في البر على طريق عودته من الرياض جمعت أهلي وأقاربي وجعلتها باسم الوالدة، وقد فرحنا فرحاً عظيماً بقدومه وتماثله للشفاء.

وفي صيف عام ١٤١٦هـ سافرنا إلى مكة وكان يقود سيارته بنفسه، وفي رجب من عام ١٤١٦هـ بدأ يحس بثقل في المعدة، وبعد مراجعات للمستشفى وصف له الطبيب المختص علاجاً خفف عليه المعاناة، لكن سرعان ما اشتد عليه الألم ولا سيما في رمضان، فحاولت إقناعه أن نراجع في رمضان فرفض، وقال: سأكمل الصيام فلا أدري هل أصوم غير هذا العام أم لا؟

وفي ثاني أيام العيد ذهبنا إلى المستشفى وسحبوا من بطنه بعض المياه وأحس بالعافية، ثم عاودته المياه فراجعناهم وسحبوها.

وبعد الحج حولونا إلى مستشفى المجمعة لأنه أقرب وأيسر لنا فراجعنا مرتين، وفي الثالثة اشتد عليه الألم، وفي يوم الأربعاء: ٢٦/ ١/ ١٤١٧هـ خرجنا من البيت فقال لي: يا عبد الله، الله أعلم أني لن أعود للبيت، وجميع أوراقي الخاصة في شنطة جهزتها وقلت لأم محمد: ـ زوجته ـ لا يفتحها إلا أخي عبد الله، ثم قال لي: ليس عليّ دين إطلاقاً إلا (١٧) ريالاً لفلان فاتصلت بأحد الإخوة وقلت: اذهب وأعط فلاناً (١٧) ريالاً وقل له من علي الطيار، ثم ذهبنا إلى مستشفى المجمعة ونوِّم هناك، ورافقت معه من الأربعاء إلى الأحد حيث اشتد عليه الألم وأدخل العناية، ثم قال لي: أرغب الذهاب للمستشفى العسكري، فقلت: إن شاء الله، قال: لا بد أن نذهب غداً، فوعدته خيراً وأجريت اتصالاتي حتى تيسر السرير له، ثم نقلناه

بالإسعاف ظهر يوم الإثنين: ١/ ٢/ ١٤١٧هـ وقد ركبت معه ونوم في المستشفى العسكري، وقد سألني أكثر من مرة عن يوم الأربعاء متى؟ فأقول له: كذا وكذا.

وفي مساء الثلاثاء: ٢/ ٢/ ١٤١٧هـ زاره عدد كبير من الأعمام وأبناء العم والأقارب والأصدقاء وكان يكرر النظر إليهم، فقلت لأحدهم: لعلها نظرات مودِّع.

وفي صبيحة الأربعاء: ٣/ ٢/ ١٤١٧هـ أسلم روحه لباريها وكنت بجواره ـ ولله الحمد والمنة ـ وقد أوصاني ببعض الوصايا الخاصة التي تم تنفيذها بعد وفاته.

ثم قمت مباشرة بالاتصال بأخي سعود بالزلفي وقلت له: هيئوا الوالدة، فوضع الأخ علي صعب جداً، قال: هل مات؟ قلت له: هو يحتضر وأنا سآتي بعد ساعات، وفعلاً رتبت من يحضره من المستشفى وعدت إلى الزلفي ونبهنا بأن الصلاة عليه عصراً.

ولما وصلت وجدت إخوتي حول والدتي، ثم أخبرتها وذكرتها ووعظتها وخففت عنها وجميع إخوتي وأخواتي حضور، كل يدلي بدلوه حسب جهده وطاقته، وذهبت إلى أولاده وأخبرتهم وطمأنتهم ثم لما وصل ظهراً غسلناه وهيأناه وصلينا عليه، وقد أممت الناس في الصلاة عليه، وشهد جنازته خلق كثير وأصبحنا نتناوب في الجلوس مع الوالدة ولا نتركها بمفردها خوفاً عليها.

وقد رثيته في هذه الأبيات في: ١٠/ ٢/ ١٤١٧هـ:

أماه إني قد بلوت زماني ... وسبرت أصحابي مع الخلان
وحملت أثقالاً ينوء بحملها ... أقوى الرجال بعزمة الإيمان
عامان كانا مسرحاً لرزية ... جثمت على صدري بغير أمان
إني أحدث يا حصان مؤملاً ... أن أستعيد توازني ومكاني
لا شيء يا أمي يؤرق خاطري ... غير اليتيم أراه أو يلقاني
أماه لو تدرين ماذا قد جرى ... عند المريض مصائب تغشاني
همٌّ يؤرق مهجتي ويهدني ... فيحار مني الدمع في الأجفان

ما لي ملاذٌ أرتجيه فأشتكي غير الإله الواحد الديان
أماه كم من ليلة أمضيتها فوق السرير مراقباً لجنان
الهم بيَّت بالفؤاد ومهجتي غصت بكل مواجع الأحزان
أغلى الأحبة قد علته سحابة سوداء أخفت بسمة الخلان



كانت والدتي نوراً يشع في البيت

لا يعرف الأولاد نعمة وجود الوالدين أو أحدهما حتى يفقدونهما أو أحدهما، وقد كان جناح والدتي في البيت يعج بالحركة وكثرة الزوَّار، ولا يمكن ـ إلا ما شاء الله ـ ما دامت الوالدة موجودة أن يخلو من الأطفال، فهم يترددون عليها لأنها تعطيهم الحلوى والكيك وغيرها مما يرغبه هؤلاء الصغار.

وإذا غابت عن البيت أظلم الجناح الذي تسكنه وأصبح غير مألوف، وهكذا لما ودعت الدنيا أصبح مكانها لا يكاد يزوره أحد إلا في الاجتماع الأسبوعي ـ يوم الجمعة ـ حيث يجتمع الإخوة والأخوات وأبناؤهم حيث كانت ترغب في هذا الاجتماع وتحرص عليه، ولذا حرصنا أن يستمر بعدها بِرّاً بها ـ رحمها الله ـ.

وهنا أهمس في أذن كل من لديه أب وأم أو أحدهما أن يجتهد في برهما وتحصيل بركاتهما، فالخير كل الخير في وجودهما في البيت حيث يملآنه دعاء وذكراً وتسبيحاً وتهليلاً ووِرداً، والأولاد لا يشعرون بذلك، ولا يحسون به إلا إذا فقدوا هذا الخير والنور والبركات.

حدَّث أحد المشايخ الفضلاء[1] قال: أعرف شاباً باراً بأمه أراد أن يسافر من القصيم إلى المدينة، فقالت له: يا ولدي، لا تتأخر أنا ما أعرف بدونك، ولما وصل المدينة وقضى شغله رجع إلى القصيم لكنه كان متعباً فنعس في الطريق وخرج عن مساره الأيمن إلى المسار الأيسر وكاد أن يدخل تحت شاحنة، لكنه أبصر يد والدته تشير إليه، فاستيقظ وصرف السيارة إلى جهة اليمين فخرج عن الإسفلت وطار النوم عنه ولم يصب بأذى وواصل طريقه إلى بلده.

---

(١) شيخنا وأستاذنا الداعية الحصيف والواعظ المؤثر الشيخ عبد العزيز العقل.

أما والدته فقد استيقظت من نومها بعد أن تحرك قلبها وتوضأت في جنح الليل وصلت ركعتين ودعت لولدها البار قائلة: اللهم احفظه بحفظك واكلأه برعايتك وأعده لي سالماً، فاستجاب الله هذه الدعوات وارتفعت إلى عنان السماء فأرسلها الله يداً حانية تشير إلى الولد فكانت سبباً في حفظه وسلامته، ولما وصل الولد إلى بيته وجد أمه عند الباب، فقال: ما لك يا والدتي قالت له: بل أنت ما لك يا ولدي، فأخبرته الخبر وأخبرها بأمره فحمدت الله على سلامته وضم والدته إلى صدره ودعا لها.

وهكذا ثمرة البرّ تعجل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.



يبقى الولد صغيراً في نظر والدته

هكذا كانت والدتي تعاملنا كأننا أطفال رغم أن الواحد أصبح له أحفاد، لكنه في نظر والدته يبقى صغيراً تتابعه بالأكل واللبس، كم كانت تتابع اللبس في الشتاء والأكل يومياً، يعطيها أحدنا نوعاً من الأكل يخصها به ثم تعطيه هي الشخص الآخر، المريض عندها هو الغالي حتى يشفى، والغائب هو الغالي حتى يعود من سفره، إذا سمعت صوت الإسعاف حتى وإن كنا خارج الزلفي تقول: اتصل بإخوانك، خوف عليهم عجيب ومتابعة مستمرة، وكل ذلك على حساب صحتها وراحتها، الشيب يجلل لحية الواحد منا لكنه في نظرها يبقى صغيراً.

سمِعَتْ ذات مرة شخصاً في مكة يقول لي: الله يجعل شيباتك في الجنة، وكان في وقتها في لحيتي شعرات من الشيب فقالت: شاب قرنك هذا صغيِّر شيبت به الدنيا وبلاها؟ فضحك الرجل وقال: ماذا تقول الوالدة؟ قلتُ له: أنت وقعت فيما لا ترضاه أمي، قال: أعرف، الله يرحم والدينا ويحرمهما على النار.



أمي وهم السكن

كانت السنوات الأولى في حياتنا بدون سكن ـ مملوك ـ بل كنا نتنقل من سكن إلى آخر بالأجرة، وأذكر أننا سكنا في خمسة مساكن خلال عشر سنوات حتى يسَّر الله أمرنا وامتلك أخي سعود السكن قرب مسجد أبي بندر رحمه الله.

وكانت والدتي تحمل هماً عظيماً لمسألة السكن لأنها لا تجد ما تشتري به سكناً، وأبناؤها أيتام صغار لم يكتسبوا بعد، ولما كبر إخوتي واكتسبوا انتهت معاناة الوالدة واستقر بنا المقام في حي (٨) في الزلفي ولدينا جيران من خيرة من عرفنا خُلُقاً وفضلاً، نسأل الله أن نتجاور معهم في جنات النعيم.

ومما يذكر في هذا المجال أن والدتي ـ رحمها الله ـ اشترطت على إخوتي أن تكون البيوت متجاورة، وأن يكون لها سكن في وسط البيوت، وهكذا اجتمعت مساكننا ولله الحمد في سور واحد لجميع أبنائها عدا الأخ جبر الذي استحال الأمر أن يكون ملاصقاً فاختار سكناً أقرب إليها من بعض البيوت لكن يفصله شارع عنها.

ولذا كانت هذه من بركات والدتنا علينا وعلى ذرياتنا حيث اجتمعنا في مجمع واحد، ولكل منا بيته الخاص لكن يلتقي النساء ويلتقي الأولاد، ويلتقي الرجال، ومكان التجمع عندها ضحى وظهراً وعصراً ومغرباً وبعد العشاء في مظهر لا يمكن أن نشتريه بالذهب والفضة، لكنه فضل الله يؤتيه من يشاء.

ووصل الحال بنا ونحن نذهب إلى المدرسة أننا نذهب على أقدامنا وكذلك الحال في دراستنا في المعهد نذهب على أقدامنا والمسافة تزيد على ثلاثة كيلومترات، وهكذا الجامعة حينما كنا ندرس في كلية الشريعة، نذهب إليها على أقدامنا والمسافة تزيد على أربعة كيلو مترات، كل ذلك لضيق ذات اليد، ولكن والدتي ـ رحمها الله ـ ربتنا على الكفاف والعفة عما في أيدي الناس، ومن يرانا يظن أننا نملك شيئاً كثيراً وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

تربيتها لنا على حب الجيران

تَنَقَّلْنَا في بُيوتٍ كثيرة، وكانت والدتي ـ رحمها الله ـ توصينا على حب الجيران ومواصلتهم ومعاملتهم معاملة خاصة، حتى إنها توصينا وصايا خاصة لأسر معينة، وتقول: هؤلاء جيراننا لهم حق علينا.

وإذا جاء واحد منا يشكو أحد أبناء الجيران عنَّفت عليه وقالت: أنت المخطئ ولا تتركُ له فرصة أبداً.

ولذا لا أقابل أحداً من الجيران إلا ويذكرها بالخير ويدعو لها ويقول: إنها بمنزلة والدته.

وذات مرة سافر إخوتي ولم يبق في البيت إلا الوالدة ونحن صغار معها، وكنت في السادسة الابتدائية فخافت الوالدة علينا كثيراً وذهبت لأم أحمد السلمان ـ رحمها الله ـ وقالت: إنَّ العيال الكبار سافروا وما عندي إلا عبد الله والصغار وأخاف عليهم، قالت لها أم أحمد السلمان ـ رحمها الله ـ: أنا أعلم أبا أحمد، فلما أخبرته قال لها: قولي لأم سعود تنام وتترك الباب مفتوح وما عليها إلا العافية.

وكان رَحِمَهُ اللهُ ـ كما تقول الوالدة ـ يدور على البيت طول الليل، وهذه الأسرة المباركة معروفة بقص الأثر فهم من أشهر الأسر على مستوى المملكة في معرفة الشبه والأثر والدلالة على المجرمين، لكنهم في السنوات الأخيرة لا يقدمون خدمات في هذا الباب لأمور هم أدرى بها من غيرهم.



والدتي وبعض أقاربها

يحظى بعض الأقارب بمكانة خاصة عند والدتي وقد وقفت على مثالين أذكرهما تمثيلاً لما أقول:

الأول: تحظى خالتي أم راشد سبيكة بنت سابح الطيار وهي أصغر من والدتي بمكانة خاصة عند والدتي، حتى إنها قالت لي حينما بدأت أدرس في كلية الشريعة قبل خمسة وثلاثين عاماً: لا تهتم يا ولدي فأنت ستذهب للرياض وهناك أمك أم راشد ستكون أرأف بك مني فأنت أغلى عندها من أولادها.

وهكذا لمست ذلك حينما كنت أدرس، فقد شجعتني خالتي وأخذت بيدي وهيأت لي جميع الوسائل ومن ورائها زوجها التقي الورع الزاهد العابد الصالح الذي إذا رأيته ذكَّرك بالسلف الصالح العم حمد بن راشد الطيار ـ شفاه الله وألبسه ثوب الصحة والعافية وجمعنا به ووالدينا ووالديهم وذرياتهم في جنات النعيم ـ.

وإذا ذهبنا للرياض وجدت أنها ترتاح مع خالتي وتقول: يا ولدي لذة الحياة إذا جلست أنا وخالتك مع خالك صالح أشعر كأني أملك الدنيا كلها، وإذا زارتنا خالتي في الزلفي ـ وهذا قليل نادر ـ خيمت السعادة على البيت وعشنا أياماً هنية لأن الوالدة تكون في قمة سعادتها مع شقيقتها ـ جمعهما الله في جنات النعيم ـ.

الثاني: يحظى ابن خالتي ـ سعود بن سليمان الطيار ـ بمنزلة خاصة عند والدتي، وكذلك أخته أم أحمد الفنيسان، ولا تسميه والدتي إلا ـ وليدي سعود ـ وكانت تقول لي خلال سفرنا في مكة: يا ولدي ـ سعود السليمان ـ وليد أخيتي ما لها إلا الله ثم هو، الله يجعله ـ عين جارية ـ ويصلح نيته وذريته، تراه يا وليدي مثلكم أو أغلى منكم وهكذا ـ أبو محمد سعود

السليمان ـ عرفته رجلاً شهماً باراً بوالدتي، صاحب دمعة عند السلام عليها، ولا أذكر أنه جاء للزلفي ولو لحظات إلا ويقابل الوالدة ويسلم عليها ويبحث عنها في أي مكان.

ولذا لما أنزلت الوالدة في قبرها ورأيته على شفير القبر تذكرت كلام والدتي فخرجت من القبر وطلبت منه أن ينزل ليكمل تلحيدها فهو واحد من أبنائها وقد أشعرته بذلك حينما علمت بزواج ابنه ـ عبد الرحمٰن ـ ليلة الخميس: ١/٦/١٤٢٦هـ، وقلت له: أنت رجل تستاهل، ولو كان الواحد منا في أقصى الدنيا لحضر إكراماً لك ووفاء بشيء من حقك لوفائك لوالدة الجميع ـ رحمها الله تعالى ـ.



أمي وزوجات أولادها

حينما ترد عليَّ بعض المشاكل بين زوجة الرجل ووالدته ـ وهذه المشاكل يومية ـ وأظن كثيراً من الذين يستقبلون أسئلة الناس يعرفون ذلك جيداً.

حينما ترد هذه المشاكل أتذكر نعمة الله عليّ وعلى إخوتي حيث وفق الله والدتنا أتم توفيق في معاملة زوجاتنا، بل إن والدتي لا تسمي بعضهن إلا ـ يا بنتي ـ فهن عندها مثل بناتها، وأكاد أجزم أن هذا من توفيق الله لوالدتي وتوفيقه لزوجات أولادها، ومن تمام سعادتنا وأهلنا، وقد عرفت الزوجات كيف يتعاملن مع الوالدة واجتهدن في برِّها، بل تنافسن في ذلك حرصاً على رضا أزواجهن، ولذا فوصيتي لكل امرأة عاقلة أن تحسن التعامل مع أم الزوج لتكسب قلب زوجها.

ولقد عايشنا نمطاً من التعامل بين زوجاتنا وبين والدتنا، فكم كانت النساء والأطفال يلجأون ـ بعد الله ـ إلى الوالدة لطلب رحلة أو اجتماع، ثم تبادر الوالدة بالأمر عليّ أو على أحد إخوتي، فنهيئ الجو إكراماً لوالدتي وحيث كانت ـ أم محمد السعود ـ أول زوجات الأولاد فقد كان لها تعامل خاص مع والدتي أكبرناه كثيراً وقدرناه، ولذا نعرف لها حقها وقدرها.

وكم كنت حريصاً على رد شيء من جميلها مع والدتي، وقد حرصت أن أحج بها مع محرم لها وبصحبة والدتي إكراماً لها، فهي من أكثر النساء معرفة لرغبات الوالدة ودخولاً على نفسيتها وإدراكاً لمشاعرها، وكم كان لها ولأختي أم سعود وسائر زوجات إخوتي مواقف رائعة خدمة للوالدة وقياماً بالواجب.

ولعل من آخر هذه المواقف ما كان من ـ أم محمد السعود ـ حيث رافقت الوالدة في مستشفى الزلفي ثم المستشفى العسكري باستثناء الليلة

الأولى في المستشفى العسكري التي رافقت فيها ـ أم أنس ـ زوجة الابن طارق بن عبد العزيز.

هذه مواقف أكبرناها كثيراً وحمدنا الله ـ جل وعلا ـ لأننا نرى بيوتاً تغلي بسبب الخلافات العاصفة بين زوجة الولد وأمه وهنا يبقى الولد بين نارين لا يدري ماذا يصنع، فإن أرضى أمه غضبت زوجته، وإن أرضى زوجته غضبت أمه، وهكذا تصبح الحياة أضيق من جب الإبرة على مثل هذا الولد لاسيما إن كان باراً بأمه محباً لزوجته.

ووالدتي ـ رحمها الله ـ كانت تترك الأمور في البيت ولا تتعرض لها، وحينما انتقلنا إلى منازلنا ـ في (حي ٨) رغبتُ أن يكون لها ملحق خاص ورفضت دخول المنازل والنوم فيها وقالت: من رغب أن يجلس عندي فليأتِ إليَّ في مكاني، وهكذا كان الملحق الخاص بها يعج بالغادين والرائحين ولا يخلو أبداً في الليل والنهار من الأطفال الذين ترى فيهم الوالدة تمام متعتها وسرورها.

وذات مرة أثناء إصلاح بين زوجين قالت المرأة بكل صراحة: أنا أطالبه بأن يعاملني هو وأمه كما تعامل أمك زوجتك ويكفيني ذلك، وكنت أظن أن المرأة لا تعرف أحوال بيتنا، فقلت لها: وما يدريك عن معاملة والدتي لزوجتي والعكس؟ قالت: الناس يتحدثون عن والدتك ومعاملتها لزوجاتكم وأنها تساويهن ببناتها، فقلت: صدقت بل وأكثر من ذلك.

ثم يسَّر الله الأمر بالمشورة على الزوج والحديث مع والدته وتذكيرها فاستقرت الأحوال إلى يومنا هذا.



الإحسان إلى الوالدين

ذات ليلة ونحن في إحدى الاستراحات تفرق من حولنا، فجلست مع والدتي وكنا وحدنا فقالت: يا ولدي، الحمد لله الذي أصلحكم وأصلح ذريتكم، والله يا ولدي لم يكتف أولادكم بالبرّ بل تعدوه إلى الإحسان، وها هم يتسابقون على بعض الأغراض، وذكرت لي منافسة اثنين من الأولاد على شراء أغراض لها وهما أحمد ابن سعود ومحمد بن عبد الله، وقالت: كل واحد منهما لا يريد الثاني يدري، وأخذت الأغراض منهما ودعوت لهما، وهنا تذكرت أثناء حديثها أن البرَّ إذا لم يصل إلى درجة الإحسان قبل الطلب والمبادرة بتلبية الحاجات للوالدين قبل طلبها فليس ذلك براً، وتذكرت كلاماً نفيساً للعلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ حول مراتب البر وأنه ينبغي للأولاد أن يتسابقوا في الإحسان إلى الوالدين، وأما قضاء حاجاتهما وتلبية طلباتهما فهذا أقل حقوقهما على الأولاد، ولذا أشار الله إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ غفر الله لأمي وجعلها في الفردوس الأعلى من الجنة، وجزاها عني وعن إخوتي وذرياتنا خير ما يجزي والداً عن أولاده.

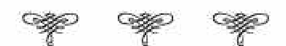


علاقتي بها
وما صاحبها من مواقف

(١) مرضي وأنا رضيع.
(٢) أمي والسفر خارج البلد.
(٣) أمي ورحلات الحج والعمرة.
(٤) أمي ومكانها في المسجد الحرام.
(٥) أمي وزواجي الأول والثاني.
(٦) أمي وأسماء الأولاد.
(٧) أمي والسفر لأمريكا الذي لم يتم.

أمي ومرضي وأنا رضيع

روت لي والدتي قالت: أصابك مرض شديد فتحولت صحتك وأصبحتَ نحيفاً من شدة المرض وكثرة القيء والإسهال، تقول: وقلبي يتقطع عليك حتى وصل الحال إلى أني فقدت الأمل إلَّا من الله، وكان جدك ـ سابح ـ والد أمي رَحِمَهُ اللهُ يتردد عليَّ ويقول لي: ماذا تريدين بهذا ـ العايل[١] ـ فأقول له: هذا الذي سينفعني إن شاء الله في حياتي وبعد موتي، ثم قام بحفر قبر[٢] صغير لك وهو ممن يتولون حفر القبور للأموات، وبعد شفائك تماماً كان يمسح على رأسك ويقول: الحفرة للمهاب يا ولدي.



(١) الصغير الذي لا يأكل ونحل جسمه من قلة الأكل.

(٢) وهذا اعتقاد غير صحيح أن الشخص إذا حفرت له حفرة شفاه الله.

أمي والسفر خارج البلد

باديء ذي بدء أقرر حقيقة هامة وهي أنها لم تسافر منذ أكثر من عشرين عاماً إلا وأنا معها ـ وهذا من فضل الله عليّ ـ حيث كنت أصاحبها في جميع أسفارها إلى مكة وغيرها علماً أن سفرها نادر جداً لغير مكة، فقد تمضي السنة والسنتان لا تسافر فيها إلا لمكة.

أما سفرها إلى البقاع الطاهرة فلها ثلاث سفرات ثابتة سنوياً منذ سنوات؛ في رمضان وفي الحج وفي الصيف.

والسفر مع الوالدة متعة لا تعدلها متعة، تيسير للأمور، وبركة علينا وعلى أولادنا، ودعاء مستمر، وأنس في الحديث، وعطف على الصغير والكبير، حتى أن بعض الصغار والصغيرات يفضلون النوم في غرفتها ويتركون أمهاتهم؛ وذلك للين جانبها وتبسطها مع الصغار وعدم رفع صوتها عليهم، فلا يلقون منها إلا خيراً محضاً.



أمي ورحلات الحج والعمرة

رحلات الحج والعمرة من الرحلات التي يستمتع بها المسلمون ويأنسون بها ويتخللها الكثير من الذكريات في تلك البقاع الطاهرة.

ولقد عشت هذه الرحلات واقعاً ملموساً مع والدتي ابتداء من عام ١٣٩٦هـ ثم في عام ١٣٩٩هـ، ثم استمرت هذه الرحلات إلى عام ١٤٢٣هـ، وقد تخلفَتْ عن الحج عام ١٤٠٣هـ لظروف أختي أم ناصر، وفي عام ١٤٠٧هـ و١٤٠٨هـ لظروف خاصة، ثم واصلت الحج وقد حدثت أمور عجيبة خلال هذه الرحلات في الحج.

وكذلك بالنسبة للعمرة في الصيف وفي رمضان، حيث بدأَتْ منذ عام ١٣٩٦هـ واستمرت إلى عام ١٤٢٣هـ. ولم تتخلف عن عمرة الصيف خلال هذه المدة، وأما عمرة رمضان فقد تخلفت ثلاث سنوات فقط لظروف صحية لها ولأخوي علي وعبد العزيز ـ رحمهما الله تعالى ـ.



مواقف من رحلات العمرة والحج

الموقف الأول: في إحدى رحلات العمرة في الصيف حصل حادث لأخي علي رحمه الله وهو يقود سيارته الجيب بعد أن دخلنا أول مكة وهو على الجسر، ولم يصب أحد بأذى عدا ابنته بُشْرى التي أصيبت في أذنها ونوّمت في المستشفى ليلتين ثم خرجت، وكذا أخي علي رحمه الله أصيب في يده وجلس في المستشفى ساعات ثم خرج وتأثرت سيارته، وقد أصلحتها في إحدى ورش السيارات بمكة بمبلغ سبعة آلاف ريال.

وكانت المشكلة هي إخبار والدتي بالأمر فجئت إليها وأخبرتها بأنه حصل حادث بسيط وأدخلت الأولاد عليها وقالت: أين أخوك؟ فقلت: نتابع الإجراءات ونأتي إليك إن شاء الله، وفعلاً جاء إليها أخي في الليل واطمأنت كثيراً.

الموقف الثاني: حدثت مواقف عجيبة تتيسر فيها أمور سيرنا للحج والعمرة أحياناً تصل إلى حد الكرامة ولله الحمد، فمثلاً تضيق الأمور ونمنع من الدخول بسيارتنا وأغراضنا ثم تقول: يا ولدي الله يبي يسر أمرنا، فأذهب وأتحدث مع أحد مسؤولي المرور فيفتح الله لنا مغاليق عويصة أذكر على سبيل المثال:

* سافرنا ذات مرة في عام ١٤٢١هـ في رمضان يوم: ١٩/٩/١٤٢١هـ ولما وصلنا مركز حجز السيارات حاولت مع رجل المرور وكان جندياً ـ دون رتبة ـ فرفض وأقسم بالله ألا أتجاوز وضرب بيده على السيارة، وجاء من جهة ولدي محمد وكان يقود السيارة فأقسمت وهو يسمع أن نعبر بسيارتنا، فغضب ومنع المرور بالسياج الحديدي فنزلت من السيارة وسألت عن المسؤول عن المركز فخرج علي ضابط من عربة واقفة وأقبل عليَّ يقول: ما تريد يا شيخ؟

قلت له: هذا وضعنا ومعي والدتي وهذه عربيتها وحاولت مع العسكري فلم يأذن لي علماً أنني قد هيئ لي موقف أمام سكني في مكة، فقال: اطمأن أنا أكلفه بأن يأذن لك، ثم أمره بسحب السياج الحديدي ومشينا، ثم قال لي: سأتقدم بسيارة النجدة وأفتح لكم الطريق، ولما عبرنا جميع المراكز وقف وودعنا، فقلت له: هل تعرفني؟ قال: لا والله، لكن وأنا في العربة أحسست بأمر دفعني للقيام، ووجدتك أمامي وسألتك، إنها الدعوات من والدتي وأوصانا بالدعاء له وأعطاني رقم جواله، وقال: أي شيء تحتاجونه في مكة اتصل بي وأنا أساعدكم.

الموقف الثالث: وفي حج عام ١٤٢٠هـ حدث أمر عجيب حيث استأجرت شقة بحي العزيزية، ووصلت مكة ليلة عرفة وطفت مع والدتي صبيحة يوم عرفة، وأثناء السعي وفي الشوط الأول اتصل الأخ الحبيب ـ سليمان بن مقبل الملحم ـ صاحب حملة الرسالة وكان جوالي مع ولدي أيوب فقال: أين والدك؟ قال له أيوب: يسعى مع والدتي ـ أم سعود ـ ثم عاود الاتصال مرة ثانية ونحن نسعى في الشوط السابع في نهايته فأعطاني أيوب الجوال وألحّ علي ـ أبو مقبل ـ أن ألتقي بهم في موقع الحملة بعرفة، وقال: لا تحرمنا كلمة للحجاج تكسب منها دعوات في هذا اليوم المبارك، ثم أخذ الهاتف والده ـ أبو صالح ـ وقال لي: أين الوالدة؟ فأعطيتها الهاتف ثم طلب منها أن تأمرني بالذهاب إليهم ودعا لها ووعدها بدعاء الحجاج لها وذريتها، ثم كلمته فقال: أنا أعرف كيف نلزمك بالمجيء إلينا، فدعوت له ثم قال لي: إذا وصلت إلى الخط العرضي فاتصل بنا لإحضار سيارة لنقل والدتك إلى المخيم، ولما وصلنا إلى الخط العرضي وكانت الساعة في حدود الثانية عشرة ظهراً طلب مني ابني محمد وكان يقود السيارة أن أطلب من رجال المرور السماح لنا للذهاب إلى المخيم، فطلبت من العسكري الأول الذي واجهني فرفض ثم سألته عن المسؤول في هذا الشارع فقال: ـ النقيب ـ وأشار إليه فذهبت إليه وألححت عليه فقال: لا يمكن أن نسمح لك ولو أذنًا لغيرك لما أذنًا لك، ثم خلع نظارته وقال: يا شيخ ألم تعرفني؟ فقلت: لا فقال: أنا ـ

فلان ـ وسلَّم عليّ سلاماً خاصاً، ثم سمح لنا بالدخول ووقفت سيارتنا عند المخيم ولله الحمد وأنزلت والدتي وأخذناها بالعربية واستقبلنا أبو صالح وأبناؤه بكل حفاوة وترحيب ودعاء، وكنت أحمل ـ البرج ـ الذي تستخدمه الوالدة لقضاء حاجتها، فلما رآني أبو صالح دمعت عيناه ودعا لي بالخير.

وبعد الغداء التقينا بالحجاج وأجبت عن أسئلتهم ومن ذلك التاريخ وأنا أحج مع ـ حملة الملحم ـ أسأل الله أن يتغمد والدتي برحمته وأن يتقبل منا جميعاً.



والدتي ومكانها في المسجد الحرام

اعتادت والدتي أن تجلس غربي المسجد الحرام منذ عام ١٣٩٦هـ حيث استأجرنا شقة في هذه الجهة ثم تعرفَتْ على بعض المقيمات ممن لا يغادرن الحرم، وبعدها أصبحت لا ترضى أن تجلس إلا في مكانها في رمضان والصيف وفي بعض الأعوام نضطر للاستئجار في غير الجهة الغربية فتقول لي: إن لم أجلس في مكاني المعتاد فلن أذهب إلى مكة، فأعدها بإيصالها إلى مكانها وقد نضطر لاختراق الحرم من أجل إيصالها إلى مكانها.

وقد قويت علاقتها بصويحباتها ـ أم عبد الله ـ وزينب ـ وفاطمة ـ ومريم ـ وزهرة ـ وغيرهن، وأصبحت تعطف عليهن وتسأل عنهن كثيراً، بل وتبلغ السلام لهن مع من يذهب من الأقارب، وقد حصل لهذه النسوة خير كثير ببركة علاقتهن بالوالدة، وكن يخدمنها خدمة البنات لوالدتهن، ولما علمن بوفاتها حزنَّ عليها، ولا زلت أحرص على إكرامهنَّ حسب المستطاع براً بوالدتي ووفاء لهنَّ لما قدمنه لها من خدمة في حياتها.



والدتي وزواجي الأول والثاني

كنت طالباً في كلية الشريعة بالرياض ونظراً لظروف الحياة المادية وصعوبة السفر فقد كنا نجلس الشهر والشهرين والثلاثة، إذا سافرنا إلى الرياض لا نزور أهلنا، فقررت والدتي ـ رحمها الله ـ أن أتزوج وطلبت من أخي سعود أن يزوجني، وقالت له: أخوك ليس له حل إلا أن يتزوج لئلا يبقى في الرياض.

وفعلاً حضر أخي سعود إلى الرياض وعرض عليَّ الأمر، فقلت له: أنا ليس لي رغبة إلا بعد التخرج والحصول على الماجستير، فقال: لا خيار لك، الوالدة رغبتها أن تتزوج في إجازة العيد القادم ولك مهلة أسبوعان تحضر عندها وتحدد المرأة التي ترغبها لننهي الخطبة وندفع المهر، وإلا سأضطر للزواج وأنت السبب وهو يعرف مكانة زوجته ـ أم محمد ـ عند الوالدة وعندي أنا وإخوتي، وقد قصد من هذا الأمر الضغط علي.

وبعد أسبوعين قدمت إلى الزلفي وحددت المرأة وذهب إلى والدها فقال وهو في المسجد: على بركة الله، وتم الزواج في الموعد الذي حددته الوالدة.



زواجي الثاني

وكان رأيها مباركاً عليَّ فقد حمدت الله على المبادرة ورزقني الله جل وعلا ـ ذرية أسأل الله أن يوفقهم ويهديهم ويجعلهم مباركين أينما كانوا.

لم تكن والدتي راغبة أن أتزوج وكانت تضرب بي المثل في عدم الرغبة في الزواج لكن إذا قدَّر الله ـ جل وعلا ـ أمراً يسر أسبابه.

وقد تقدمت لخطبة زوجتي ولم أخبر والدتي، وعقدت عليها ولم أخبر والدتي، ولما حددت موعد الزواج كنت أراعي خاطر والدتي فأتيت إليها وهي في مصلاها وقلت لها سأتزوج وأسافر إن شاء الله؛ فظنَّت أنني أمزح وهي مشغولة في صلاتها.

ثم تزوجت، وفي الصباح الباكر كلمتها وطيبت خاطرها وأخبرتها عن زواجي، فسألتني عن الأمور العامة والخاصة فطمأنتها ودعوت لها ودعت لي وباركت لي، وإذا حاول إخوتي إثارة هذا الموضوع قالت: زواج عبد الله أمر كتبه الله، وسدت عليهم الطريق، وبعد ذلك كان للمعاملة الحسنة آثارها في دعاء الوالدة لأهلي وأولادي.



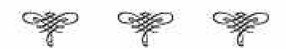
أمي وأسماء الأولاد والبنات

غالباً ما يسأل إخوتي الوالدة عن رغبتها في تسمية الأولاد والبنات ولكنها لا تحرص على تسمية أحد إلا إذا علمت أن الزوجة ـ أم الولد أو البنت ـ ليس لها رغبة في اسم معين، أما إذا تأكدت أن هناك رغبة في اسم معين فهنا تحرص على التسمية به حتى ولو لم يرغب أبوه في هذا الاسم أو ذاك.

ولا زلت أذكر حينما رغبتُ أن أسمي أسامة وبعده أيوب، كانت تقول لي: يا ولدي، أنت أدرى بالأسماء الحسنة، ولما بشرتها ببنتي الكبرى ـ وكنت أرغب في اسم معين، فقالت: ما شاء الله تبارك الله ـ منيرة العبد الله ـ فعلمت أنها ترغب في تسميتها عليها فقلت على الفور:

أمنيرة جاء البشير فهللت   أم القرى وتجاوبت أحساء

فقالت: ماذا تقول؟ فقلت: سميتها منيرة حسب رغبتك، فقالت: اسم مبارك، وهكذا أولاد أخي سعود ـ عبد العزيز وعلي ـ هي التي سمتهم على إخوتي، وهكذا ياسر ولد أخي جبر وغيرهم.



أمي وقصة سفري لأمريكا الذي لم يتم

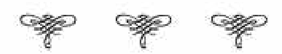
كنت مستعداً للسفر لأمريكا للمشاركة في أحد المؤتمرات الدعوية وبعد مشاورة لوالدتي لم تمتنع، لكنها تقول: أنا غير مرتاحة لهذه السفرة، فقلت لها: إن كنت لا ترين أن أسافر اعتذرت، قالت: لا يا ولدي، الله يقسم ما فيه الخير لك في العاجل والآجل.

وقد توجهت صباح الأربعاء: ١٤١٢/٦/١٩هـ إلى الرياض وقابلت معالي مدير الجامعة، ثم ذهبت لقسم العلاقات الخارجية وأخذت بعض الوصايا وعقدت العزم على السفر مغرب الأربعاء وبعد تأكيد الحجز والاتصال بالسفارة في أمريكا توجهنا إلى المطار لكنني أحسست بآلام شديدة في بطني وهي تزيد شيئاً فشيئاً وسفري الساعة التاسعة مساء، وبعد مشاورة أخي ـ الحبيب ـ عبد الله الهابس الموسى الذي كان ينوي توديعي في المطار شككنا أن الألم ـ زايدة ـ فرجعنا إلى الزلفي وفي منتصف الطريق تضاعف الألم فعرَّج قبيل المجمعة على الهلال الأحمر الموجود في الطريق وحملوني بسيارتهم إلى مستشفى المجمعة وبت فيه تلك الليلة بعد أن أُجريت الفحوصات اللازمة وشك الأطباء أن تكون (مرارة) وقد بات معي أخي ـ الهابس ـ وفي صباح الخميس: ١٤١٢/٦/٢٠هـ اتصلت على الزلفي فجاء أخي عبد العزيز رحمه الله وأخي جبر ـ حفظه الله ـ فقررت الذهاب إلى الزلفي لئلا تنزعج الوالدة، وسلمت عليها وقلت لها: لم يكتب الله أن أسافر وأنا أحس بألم في بطني وسأذهب للمستشفى وفعلاً عرضت الأمر على الأطباء فقرروا تنويمي وبقيت فيه ثلاث ليال.

وفي مساء الجمعة: ١٤١٢/٦/٢١هـ كانت هذه الأبيات من على السرير الأبيض:

جاءت إليّ تميس في حركاتها ... وتشير في زهو إلى وجناتها
وتبسمت تغضي بطرف ناعم ... تمشي بكل رتابة خطواتها
وتقدمت نحوي تلاطف رغبتي ... وتثير من مكنونها رغباتها
فأشحت وجهي والهموم بخاطري ... وأجبت أختي بالذي قد فاتها
يا أخت قد بدأ المشيب بعارضي ... فتداركي ما فات من غفلاتها
ما كان يغريني جمال باهر ... أبداً ولا سحر غشى نظراتها
ما كان لي (والله أبرم أمره) ... أن أصحب الأخيار في رحلاتها
حزن الفؤاد وما علمت بأنه ... خير وكل الخير في جنباتها
يا صاح لا تحزن بفوت رغائب ... فلقد يكون الخير لي بفواتها
أعراض آلامي بدت في حوطة ... وتأزمت بجلاجل آهاتها
شخص الحبيب بقلبه وبفكره ... فأناخ عند هلال إسعافاتها
وحملت فوق أسرة محمولة ... ومنازل الأقدار في طرقاتها
ودخلت مستشفى كبيراً حجمه ... وسررت للإبداع في غرفاتها
جاء الفريق مطمئناً ومتابعاً ... فأهاج مني حرصهم دعواتها
يا ليلة بات المنام مؤرقي ... طعم الفراش مكانه حسراتها
وأتيت في يوم الخميس وخاطري ... نحو الحنون ملاطفاً عبراتها
ودخلت مستشفى يزين بأهله ... بمديره وجهازه قاداتها
بدأ الفريق علاجه مترسماً ... في كشفه ما بان من خطواتها
مقبول مع عدنان صبحي كلهم ... أبدى التفاعل مظهراً قدراتها
أما المدير فهمُّه متواصل ... أبدى التفاعل في ذرى غاياتها
أبدى الجميع حماسهم وتكرموا ... فجنيت من إخلاصهم ثمراتها
كم في المشافي من همامٍ ماجدٍ ... رضع العلوم فكان من ساداتها
أمحمداً عذراً فإن قصيدتي ... لا تبلغ المأمول في أبياتها
أوليس حقاً للرجال تحيتي ... وثنائي الفياض عن عزماتها
أعربت في قولي فهل من سامع ... أم ليس يبلغ ميتاً دعواتها
يا رب وفق كل شهم مخلص ... يهوى المعالي في ذرى هاماتها

يا شافي الأسقام أنت ملاذنا هوِّن مصاب النفس من عثراتها
يا بارئ الأكوان أمرك نافذ مهما يكن للعبد من شهواتها
يا غافر الزلات عفوك إنني قد بان مني الجم من زلاتها
احفظ إلهي ديننا وجسومنا واختم لنا بالخير في جناتها



خصائص لها
وميزات وقفت عليها

(١) أمي والحديث مع الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أمي والعلاقة مع الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) أمي وعلاقتها بالوفي الغالي عبد اللطيف القشعمي رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) أمي ومؤذن الحي (أبو حمود جوير الفراج).
(٥) أمي والصدقة.
(٦) أمي وعطية الصغار.
(٧) أمي والمحافظة على النعم.
(٨) أمي وصويحباتها.
(٩) أمي وقيام الليل.
(١٠) أمي والحرص على الاجتماع ولم الشمل.
(١١) أمي وتوليد النساء.
(١٢) أمي والحرص على العبادة.

أمي والحديث مع الشيخ ابن باز رحمه الله
عبر الهاتف في تعزيته في أخي عبد العزيز

لما توفي أخي عبد العزيز رحمه الله اتصل سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز معزياً، ثم قال: أعطني الوالدة، فسلَّم عليها وعزَّاها وطيب خاطرها بكلام سُرَّت به كثيراً.

وكان لهذا الاتصال وأمثاله كاتصال سماحة الشيخ محمد ابن عثيمين أثر كبير في تطييب نفسها وتقويتها وشد أزرها حتى تجاوزت المحنة وصبرت ولله الحمد، وإلا فما أعظم فقد الوالد لولده وفلذة كبده ولاسيما إذا كان يرى صبية ولده وهم صغار، فقلبه يتقطع وهم يمشون ذهاباً وإياباً، فرحم الله والدتي وأخي وشيخنا رحمة واسعة.



أمي والعلاقة بفضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله

نظراً لعلاقتي القوية مع فضيلة شيخنا فقد كان يجل والدتي ويحترمها ويكثر السؤال عنها، وقد عزَّاها بفقد أخويَّ عبد العزيز رحمه الله ثاني يوم من وفاته الأحد: ٢٤/ ٤/ ١٤١٤هـ وكانت وفاته بعد ظهر السبت: ٢٣/ ٤/ ١٤١٤هـ.

وعلي رحمه الله ثاني يوم من وفاته الخميس: ٤/ ٢/ ١٤١٧هـ وكانت وفاته يوم الأربعاء: ٣/ ٢/ ١٤١٧هـ.

وذات مرة زارني الشيخ في مكتبتي عام ١٤١٣هـ وقال: سأسلم على والدتك، فظننت أنه عن طريق الهاتف، فقال لي: لا، سأقابلها، فقلت: دعني أدعوها، فقال: هذه امرأة صالحة، أنا أذهب إليها لكن أخبر من في البيت، فذهبت لجناحها الخاص وهيأت الأمر لشيخنا فدخل عليها ولم يكن بينه وبينها إلا متر واحد، وسلم عليها ودعا لها ودعت له.

ولما خرج الشيخ قالت لي: يا ولدي كيف يدخل عليّ وهو العالم الكبير لقد استحييت منه، فقلت: يا أماه هذا من تواضعه، ودلالة ـ ولله الحمد ـ على صلاحك وفضلك، فأسأل الله أن يرفع درجاتك ودرجات شيخنا في الجنات.

وفي مكة كان سكني في السنوات الأخيرة في نفس الجهة التي يسكن فيها شيخنا، وإذا صادف الوالدة وهي على العربية قرب منها وسلَّم عليها ودعا لها.

وفي عام ١٤٢١هـ في الصيف قبل سفر الشيخ إلى أمريكا اتصلت بالشيخ للاطمئنان على صحته ثم أخبرت الوالدة فقالت: لا بد أن أكلمه، فاتصلت ثانية وكلمته والدتي واطمأنت على صحته، ولما رجع شيخنا من أمريكا كنت مع والدتي في الرياض لزيارة بعض الأقارب؛ فاتصل بي الوجيه

عبد الرحمٰن الطوالة من الطائف، ودعاني للغداء على شرف شيخنا القادم من أمريكا، فقلت: لا أستطيع لأني مع والدتي في الرياض، فقال: سلِّم لي عليها وأخبرها بذلك فأخبرت الوالدة بالليل وقلت لها: دعاني أبو عبد الله وعنده شيخنا، فقالت: يا ولدي، اذهب وأنا أرغب الجلوس في الرياض فهذا الاجتماع فرصة وسلم لي على الشيخ واطمئن على صحته وسلم لي على عبد الرحمٰن الطوالة، وفعلاً حجزت آخر الليل وحضرت اللقاء في منزل أبي عبد الله عبد الرحمٰن الطوالة في الطائف ـ سلمه الله تعالى ـ.



أمي وعلاقتها بالوفي الغالي أبي سليمان عبد اللطيف القشعمي رَحِمَهُ اللَّهُ

منذ أن توثقت علاقتي بالوالد الغالي عبد اللطيف القشعمي وصلة والدتي تقوى معه ومع أسرته، ولا أذكر مناسبة عنده رَحِمَهُ اللَّهُ إلا ويتصل يدعوني ويطلب من الوالدة أن تحضر معي.

بل أحياناً يجبرني على الحضور بدعوته لوالدتي، حيث لا أستطيع الاعتذار إطلاقاً متى رغبت الوالدة بالذهاب إليه، وكم كانت الدعوات متبادلة بينه وبينها، ولذا كانت تقول لي: هذا يا ولدي من أوفى من عرفت من كبار السن حيث كان رَحِمَهُ اللَّهُ يأتي إليَّ في مكتبتي رغم كبر سنه ومكانته ويرفض أن يدخل ويقول: جئت محبة في الله وبقصد السلام عليك؛ فأكبر فيه هذا الشعور العظيم وتدمع العين أحياناً حياءً وإجلالاً وتقديراً واحتراماً له على هذا العمل الكبير، ويقول لي: أنت مثل أولادي أو أغلى.

وهكذا استمرت صلة والدتي به حتى توفي رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم استمرت الصلة مع أسرته ولاسيما مع أخته الوفية ـ أم محمد القشعمي ـ والدة صديقي الوفي أبي عبد الرزاق حتى توفيت أمي، ولا تزال صلتي بأبناء عبد اللطيف إلى يومنا هذا؛ فلا أذكر مناسبة عندهم إلا ويدعوني لها ولاسيما الابن البار بأبيه ـ عبد الرحمٰن ـ الذي أخذ مكان أبيه في العلاقة مع المشايخ وأهل العلم والحرص على دعوتهم واستضافتهم، وقد أنزلني نفس المنزلة التي كان أبوه ينزلني إياها وهذا وفاء منه لأبيه ووالدتي ـ رفع الله درجاته وأصلح له نيته وذريته، وجمعنا به ووالديه ووالديَّ في جنات النعيم ـ.



أمي ومؤذن الحي ـ أبو حمود ـ جوير الفراج

والدتي تقدر مؤذن الحي وتدعو له كثيراً وتقول: إذا أذَّن أحد غيره لا نسمع صوته وصوت ـ أبي حمود ـ مشهور على مستوى الزلفي، حيث يسمعه من كان في أقصى البلد مع دقة وضبط في الوقت رغم كبر سنه ـ متعه الله بالصحة والعافية ـ.

وذات يوم سافر أبو حمود ـ وهو قليل السفر جداً ـ ومكث ثلاثة أيام، وبعد عودته سمعت والدتي صوته: فهلَّلت ورحبت به، وقالت لي: قل له لا يسافر عنَّا فنحن نفقد صوته ولا يعوض عنه أحد، وكانت في رمضان لا يمكن أن تفطر حتى تسمع أذانه.

ولما أجرى أبو حمود عملية جراحية في ركبته وغاب غيبة طويلة أكثر من شهرين ورجع وكان لا يجلس إلا على كرسي قالت لي: أصلح له كرسياً وأنا سأدفع قيمته إكراماً له، فأخبرت المؤذن في ذلك واستأذنته، ولا يزال إلى اليوم يستخدم هذا الكرسي ويدعو للوالدة ـ رحمها الله ـ.



أمي والصدقة

أصبحت الصدقة جزءاً من حياة والدتي، فلا يكاد يمر يوم إلا وتبذل فيه ما في يدها قليلاً كان أو كثيراً، وإذا لم تجد من تتصدق عليه بذلت للأطفال الذين عندها في البيت.

وكانت تحرص على إيصال ما فضل في يدها إلى المحتاج ولاسيما من كبيرات السن بحكم العلاقة معهن ومعرفتهن معرفة خاصة.

ولا زلت أذكر تلك الحادثة حينما جئت ذات صباح إليها فسلّمت حسب المعتاد وجلست لمؤانستها بعض الوقت، فقالت: يا ولدي اليوم في الصباح ذكر لي أخوك سعود أن امرأة كانت في مكان كذا تجمع الأخشاب وكانت تلك الأيام في الشتاء القارس ـ وقد جلست والدتي حول النار التي تستدفئ حولها في الصباح والمساء وليتك ـ يا ولدي ـ تأخذ لهم من الحطب الذي اشتريته ليكون سراجاً لك ووالديك، فقلت: أبشري واتصلت وأنا عندها بأحد باعة الحطب وطلبت منه إحضار سيارة جيب ـ مليئة بالحطب ـ وقلت له: يحضرها بعد المغرب، وفعلاً تم ذلك ونزّلنا الحطب في بيت هؤلاء ـ لاحرمني الله ووالدتي ووالدي أجر ذلك ـ ولم يعلم عن هذا الأمر غير والدتي لكن أختي ـ أم الدكتور سعود الحمد ـ متعها الله بالصحة والعافية وأسكنها فسيح جناته ـ رأت في المنام في نفس تلك الليلة أخي عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ وهو يشعل النار للدفء وأختي تقول له: يكفي يا عبد العزيز وهو يقول لها: الخير واجد يا أم سعود، ولما جاء الصباح سألتني عن هذه الرؤيا فاضطررت لإخبارها عن الأمر وأخبرت والدتي بالرؤيا فاستبشرت كثيراً.

لقد كانت والدتي تحرص على الصدقة ولها ترتيبات خاصة في رمضان وفي مكة وأعطيات ثابتة، واليوم الذي تخرج من عندها الصدقة يتهلل وجهها بشراً.

فكم من أسرة أدخلت السرور عليها، وكم من أيتام مسحت دمعتهم، وكم من محتاجين سدت حاجتهم، لا حرمها الله أجر ذلك كله وبوأها الفردوس الأعلى من الجنة.

والصدقة لها أثر عجيب في سرعة الفرج وإزالة الكرب، وقد ذكر لي الأستاذ الفاضل أبو أحمد عبد الله بن أحمد النصار وهو ثقة فيما يرويه لاسيما أن الله أعطاه دقة في النقل وقوة في التأثير على السامع وضبطاً للقصص والحكايات، وكان حديثه في ـ مجلس العطا الله ـ عن قصة واقعية لعمه أبي محمد حمود بن محمد النصار وقد عايش ما قبل النهضة في بلادنا وأدرك الفقر والجوع قال: كنا في سفر وبعد عودتنا من السفر نفد الماء إلا شيئاً يسيراً وقد تعاهد رفقتنا ألا يشرب أحد بمفرده ولا نأخذ إلا ما يبل الشفاه، قال وكنا جلوساً لصلاة المغرب فذهبت لإحضار تمر من مزادنا ـ وهو لا يزيد على جراب تمر فقط ـ وشيء من الماء اليسير في إحدى القرب وأثناء أخذي للتمر رأيت قطاة تحوم حولي تذهب وترجع مرات وأدركت في الأخير أنها تبحث عن الماء فنظرت إلى رفقتي ووجدتهم غافلين عني ففتحت القربة وأخذت ماء يسيراً ووضعته في إناء وهيأته للقطاة فنزلت وشربت منه حاجتها ثم طارت فشربتُ ما بقي منها وكان لا يملأ الفم ثم ذهبت بالتمر إلى رفقتي ولم أخبرهم بشيء ونحن في ضائقة لا يعلمها إلا الله وحاجتنا للماء حاجة ماسة وكنا نخشى على أنفسنا من الموت وأثناء صلاتنا المغرب أحسسنا بصوت غريب ثم ما لبث الأمطار أن هطلت وكان حولنا بعض الحفر فامتلأت فشربنا وملأنا القرب وسقينا الإبل ثم لما نظرنا إلى ما حولنا وجدنا المطر لا يتجاوز خمسين متراً مع الجهات كلها فعلمنا أننا سقينا بدعوة هذا الطير.

وهنا سأل رفاقي ما الذي حدث؟ فأخبرتهم وقلت: إنني أخفيت الأمر عليكم خوفاً منكم فقالوا: عملك عاد علينا بهذا الخير العظيم فحمدنا الله وشكرناه وعلمنا بركة الصدقة وفضلها وسرعة جزائها.



أمي وعطية الصغار

اعتادت والدتي ـ رحمها الله ـ على عطية الصغار وأصبح ذلك جزءاً من حياتها فلا تكاد تخرج إلى مناسبة أو زيارة أو لقاء أو دعوة خاصة أو عامة إلا وجيبها مليء بأنواع الهدايا من المأكولات للصغار من الحلاو والعلك وغيرها، ولا يمكن فيما علمت أن تذهب لصلاة الجمعة إلا ومعها ريالات من فئة ريال ومعها شيء من الحلاو والعلك.

وكم تُسرُّ كثيراً إذا جاءها صغير أو صغيرة ومدت لهم شيئاً مما معها، وإذا ذهبت إلى المسجد وعادت وهي لم تعط أحداً قالت عبارتها المألوفة ـ: الله لا يحرمنا فضله اليوم ما جاء أحد من الأطفال.

ولذا كان ـ البرَّاد ـ الخاص بها وطوله متران في متر لا يخلو من أنواع الحلاو والعلوك والبسكوت والكاكاو والفيشار وغيرها من مأكولات الأطفال.

وكم كنت أُسر إذا قالت لي: إن البراد ما فيه ـ إلا بركة الله ـ وهي عبارة عندها كناية عن قلة ما فيه علماً أن إخوتي ـ وكلهم مبارك ـ يتنافسون في تكميل ما تحتاج إليه.

وأكثر ما تعطي والدتي أولادنا الصغار فلا يكاد يمر يوم إلا وهناك أعطية عامة لجميع الأولاد والبنات الصغار، أما الأعطيات الخاصة حسب الظروف فحدث ولا حرج عن كثرتها وتنوعها ولا زلت أذكر تلك المواقف المتكررة حينما تدخل إحدى البنيات أو الأبناء ـ ممن لهم حظوة خاصة ـ فتفتح الوالدة لهم البراد على مصراعيه وتقول لهم: خذوا ما شئتم فيحمل الطفل ما يستطيع في يديه وجيبه وفمه حتى يعجز.

وحالها كما قيل:

تـراه إذا مـا جـئـتـه مـتـهـلـلاً   كأنك تعطيه الذي أنت سائله

أمي والمحافظة على النعم

عرفت عن والدتي الحرص الشديد على المحافظة على النعم وعدم التفريط في ذلك ومعاتبة أي فرد من الأسرة لا يهتم بالنعمة ولو كان صغيراً.

وأحياناً إذا جئت إليها وسلمت عليها عرفت في وجهها الغضب ثم بعد الملاطفة والسؤال تفصح لي أنها رأت قطعة خبز هنا أو تمرة هناك وتقول: لا يعرف قدر النعمة إلا من مسته الحاجة وكثيراً ما تذكر لي أنها كانت تبيت من الجوع ولم تذق طعاماً لقلة ذات اليد وكان من عادتها تفقد أماكن النعمة ولاسيما المكان المخصص لذلك في المطبخ.

ومن عادتها أنها تضع بقية الأطعمة وخصوصاً الأرز للطيور التي تهبط بجوار مسكنها وقد ألفت هذه الطيور هذا المكان لأنها تجد فيه الماء والطعام وإنك لتعجب من كثرتها خصوصاً في الصباح والمساء.

إن ربَّاً كفَاكَ ما كان بالأمسِ سيكفيكَ في غدٍ ما يكون



أمي وصويحباتها

والدتي امرأة أمية لكنها تفْضُلُ عندي ملايين المتعلمات عقلاً ورأياً ووفاء وحسن علاقة مع الأخريات.

عرفت عنها وفاءها لصويحباتها خلال الثلاثين عاماً الماضية ولعل صلتها بصويحباتها في مكة خير مثال على ذلك حيث كانت علاقتها بنساء من خارج هذه البلاد من الفقيرات تعطف عليهن وتبذل الميسور لهن وتشترط عليَّ أن تكون في نفس مكانها الذي ألفته منذ أكثر من ثلاثين عاماً حيث تجد في هذا المكان بعض صويحباتها ممن أشرت إليهن كما أن لها علاقة بأخريات تطمئن عليهن وتتصل بهن وهن يبادلنها ذلك بل وكلهن يرتبن زيارة لها بين وقت وآخر.

ولا زلت أُكبر فيها حرصها على بعض البنات اللواتي حججن معنا في بعض السنوات ـ قبل حملات الحج ـ وكانت تتابع أخبارهن وتدعو الله لهن حتى تزوجن وأنجبن وهنَّ على اتصال بها حتى وفاتها ـ رحمها الله ـ.

ومن الأمثلة على قوة علاقتها بصويحباتها وحرصها وتحقيقاً للنصوص الشرعية الداعية للبرّ والصلة علاقتها بوالدة محمد ابن خالد الحربي ووالدة صديقي محمد بن عبد الله البدر ـ العريفجة ـ ووالدة صديقي الوفي الغالي عبد العزيز القشعمي أبو عبد الرزاق وإخوانه الأوفياء، ووالدة صديقي محمد بن عبد العزيز الزنيدي وغيرهنَّ كانت الوالدة ـ رحمها الله ـ على علاقة حميمة مع هذه النساء وتبادلهن المودة والمحبة وتدعو لهن بظهر الغيب.

ولذا غرست محبتهن في نفوسنا فأحببناهن وأحببنا ذرياتهن، أسأل الله أن تكون محبة صادقة خالصة وأن يشملنا قول حبيبنا رسول الله ﷺ: **«المتحابون بجلال الله على منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء»**.

أمي وقيام الليل

كان السلف يتنافسون في إحياء الليل وصار ذلك في الخلف قليلاً:

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً فقد صاروا أعز من القليل

كان السلف جبالاً في العلم والعمل ملكوا الدنيا بصدقهم وإخلاصهم وعلو همتهم وعبادتهم ولسان حالهم، يقول لمن بعدهم:

كنا جبالاً في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا

وقد اجتهدوا وثابروا وخلفوا لنا عملاً جليلاً، وسطروا صفحات ناصعة لكننا لم نقدرها قدرها ولم نعطها حقها من الاهتمام والرعاية والاقتداء ولسان حالهم يقول لنا:

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد لغزلي نسَّاجاً فكسَّرت مغزلي

والعز والشرف والفخر والمجد في السير على ركابهم والاقتداء بهم فصمتهم كثير وعملهم كثير وعطاؤهم ثر، وصدق من قال: «صلاح العمل بصلاح القلب وصلاح القلب بصلاح النية ومن صفا صُفِّي له ومن خلط خُلِّط عليه»

وهكذا قيل: «إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك».

وفي قيام الليل علو الهمة وصلاح القلب وسعادة الحياة ولا شك أن حياة النفس في سموها، ونجاتها في علوها.

وهكذا يحفظ العبد نفسه بقيام الليل ويجاهد إصلاح قلبه بطول القيام وكثرة الركوع والسجود ليسلم القلب من الآفات.

وصدق ابن القيم رحمه الله إذ يقول: «مثل القلب مثل الطائر كلما علا بَعُدَ عن الآفات وكلما نزل احتوشته الآفات».

أجل إن هناك أقواماً موتى لكن القلوب تحيا بذكرهم، وهناك أقوامٌ أحياء تقسو القلوب برؤيتهم وإن من يتخرج في مدرسة الليل ويجاهد نفسه يؤثر في غيره بطلعته البهية ووجهه النَّضِر، ومن تخلف عن هذه المدرسة ورسب فيها، فهو يابس قاس تقسو القلوب بالنظر إليه، وهذا أمر مشاهد وملموس.

ونصوص الوحيين كثيرة في هذا الباب، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وصح عنه ﷺ: «**بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم**» [رواه مسلم].

وجاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها**» [رواه مسلم].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

ولله در الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حيث يقول:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٤].

منذ كنت صغيراً وأنا أعرف هذه الصفة ـ وهي قيام الليل ـ عن والدتي حيث كان قيام الليل جزءاً من حياتها، ولما تقدمت بها السن اشتد حرصها

وعظمت رغبتها حتى في سفرها للحج والعمرة وغيرها لا يمكن أن تترك هذه العبادة.

وإذا جئت إلى مصلاها قبل أذان الفجر أو بعده أو بعد الصلاة أعرف في وجهها الحزن فأسألها: ما لك يا والدتي لا بأس عليك، فتقول: لا يا ولدي اليوم ما قمت إلا مع الأذان الأول أي: قبل أذان الفجر بساعة كاملة، ومع ذلك يظهر عليها الحزن والخوف من الله لأنها لم تقم قبل الفجر بثلاث ساعات أو ساعتين.

إنه التعود على العبادة لا يعرف صاحبها غيرها، أما نحن فنسأل الله أن يلطف بنا وأن يرحمنا فكم قصرنا في طاعة ربنا وتكاسلنا عن هذه الشعيرة العظيمة.

قال بعض السلف: «الشتاء ليله غنيمة الصالحين المصلين لطوله ونهاره غنيمة الصائمين لقصره».

ورحم الله والدتي، كم كانت خلال سفرنا إلى مكة في رمضان والصيف بل وفي موسم الحج تحافظ على صلاة الليل وكأنها عندها فرض لا يمكن أن تتركها مهما كانت متعبة ومشغولة بل حين يشتد عليها المرض تحرص على أن تقوم حسب عادتها دون أن تقلل الركعات أو مدة القيام، وقد ذكر أخي جبر في كلمته عنها طرفاً من ذلك.

وهكذا حال الصالحين والصالحات لا يمنعهم من تحقيق أعمالهم الجليلة والقيام بها همٌّ أو شغل أو تعب، بل هم أحرص عليها من حرص الآخرين على الفرائض.



أمي والحرص على الاجتماع

حرص والدتي على الاجتماع لا يدانيه حرص أحد، متى أراد أحد منَّا السفر أو النزهة أو الذهاب للعمرة وطلب منها مرافقته قالت: نذهب جميعاً.

وكم من مرة أخذنا سيارة إضافية بناء على رغبتها وإذا اجتمع عندها الأولاد والبنات فهذا غاية ما تسعى له في الدنيا بعد العمل الصالح، ولذا حرصنا أن نرتب اجتماعاً يومياً بعد المغرب عندها واجتماعاً أسبوعياً ظهر الجمعة نجتمع كلنا عندها علاوة على الاجتماع اليومي عند الإفطار والغداء والعشاء.

ومن فقدته منَّا اتصلت عليه وسألت عنه وتفقدت أهله وأولاده، وإذا رغبنا في لقاء في إحدى الاستراحات دعت الخاص والعام من الأقارب وقالت: الله يجمع شملكم ولا يفرقكم، وكثيراً ما تقول: الاجتماع عز والتفرق ذلة.



أمي وتوليد النساء

تعتبر والدتي قابلة على درجة عالية من المهارة والإتقان وحسن التصرف، وكم كانت تذهب في جوف الليل في الليل الشاتي وهي لا تريد من وراء ذلك إلا دعوة صالحة، وكم حصل لها من المواقف في هذا الباب ومن ذلك:

* أنها تتطهر عندما تبدأ بتوليد المرأة وتجعلها تستقبل القبلة وتلقنها بعض الدعوات.

* إذا ذكر أهل المرأة الطبيب أو الطبيبة خرجت من عندهم وقالت: هؤلاء لا يتوكلون على الله وإلا لو توكلوا لما أحضروا الطبيبة أو فكروا في ذلك.

* إذا تعسرت ولادة المرأة تقول لي: أَرْفَعُ رجليها وأهزها بقوة فإن كان الولد معترضاً يعتدل بإذن الله.

* تعطي المرأة شيئاً حالياً كالتمر والحليب ليسهل الولادة.

* ترفع صوتها بالذكر والدعاء والتهليل والتسبيح لتردد المرأة معها وكل من حضر من النساء.

* لا يمكن أن تركب مع رجل أجنبي بل تمشي والسيارة بجوارها إلى أن تصل إلى البيت المقصود.

* تقول لي: إذا اشتد الأمر طلبت من كبار السن الموجودين في البيت أن يدعوا للمرأة بسرعة الفرج.

* لدى الوالدة غرفة في بيتنا تسمى غرفة الولادة من أحست بقرب ولادتها ذهبت إلى هذه الغرفة وهنا تجلس عندها الوالدة الليلة والليلتين حتى يحصل الفرج من الله.

* تقول والدتي: ما ولدت امرأة إلا جزمت أن الموت أقرب للمرأة من الحياة لكن ما أسرع فرج ربنا ﷻ.

أمي والحرص على العبادة

العبادة تورث نوراً في قلب العبد فتصلح أحواله ويعظم توكله على ربه، وهكذا كانت حياة والدتي تعتبر العبادة جزءاً من حياتها تحافظ عليها كما تحافظ على الأكل والشرب، بل والله إنها تهتم بالعبادة أكثر من اهتمامها بأكلها وشربها، فمنذ عرفت ـ العلم ـ وهي تحافظ على قيام الليل، وصلاة التراويح في المسجد، وصلاة العيدين، والاستسقاء، وصلاة الجمعة، وصلاة الضحى، بل وتصلي الكسوف في البيت.

وكان أخي علي رَحِمَهُ اللهُ هو الذي يتولى إيصالها باستمرار، ثم بعد وفاته توليت ذلك حتى ناب عني ولدي محمد في إيصالها يوم الجمعة، وأما التراويح فتولى إيصالها للمسجد مع أمه وعمته أم سعود ـ الابن سليمان السعود ـ.

وهكذا كانت العبادة مثل الغذاء لوالدتي، وكم كانت تقدمها على كثير من الرغبات والحاجات الدنيوية.

وأما الصيام فكانت لا تدع صيام النوافل، وقد ربَّت من حولها على صيام ستة أيام من شوال وصيام يوم عرفة وصيام تاسوعاء وعاشوراء، بل قرت عينها في العقد الأخير بصيام أولادنا وبناتنا معها ولا أنسى فرحتها إذا اجتمعنا في وقت الإفطار لصيام النفل، حتى وصل الحال إلى أن عينها تدمع من الفرح والسرور باجتماعنا حولها.

وقد استمرت سنوات كثيرة تصوم شهر الله المحرم حتى ألححت عليها بعد أن أصبحت تتعب أن تكتفي بثلاثة أيام من كل شهر، واستمرت تصوم تاسع ذي الحجة حتى ولو كانت تعزم على الحج ولا تدع الصيام إلا في اليوم الذي نمشي فيه إلى مكة، كما استمرت في صيام ثلاثة أيام من كل شهر وكان

أخي سعود ـ حفظه الله وتولاه ـ يصوم معها وتمر عليه ظروف صعبة جداً، قد يكون الفطر أيسر له وأعون على قضاء بعض المصالح ومع ذلك يقوم من أجلها ويتسحر معها ويفطر معها ويتحمل ولاسيما في شدة الصيف وكم كانت تشفق عليه وتقول لي ـ رحمها الله ـ: أحياناً أفكر أني لا أصوم من أجل أخيك سعود الذي يكلف نفسه، فقلت: هو يريد العبادة ويريد البرّ بك، ثم تدعو لنا بدعوات أغلى من الذهب والفضة.

وهكذا أهل الخير والفضل تسهل عليهم العبادة وتدعوهم الطاعة إلى أختها فيتقلبون من خير إلى خير، ومن طاعة إلى طاعة في أجواء إيمانية فسيحة.



أمي ونوم الأطفال عندها

الجناح الخاص بوالدتي يعج بالحركة نهاراً لكثرة الغادين والرائحين وهو أكثر المنازل حركة، ويندر أن يخلو من الرجال أو النساء أو الأطفال، والكل يجد مبتغاه الرجل والمرأة يجدان الاستقبال والبشاشة والتقدير والدعاء، والأطفال يجدون ما يحتاجون إليه من المأكولات والمشروبات التي تناسبهم.

هذا في النهار، أما في الليل فبعد المغرب الاجتماع الأسري للرجال والأولاد والأقارب ممن لا تتحجب عنهم والدتي وبعد العشاء ينام عدد من الأولاد عندها، ومنذ جاء أحفادها ومكانها لا يخلو من أولاد ينامون معها بدءاً من محمد بن سعود، ثم أحمد، ثم محمد بن عبد الله، ومحمد بن عبد العزيز وإخوانهم، حتى بدأ أيمن بن سعود ينام عندها منذ عشر سنوات هو وإخوانه خالد وعبد الله ويزيد إلى وفاتها، ويحظى أيمن بمكانة خاصة عند والدتي وتأمنه على طلبات خاصة لأنه رهن إشارتها في الليل والنهار، والغريب العجيب أن الأطفال إذا ناموا في بيوتهم يصعب إيقاظهم، أما إذا ناموا عند الوالدة فتكاد لا تكرر النداء لإيقاظهم مرتين كل ذلك احتراماً لها وتقديراً ومهابةً، ولعل ذلك سر من أسرار صلاحها وتوفيقها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.



حوادث في حياة والدتي لا أنساها

(١) إصابة أخي عليّ رَحِمَهُ اللَّهُ في عينيه بعد شراء البطيخ.
(٢) إصابة أخي عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بالرعاف.
(٣) سباحتي في بركة ـ أخوالي ـ وحضورها لإنقاذي.
(٤) حادثة السيارة لي.
(٥) شرب أخي عبد الرحمٰن ـ الجاز ـ.
(٦) زواج أبي سعود ـ الغريشي ـ زوجة ثانية على أختي أمي سعود وموقف والدتي من ذلك.
(٧) إصابة أختي أم ناصر بمرض طارئ وموقف الوالدة من ذلك.
(٨) إجراء أخي سعود عملية البواسير وموقف الوالدة من ذلك.
(٩) زواج أبي ناصر زوجة ثانية وموقف الوالدة من ذلك.
(١٠) إرسال البيض البلدي لأخي أبي محمد عبد العزيز المديد وهو منوم في المستشفى.

(١١) العملية الجراحية لأسنان الابن حسان بن عبد العزيز وموقف الوالدة من ذلك.

(١٢) العملية الجراحية لإزالة الناسور لابني محمد والابن محمد ابن عبد العزيز في وقت واحد وموقف الوالدة من ذلك.

(١٣) حادثة رمي القطعة الصغيرة من يد أحمد الحمد واستقرارها بحلق أخي عبد الرحمٰن بمنظر من الوالدة.

(١٤) حادثة العقرب التي استقرت على عانة أخي عبد الرحمٰن وهو صغير.

(١٥) أمي وحادثة العقرب التي استقرت في ظهرها فترة ثم طلبت من أختي ـ أم سعود ـ أن تنظر ما هي.

(١٦) حادثة الحية التي وجدناها تحت الزير وموقف الوالدة وكيف تصرفت.

(١٧) أختي أمي سعود والحية وموقف الوالدة من ذلك.

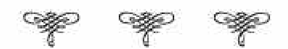
(١٨) أمي ومحبتها للخير ـ قصة حليب البقرة ـ.

(١٩) أمي وحادثة ـ الجاز ـ.

(٢٠) أمي وحادث محمد بن سعود.

أولاً: إصابة أخي عليّ رَحِمَهُ اللهُ في عينيه بعد شراء البطيخ

كان أخي علي رَحِمَهُ اللهُ يعمل في البلدية وذات مرة وفي بداية موسم البطيخ اشترى كمية كبيرة من أجل أن توزع منها الوالدة لكن أحد كبار السن رآه فأصابه ـ بالعين ـ ولما أحضر الأخ علي البطيخ للبيت وذهب للبلدية للدوام طار المبيد في عينيه فعمي تماماً وأصبح لا يرى، ولما أحضره زملاؤه للبيت كانت والدتي ـ رحمها الله ـ ذات فطنة عجيبة فقالت لي: عبد الله اذهب إلى المسجد بعد الظهر وخذ من التراب من الجهة الفلانية ومر على دكان فلان وخذ منه وأحضره لي سريعاً، وأعطتني خرقة مبلولة وقالت: جرها على محل الأقدام فقمت بالمهمة على خير وجه وأحضرت لها ما طلبت ثم وضعته في ماء حار وجعلت دخانه يتجه لعيون أخي علي ففتح عينيه مباشرة، وقالت لأخي سعود: اذهبوا به إلى الرياض ليتسامع الناس أنه حصل عليه كذا وكذا لعلها تكون حاسمة الشر، وفعلاً ذهبنا إلى الرياض وأجرينا له فحوصات وظهرت النتائج سليمة ولله الحمد والمِنَّة.



ثانياً: إصابة أخي عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ بالرعاف

أصيب أخي عبد العزيز برعاف حاد ولم يقف الدم فأمرت والدتي أخي سعود أن يذهب به إلى الرياض فأخذني معه، وكان أخي عبد العزيز مضطجعاً في المرتبة الخلفية، ولما وصلنا الغاط خف نزيف الدم فقال: لعلنا نرجع كأنه خف عليّ الدم فرفض أخي سعود وقال: لا بد أن نذهب إلى الرياض ونعرض الأمر على طبيب مختص وفعلاً ذهبنا إلى الرياض وعرضنا الموضوع على طبيب صيني وقام بكيٍّ أخي مع أنفه وشفاه الله تماماً ورجعنا إلى والدتي بعد ما وصلت حالها إلى حد كبير من الخوف على أخي، ولم يكن وقتذاك هاتف ولا غيره من وسائل الاتصال.



ثالثاً: سباحتي في بركة (أخوالي) وحضورها لإنقاذي

في صيف عام ١٣٩٠هـ وفي ضحى يوم الجمعة كنت مع ابن خالتي ـ الدكتور راشد بن حمد الطيار ـ وهو أصغر مني فتذاكرنا حول الكفاءة والقدرة وجودة السباحة، وقال لي: لا تستطيع أن تسبح في بركة أخوالي، وكانت بركة مغطاة كبيرة تكاد تمتلئ بالماء فتحمست ونزلت وتعبت في الخروج لكن الله أعانني وخرجت فقلت له: انزل أنت، فقال: هل تستطيع مرة ثانية؟ قلت: نعم، قال: اسبح وأنا بعدك فنزلت لكنني عجزت عن الخروج ورأيت الموت بأم عيني فتأزمت الأمور وبكى ـ راشد ـ ولم يكن حولنا أحد إطلاقاً فذهب راشد وأخبر الوالدة فجاءت من غير عباءة ولم يكن بين بيتنا وحوش أخوالي إلا الشارع فقط وفزعت وأخذت تحرج علي ألا أنزل وأنا بين الحياة والموت لأن نَفَسِي انكتم، وقال لها راشد: يا خالتي أولاً نطلع عبد الله ثم امنعيه واجتهد مع والدتي واستجمَعْت قواي حتى يسَّر الله وخرجت، لكن الدماء كانت تسيل من الساق والساعد وبعد معالجتي من والدتي ذهبنا وصلينا الجمعة، وأصبحت تتعاهدني ألا أنزل مرة ثانية.



رابعاً: حادث السيارة لي

في صيف عام ١٣٩٨هـ وفي ضحى يوم الجمعة جلست مع بعض الإخوة استعداداً لخطبة الجمعة في ـ العقلة ـ وبعد أن قمنا من مكاننا لنوقف بعض السيارات عند البيت وننطلق إلى المسجد وكان ورائي الدكتور سعود الحمد ابن أختي في سيارة وأنا معي سيارة مازدا ووضعت معه حافظة الشاي.

وفي الطريق الترابي قدر الرحمٰن عليّ فانقلبت بي السيارة عدة مرات وقفزت عن الأرض أمتاراً ثم وقفت بي وأنا أتشهد وسعود خائف عليّ أن يكون أصابني أمر لأنه يسمع صوتي أتشهد فنزلت وقال لي: سلامات يا خال، فقلت: الحمد لله ليس بي بأس ما عدا أصبعي ينزف دماً وقد لوث ملابسي فقلت له: يجلس عند السيارة أحد الإخوة وأنا سأذهب لوالدتي لئلا تعلم عني.

فذهبنا إلى المستشفى وعلم أخي علي رَحِمَهُ اللهُ فأحضروا من يجر السيارة وعالجت أصبعي ودخلت على والدتي وأخبرتها وقلت لها: سأذهب لأخطب الجمعة وأتغدى عند أحد الإخوة فدعت لي بالتوفيق والحفظ والإعانة.



خامساً: شرب أخي عبد الرحمن ـ الجاز ـ[١]

كان أخي عبد الرحمٰن صغيراً فتناول جازاً في إناء وشربه فلما علمت الوالدة أمرت أخي علي أن يذهب به إلى المستشفى وذهبنا إلى الطبيب وأعطاه علاجاً وعدنا إلى الوالدة وهي واقفة عند الباب وقلنا لها: إنه طيب وسليم فضمته إلى صدرها ودعت له.



(١) تسميه العامة (القاز).

سادساً: زواج أبي سعود ـ الغريشي رحمه الله ـ زوجة ثانية على أختي أم سعود وموقف والدتي من ذلك

تزوج أبو سعود الحمد ـ عبد العزيز بن سليمان الحمد ـ زوجة ثانية على أختي وكنا وقتها في مكة فطلبت الوالدة حينما سمعت بدايات الخبر من أختي أن ترافقنا إلى مكة فاعتذرت أختي وهي أدرى بظروفها لاسيما في ذلك الوقت وكانت والدتي مشغولة البال حيث أكثرت الاتصال والسؤال، ولما علمت أن الأمر صار عادياً عند أختي فرحت ودعت لها وقالت: هكذا تكون المرأة العاقلة، فقلت للوالدة: وأنت ما رأيك في الزواج، فقالت: والله لو ينخل الدنيا كلها ما يجد مثل أم سعود من جميع الوجوه، فقلت لها: هذا أكيد لكن ما رأيك هل تصبر أم سعود ولا تنغص على زوجها؟ قالت: هذه بنتي وأنا أدرى بها يا ولدي المرأة العاقلة إذا وقع الفأس بالرأس صبرت وتحملت ثم تكون العاقبة لها إن شاء الله، وإذا كانت المرأة الثانية بنت ـ أجواد ـ فالأمر يهون وأبو سعود يقولون: إنه خاطب امرأة صالحة وبنت أخيار ولهذا لا يمكن أن تظلمها أم سعود ولا هي تظلم أم سعود.

وفعلاً حدس والدتي في مكانه حيث كانت حياتهما هنيئة كريمة بل أشهد أن أختي كثيراً ما توصي أبناءها بالبر بإخوتهم والعناية بهم، ولقد وقفت على أمور أثلجت صدري قد لا يعرفها أقرب الناس ولكن الطيب من معدنه لا يستغرب.

وهكذا كان هم والدتي أكثر بكثير من هم أختي في مسألة الزواج ولكنها معاناة انتهت إلى خير ولله الحمد.



سابعاً: إصابة أختي أم ناصر بمرض طارئ ومو قف الوالدة من ذلك

أصيبت أختي أم ناصر بمرض مفاجئ لم يلزمها الفراش لكن كان له آثار نفسية حادة عليها فأعلنت والدتي ـ رحمها الله ـ حالة الطوارئ وأخذنا نتردد بأختي على الرياض أنا وأخويّ عبد الرحمٰن وجبر وتحسنت حالتها مع العلاج لكن زادت معاملة والدتي لها وكانت تعاملها معاملة خاصة رحمة بها وعطفاً عليها ـ لاسيما أنها آخر العنقود ـ ودائماً ما يكون الصغير محبوباً لوالديه وصدق من قال: «أحب أولادي إليّ صغيرهم حتى يكبر، وغائبهم حتى يرجع ومريضهم حتى يشفى».

واستمرت والدتي في ملاطفة أختي ومراعاتها ومطالبتنا في ذلك وكان إخوتي ـ رحم الله الميت وحفظ الحي منهم ـ يتنافسون في مراعاة خاطر أختي إكراماً لأمي ـ لاسيما عبد الرحمٰن وجبر ـ حيث كانا رهن إشارة والدتي في هذا الأمر، وقد أوصت بأختي كثيراً ونحمد الله أن زوجها من خيرة الأزواج حيث عوضها عن كثير من الأمور حتى كبر أولادها الذين نؤمل فيهم أشياء كثيرة في بر والديهم وصلة أرحامهم وفقهم الله وسدد خطاهم وأسعدهم في الدنيا والآخرة.



ثامناً: إجراء أخي سعود عملية البواسير وموقف الوالدة من ذلك

أخفى أخي سعود على والدتي أمر عمليته وقال لها: سأسافر للرياض لقضاء بعض الأعمال وكان حريصاً ألا تعلم عنه لئلا ينشغل خاطرها معه، لكن سرعان ما تبين الأمر حيث أجرى عملية جراحية للبواسير في مستشفى قوى الأمن بالرياض وعلمت عنه الوالدة فألحت عليَّ أن تذهب للرياض وحاولت أن أقنعها وطلبت من أخي سعود أن يقنعها بالهاتف ألا تأتي إليه بالرياض لكن دون جدوى، وفعلاً ذهبنا للرياض وأكبت عليه وهي تبكي وكان المنظر يدعو للشفقة والرحمة وينبئ عن عطف الوالدين وحنانهما حتى وإن كان الولد كبيراً.

ولما رجعنا من الرياض قالت: يا ولدي الآن طابت نفسي واطمأنيت ولو لم أره لبقي خاطري مشغولاً ودعت له ولي بالخير والصحة والعافية.



تاسعاً: زواج أبي ناصر زوجة ثانية على أختي أم ناصر وموقف الوالدة من ذلك

أشرت سابقاً أن لأختي أم ناصر منزلة خاصة عند والدتي ولاسيما بعد ظرفها الصحي العارض، وكان من آثار ذلك أن أقدم زوجها فهد بن ناصر الناصر على الزواج من امرأة ثانية لظروف خاصة وحينما علمنا بمقدمات الأمر أصبحنا نمهد للوالدة ونعطيها الخبر على جرعات وأشرنا إلى ظروف زوجها وقلنا: إن ذلك قد يكون من مصلحة أم ناصر حيث تخف حقوق الزوج عليها وتتولى شؤونه امرأة أخرى تتحمل مسؤولية الزوج، وقلنا: إن زوجها رجل عاقل حصيف ولن يضرها أو يؤذيها فهو الذي كانت له مواقف جيدة معها في محنتها السابقة.

وفعلاً ظهر تأثير ذلك على والدتنا وبدأت تنقله لأختنا أم ناصر وتقنعها به حتى تم الزواج ومرت الأمور عادية واجتهد زوجها ألا يشعرها بشيء يضايقها لكن تبقى قناعات النساء وسرعة تقلبهن وتأثر عواطفهن بالمواقف السريعة الطارئة، ومع ذلك كانت الوالدة كثيراً ما تدعو لأبي ناصر وتثني عليه وتذكر له مواقفه الطيبة من بنتها، وكثيراً ما كانت تمنع الأخريات من الكلام في هذا الأمر لأنها تعرف أين تكمن المصلحة، رفع الله درجاتها وبوأها الفردوس الأعلى من الجنة.



عاشراً: إرسال البيض البلدي لأخي وزميلي أبي محمد ـ عبد العزيز المديد ـ وهو في المستشفى من آثار آلام في ظهره

كنت أتحدث مع والدتي عن حالة أخي وصديقي عبد العزيز ابن محمد المديد السويكت وكان منوماً في المستشفى لعارض في ظهره فقالت الوالدة: لعله يستعمل البيض البلدي لأنه ينفع لعلاج الظهر.

ولما جاء من الغد قالت: تبي تروح لرفيقك قلت: نعم فأعطتني كمية من البيض وقالت: قل له هذا من أم سعود وتراها ملزمة عليك إنك تشربه لعل به شفاء، وفعلاً سلمته لأبي محمد واستعمله واستفاد منه وكانت والدتي تدعو له كثيراً وتقول: يا ولدي رفيقك مثلك لعله ما يشوف إلا العافية وهكذا يمتد عطفها وحنانها لأصحابنا وأصدقائنا في أوقات ومناسبات متفاوتة.



أحد عشر: العملية الجراحية لأسنان حسان بن عبد العزيز بعد وفاة والده رَحِمَهُ اللهُ وموقف الوالدة من ذلك

اشتكى حسان بن عبد العزيز آلاماً في أسنانه فأخبرتني الوالدة فذهبت به إلى المستشفى وتحدثت مع الطبيب وحرَّصته وقلت له: هذا عندي أغلى من ولدي وشرحت له ظروفه فوعدني خيراً ثم حدد موعد العملية ودخلت معه ولما خرج اتصلت بالوالدة وأخبرتها فبكت ودعت لي وقالت: من سيجلس عنده؟ قلت لها: أنا ولا أرضى أن يجلس عنده أحد غيري، فقالت: جعلك الله مباركاً ورزقك برَّ أولادك وأنبتهم نباتاً حسناً.

وقد جلست عنده في المستشفى ليلتين ثم خرج معافى ولله الحمد والمنة.



اثنا عشر: العملية الجراحية لإزالة الناسور لابني محمد وأخيه محمد بن عبد العزيز في وقت واحد وموقف الوالدة من ذلك

أجرى ابني وأخوه محمد بن عبد العزيز عمليتي جراحة إزالة ناسور كانا يشكوان منه فشجع بعضهم بعضاً وأزالوه، ولما علمت الوالدة ذهلت وألحت على زيارتهما فحاولت أن تكتفي بالهاتف فلم ترض وكانت شفقتها وخوفها لا تكاد توصف مع أني طمأنتها بأن العملية سهلة وعادية لكنها ـ غفر الله لها ـ كانت تحبهما محبة عظيمة وتشفق عليهما أكثر منا ولم أجلس عندها تلك الفترة إلا وترفع يديها لهما بالدعاء بأن يعجل الله شفاءهما، ولذا يسَّر الله أمرهما وفرَّج عنهما وشفيا ولله الحمد، ولم يكن لذلك آثار عليهما بفضل الله ثم بسبب دعاء الوالدة ـ حرَّمها الله على النار ـ.



ثلاثة عشر: حادثة رمي القطعة الصغيرة (القميزا) من يد ابن أختي أحمد بن عبد العزيز الحمد واستقرارها بحلق أخي عبد الرحمن بمنظر من الوالدة

حدثني أحمد بن عبد العزيز ونحن جلوس أمام الكعبة قال: هل تذكر حينما كنا صغاراً في البيت القديم ـ الذي جوار مسجد أبي بندر ـ حينما كنت أمزح مع خالي عبد الرحمٰن أمام جدتي، فاختلفت معه وكان معنا قطعة صغيرة نلعب بها تسمى (القميزا) فقلت لخالي عبد الرحمٰن: أنا أستطيع أن أدخل هدف في فمك، فقال: أتحداك، فأبعد وفتح فمه فرميت القطعة التي معي ودخلت في فمه واستقرت في حلقه ولم تدخل في جوفه ولم تخرج فأخذ يكح بشدة وجدتي تنظر فأخذت تتكلم عليَّ وتقول: أبعد عني كيف تصنع بخالك كذا، يقول أحمد: وخرجت من عندها وقلبي مع خالي عبد الرحمٰن فلما ذَهَبَتْ إلى الغرفة لتحضر له شيئاً يجعله يعطس لعلها تخرج من حلقه رَجَعْتُ إلى خالي وضربته من ظهره فخرجت القطعة وعادت جدتي وتبسمت ودعت لي وقالت: يا وليدي ما يصلح تمزحون بهذه الطريقة خطر عليكم، الله يصلحكم ويوفقكم ويخليكم لعين ترجيكم.



أربعة عشر: حادثة العقرب التي استقرت على عانة أخي عبد الرحمن فترة من الليل وموقف الوالدة من ذلك

تقول أختي أم سعود استيقظت ذات ليلة وأنا نائمة عند الوالدة وإذا أخي عبد الرحمٰن عليه عقرب كبيرة ولم أكن أعرف أنها عقرب فأيقظت أمي فجاءت وضربتها بيدها فأبعدتها فلما سقطت بعيداً عنا تحركت فصحت: العقرب العقرب، فخافت الوالدة أن تكون لدغت أخي عبد الرحمٰن وهو ما يزال نائماً وقالت لي أمي: نادي أم حمد بن ناصر البدر وكانوا جيراننا لما كنا في بيت (الجوير)، فناديتها وجاءت، وبعد إيقاظ عبد الرحمٰن تبين أنها لم تلدغه، أما العقرب فابتعدت وجلست تحت الجدار وأمي تقول: اللهم صل على محمد، اللهم صل على محمد، اللهم صل على محمد.

وهنا نلمس ما كانت عليه الوالدة من اللجوء إلى الله في تربية صغارها حيث هرعت للصلاة على رسول الله وأخذت تدعو الله أن يكفيها شرها.

ونلمس أيضاً ما كان عليه الجيران من الألفة والمحبة والتقارب وخدمة البعض فحينما خافوا أنها لدغت الطفل الصغير استعانوا بعد الله بخيرة جيرانهم للمساعدة في العلاج وذلك في الليل حيث أيقظوها من النوم وذلك عن طريق ندائها مع الجدار فالناس ينامون في الأحواش ويسمع بعضهم حديث بعض، بل أحياناً يتحدث بعضهم مع بعض وكل في بيته وهذا يشعر بأن الجيران كأنهم أسرة واحدة، وهكذا علمتنا والدتنا خلال مجاورتنا للعديد من الجيران في منازل مختلفة.



خمسة عشر: أمي وحادثة العقرب التي استقرت في ظهرها فترة ثم طلبت من أختي ـ أم سعود ـ أن تنظر ما هي؟

تقول أختي ـ أم سعود ـ حينما كنا في بيت ـ الجوير ـ وكنت وقتها نفساء في إحدى بناتي وكان أخي سعود يدرس في المجمعة ـ في المدرسة الزراعية ـ وكان عنده ضيوف، فذهبت الوالدة لتنظيف المجلس فرقت عليها عقرب كبيرة ولم تشعر بها فلما جاءت عندي في الحوش قالت: يا بنيتي أحس أن في ظهري شيئاً وطلبت مني أن أرفع ثوبها لأرى ما فيه ووضعت الجلال عليها فلما رفعت ثوبها إذا العقرب جاثمة على ظهرها فسقطت فصرخت أنا وأم محمد السعود السليمان الطيار، وكانت عندنا هي وأم علي عبد الرحمٰن الطيار ـ زينب الفالح ـ والوالدة لم تتحرك وهي تتعوذ منها بكلمات الله التامة وتقول: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، فذهبت العقرب ولحقتها زينب الفالح وقتلتها فحمدنا الله وفرحنا وقالت الوالدة: يا بنيتي ما لنا إلا المكتوب والله هو الحافظ سبحانه.



ستة عشر: حادثة الحية التي تحت الزير وموقف الوالدة من ذلك

دخلت البيت في أحد الأيام وأنا صغير وذهبت للزير لأشرب منه ماءً فوجدت حية تحت الزير فناديت الوالدة وقلت لها: هذه حية ـ داب ـ فقالت: يا ولدي سم الله وصل على محمد حتى لا تتحرك من مكانها فكررت الصلاة على رسول الله وهي كذلك فلم تتحرك من مكانها ثم ذهبتُ وأحضرتُ خشبة من الحوش فمنعتني والدتي من قتلها وقالت: تعوذ منها يا ولدي فأخذت تتعوذ منها حتى أخرجتها من البيت فلحقتها وضربتها بالخشبة التي معي حتى قتلتها ودفنتها خارج البيت، وبعد ذلك علمت أن الوالدة تعرف أن حيات البيوت لا تقتل حتى يستعاذ منها.



سبعة عشر: أختي أم سعود والحية
وموقف الوالدة من ذلك

تقول أختي أم سعود: خرجنا ذات مرة للبر في وادي مرخ عند ـ أبو صفا ـ كلنا إخوتي وأولادي وكان ولدي سليمان صغير ـ رضيع ـ تقول: وكانت والدتي بجواري وسمعتُ ـ خرفشة ـ فخفت ونزلت الخرفشة من الخلف من عند الكتف الأيمن من الأمام فلما رأيت الحية خفت خوفاً شديداً، وكانت الوالدة ثابتة فقالت: قولي يا بنتي أعوذ بكلمات الله التامة، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، اللهم صل على محمد، اللهم صل على محمد، فأبعدت الحية ولحقها أخي علي ليقتلها فدخلت في وسط شجرة كبيرة فأخذ يضرب الشجرة بالمسحاة حتى خرجت منها فضربها بالمسحاة حتى قتلها وحمدنا الله على السلامة.



ثمانية عشر: أمي ومحبتها للخير قصة حليب البقر وتوزيعه على الجيران

قلت لأمي ذات مرة: يا والدتي البقرة تعب عليك وتأخذ منك وقتاً كبيراً قالت: يا ولدي أنا ما أصبر بدونها فيها خير كثير، فيها حليب ونعطي منه وهو الذي يدفع عنكم السوء ونسوي منه الغفيص وغيره، يا ولدي هذي من أهل الدار وكانت ـ رحمها الله ـ تعلفهن وتحلبهن وتنظف مكانهن، تقول أختي أم سعود: في بعض الأوقات يصير عندنا خمس بقرات ويصل الحليب إلى الجيران في آخر الشارع وهذا غاية المتعة والرضا عند أمي، فاليوم الذي لا تُظْهر فيه شيئاً من البيت يضيق صدرها مع أن بيتها في هذا الوقت كان من أفقر البيوت وأكثرها حاجة.



تسعة عشر: أمي وحادثة (الجاز)[١]

تقول أختي أم سعود: كان فيه رجل يبيع ـ الجاز ـ على حمار ويمر على البيوت ويعبي ـ الجيك ـ بعشرة ولـم يكن عند أمي إلا جيك واحد وأرادت أخذ زيادة فأحضرت القدور ـ التي تطبخ بها ـ فوضعت الجاز فيها ووضعتها في المطبخ وبعد يومين جاءت لهذه القدور وكانت تطبخ الغداء في يوم الجمعة فنسيت أن فيها الجاز وظنت الذي فيها ماء وصبت منه على الغداء وكان قريب النضج ولكنه تأخر ما نضج وكان الطبخ على الكولة وشمينا ريحة غريبة، فذهبتُ وفتحت غطاء القدر فإذا رائحة الجاز فقلت لأمي: الغداء به جاز فتذكرت أنها أخذت من القدر الذي فيه الجاز فأبعدت القدر وبدأت تعد الغداء من جديد وتستعجل مخافة أن يحضر إخوتي سعود وعلي من الصلاة والغداء لم ينضج، فلما جاءوا أخذنا نتحدث واستغربوا أن الغداء غير جاهز فأخبرتهم بالأمر فضحكوا وتغدينا والوالدة تقول: سبحان الذي لا ينسى ولا ينام.



---

(١) تسميه العامة (القاز).

العشرون: أمي وحادث محمد السعود

كان ابن أخي الشاب محمد بن سعود الطيار يدرس في إحدى القرى الشرقية، وأثناء رجوعه في يوم: ٢٦/ ٧/ ١٤١٣هـ استوقفه في الطريق عامل، فطلب منه أن يوصله إلى البلد، فأحسن إليه وأركبه معه لإيصاله للبلد، وأثناء نزوله من ـ طلعة أم الذر ـ انقلبت به السيارة وارتطمت بعمود مما تسبب في موت العامل الذي ركب معه، وإصابة زميله المدرس بإصابات خفيفة، وإصابة الابن محمد بن سعود بإصابات بالغة، أغمي عليه من أثرها، ونقل لمستشفى الزلفي، ثم جرت المكاتبات للرياض والقصيم لنقله لأحد المستشفيات المتخصصة، وفي نفس الوقت كان عند الأخ عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ مراجعة في المستشفى التخصصي، وأثناء انتظاري لأخذ العلاج اتصلت بالوالدة بعد العصر وإذا خاطرها متكدر جداً، فألححت عليها بالسؤال عن السبب فلم تخبرني، ثم أَخْبَرَتْ إخوتي، وقالت: اعلموا عبد الله، لكن لا يعلم عبد العزيز لئلا يتكدر، فاتصلتُ مرة ثانية وإذا أحد إخوتي عند الهاتف، فقال لي: إن محمد السعود يدرب الطلاب في الصباح وسقط وانكسرت رجله فقلت: هل مات، قال: لا لكنه متعب جداً، ولم يخبرني بالحادث إلا بعد إلحاح شديد، وقال: إنه بالمستشفى وننتظر الموافقة من الرياض أو القصيم لنقله، ثم رجعت أنا وأخي عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الزلفي، وفي الطريق أخبرته بهدوء ومهدت له، وبينت له أن أقدار الله نافذة وقلت له: لعلنا ندركهم قبل ذهابهم، فقال: ـ أنت كلك بركة وسيحقق الله مرادك ـ ووصلنا بعد المغرب، وقد صلينا صلاة الجمع في الطريق، ولما وصلت وسلمت على الوالدة وكان عندها بعض إخوتي، وسلم عليها عبد العزيز قالت: عسى المراجعة ـ طيبة ـ فقلت لها: أبشرك ولله الحمد، مراجعته ممتازة، لكن أين بقية إخواني، فقالت: عند

محمد السعود، فقلت: هل سافروا، قالت: ما أدري جاءت موافقة من القصيم وأظنهم سافروا، فودعتها ولم أجلس، وذهبت إلى المستشفى فوجدت الابن محمد قد حملوه في الإسعاف، وعنده الأخ سعود والأخ مزعل وعبد الرحمٰن وجبر فقلت للطبيب: من يركب في الإسعاف، فقال: أنا وممرضة فقط فقلت: سأركب لأقرأ عليه، فهو بحاجة إلى القراءة، لكنه اعتذر- وأثناء حديثي كان مدير المستشفى يشرف على نقل المريض وهو الأستاذ الشاب ـ محمد بن حمود الشايع ـ وهو موفق ومسدد في عمله فقلت له: سأركب معهم، فقال: اتكل على الله واركب بجوار السائق، ووجودك معه مثل وجود الطبيب ـ فدعوت له وشكرته ـ وركبنا في الإسعاف واتجهنا إلى المستشفى التخصصي، ولحقنا الإخوة بالسيارة حتى وصلنا المستشفى، فاستقبلونا وبدأوا بالكشف والأشعة، وجاء استشاري المخ والأعصاب، وبعد أخذ الإشاعة المقطعية وكانت الساعة في حدود الحادية عشرة، قال لي سراً: لعل الإخوة يخرجون خارج الغرفة، وكان يريد الحديث الخاص معي ـ وهو يعرف أنني في الجامعة ـ فقلت لإخواني: أنتم ما صليتم العشاء وأنا صليتها في الطريق مع أخي عبد العزيز فاذهبوا للصلاة وأنا سأبقى مع الابن محمد، فلما خرجوا بدأ الدكتور يتحدث وكأنه يشير إلى أن الولد في عداد الموتى، ويقول هيء والده وأعمامه، وكنت جالساً على الكرسي، فوقفت وقلت: صدق الله وكذبت، الولد تحت مشيئة الله، لكن ليس هذا أسلوباً مناسباً، فقال لي: أنت دكتور وفاهم، فقلت: مع ذلك ليس هذا مناسباً، ولو قلت: حالته خطرة والأمل ضعيف لكن الأمر بيد الله، لكان هذا أولى، ثم دار بيني وبينه كلام، فقال: أنا أدرى بعملي وستعرف خلال هذه الليلة أو يوم غد، ثم نقلوه إلى غرفة العناية المركزة، وجلس فيها ـ خمسة عشر يوماً ـ والعادة أنه إذا مر على مثل هذه الحالة يوم وليلة زالت مرحلة الخطر الشديد، ثم بقي منوماً وهو في غيبوبة قرابة الشهر، وبعدها بدأ يفتح عينيه، ولم يتكلم إلا بعد شهرين، وبقي في المستشفى قرابة ثلاثة أشهر، لكن لما بدأ يفتح عينيه ذهبت إلى الطبيب وقلت له: ألم أقل لك صدق الله وكذبت، فقال: نحن نتكلم حسب

معلوماتنا، والله جل وعلا لطف بالمريض، وكان والده ـ الأخ سعود ـ ملازماً له في المستشفى، وأجلس أنا مكانه في بعض الأيام من أجل أن يرتاح، أو يذهب لأمر لا بد منه في عمله، وإذا رافقت معه ذهبت في الصباح ساعة أو ساعتين للدوام في الكلية ثم أعود، وكان الإخوة يترددون عليه يومياً مع الأبناء.

والوالدة ـ رحمها الله ـ استقبلت خبره وكأنه صاعقة، ومع الأيام كنا نطمئنها، فلما أخبرناها أنه فتح عينيه بكت فرحاً، وأبكت من حولها، ولما خرج من المستشفى ودخل عليها وهو على العكاز تأثرت كثيراً وتأثر من حولها من الرجال والنساء، وكانت طيلة هذه الأيام تدعو له بالشفاء والعافية، وتلزمنا بالقراءة عليه أنا ووالده، وكان أخي سعود يحمل هم الوالدة أكثر من ولده، وقال لي ذات مرة حينما ألححت عليه أن أرافق مكانه ليرتاح: أنا راحتي أن تريح الوالدة وتطمئنها وتحرص ألا تنزعج وتحاول ألا تأتي لئلا تتعب، وقد اجتهدنا في ملاطفة الوالدة، لكنها تصر كثيراً أن تذهب لزيارته وتجلس عنده الساعة والساعتين وتقرأ عليه وتدعو له.

وهكذا ـ رفع الله قدر والدينا ـ يكون ولد الولد مثله أو أكثر في المحبة والمودة والرعاية والمتابعة، فرحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته.



في أخريات حياتها وما بعدها

(١) مرضها.

(٢) موتها.

(٣) وفي ظهر يوم وفاتها.

(٤) تركة الوالدة.

(٥) رثاؤها.

(٦) رؤى تبشر بالخير.

(٧) لا نامت عين من لا يبر أمه.

(٨) وفقدت كل شيء بفقد أمي.

(٩) هل هناك أحد له أم كأمي.

(١٠) قالوا عن الوالدة.

خواطر حول مرضها ووفاتها
(بداية البداية)

عندما شكت ـ رحمها الله ـ جنبها الأيمن وقالت: يا ولدي ما أدري وش هذا الوجع، فقلت لها ـ وكان ذلك قبل ذهابنا للحج بأربعة أيام ـ وغداً سنأخذ إشاعة على الصدر.

وفعلاً في صباح الثلاثاء ذهبت بها إلى المستشفى في الزلفي وأخذت إشاعة على الصدر وأخذت تخطيطاً للقلب وتبين أن عندها نزلة حادة، وظهرت آثار ذلك في أسفل الرئة من خلال الأشعة، وتبين أن عندها ضعفاً في القلب وهذا معروف لدي منذ سنوات حينما أجريت فحصاً شاملاً عليها عام ١٤١٤هـ واشترطت علي أن آخذ منظار المعدة مثلها وفعلاً أخذت المنظار وتخطيط القلب وتبين أن عندها ضعفاً يظهر أثره في سرعة دقات القلب لاسيما عند المشي اليسير ثم قلت لها: إن الطبيب صرف لك مقويات وبقي على سفرنا للحج ثلاثة أيام وقد ألح عليها بعض إخوتي ألا تحج هذا العام لكن كنت أخالفهم واجتهدت في إقناعها وتحدثت مع من يؤثر عليها أن يرغبوها في الحج وفعلاً قالت لي: أنا عازمة على الحج وما عليّ منهم ـ تعني الذين يقولون لها لا تحجين أنت متعبة ـ وكان ينتابني شعور أن هذه آخر حجة لها قبل ذهابها بل صرحت لبعض إخوتي بذلك.

وبدأت تستعمل العلاج قبل سفرنا بيومين وأخذته يوماً واحداً ثم قالت: ودي يا ولدي ألا أستعمل العلاج حتى أرجع من الحج فذهبت وسألت الطبيب: هل يلزم استخدام العلاج من الآن؟ فقال لي: لا ولكن خذه معك احتياطاً وإن احتاجت له فلتستعمله.

وفعلاً أخذت العلاج وذهبنا للحج ولم تشتك إلا ثاني العيد وقرأت عليها وأعطيتها العلاج وهدأت ولم تحس بشيء حتى عدنا.

وبعد ثلاثة أسابيع بدأت تشكو من جنبها فذهبت بها إلى المستشفى وأجرينا تحاليل وفحوصات فتبين أنها سليمة ما عدا ضعف القلب، ثم تشاورت مع أخي جبر وقررنا الذهاب بها إلى مستشفى الحبيب وأجرينا فحوصات كاملة من جميع النواحي وتبين سلامتها، وأخذنا لها علاجاً للقلب.

ثم في أول شهر صفر شكت جنبها فذهبنا بها إلى الإسعاف وقرروا تنويمها وجلست في المستشفى من مساء السبت إلى ضحى الثلاثاء ثم أخرجتها وأخذت لها العلاج اللازم، ولكن بدأ الألم يتزايد عليها أحياناً ويخف أحياناً أخرى.

وفي آخر شهر صفر لما رأيت أنها أحست بالنشاط قلت لها: سنجمع العائلة، وفعلاً جمعتهم في استراحة الراية يوم الخميس: (٢/٢٩) وكانت مسرورة غاية السرور لاسيما أن الدعوة باسمها لجميع العائلة.

وفي يوم السبت ٣/٢: دخلت المستشفى ومكثت فيه أسبوعين، ثم في يوم السبت ٣/١٦: نقلناها للعناية المركزة بمستشفى الزلفي، وكانت ضحى هذا اليوم تردد ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وأحياناً تقرأ آية الكرسي ثم غاب وعيها قبل ظهر ذلك اليوم، ومكثت فيه إلى ضحى الثلاثاء ثم نقلناها للعسكري تحت ضغط بعض إخوتي وكنت غير راغب في نقلها لأني أدركت وضعها من خلال كلامها ووصاياها الخاصة ومكثت في العسكري من الثلاثاء إلى ظهر الأحد، وفي هذه الأيام حدثت خواطر ومواقف أُجْمِلها فيما يأتي:

يوم الثلاثاء ٣/١٩: بعد وصولنا للمستشفى عن طريق الطوارئ وقد نقلناها في إسعاف مستوصف القمة جلسنا ساعتين ثم تم تهيئة السرير بعد أن خرج المريض الموجود عليه، وأجريت لها الفحوصات اللازمة والتحاليل الشاملة، وقد رافقت عندها تلك الليلة أم أنس الطيار زوجة الابن طارق بن عبد العزيز.

وفي يوم الأربعاء ٣/٢٠: نَقَلْتُ بعض أسرتي واستأجرت شقة أمام بوابة المستشفى لأتمكن من متابعتها باستمرار، وهكذا الحال في أيام الأربعاء والخميس والجمعة وفي يوم السبت قلَّت حركتها واختلفت لهجة الأطباء، ومساء ذلك اليوم قابلني الطبيب وشرح لي وضعها وحالتها الخطرة فقلت له: إن لدي مسلمات لا تقبل النقاش ومنها: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها مهما كانت الرغبات والأسباب المبذولة.

وثانياً: أنا مؤمن بالقضاء والقدر، وأني لن أستطيع رد هذا الأمر عن نفسي فكيف بغيري، وثالثاً: الأسباب المقدور عليها بذلناها والنتائج يتولاها الخالق الرازق المحيي المميت.

وفهمت من تصريحات الطبيب أنها في آخر ساعات عمرها حسب عرفهم الطبي.

وفي هذه الليلة ـ ليلة الأحد: ٢٣ ـ ١٤٢٤/٣/٢٤هـ دارت خواطر واستعرضت أموراً مرت عليّ، وانتابني شعور ممزوج بلحظات الوداع الاضطرارية ولذا جاهدت النوم فلم أستطع إلا آخر الليل، ثم قمت قبل أذان الفجر وتوضأت وصليت في المسجد القريب.

وبعد صلاة الفجر تلفتُّ أبحث عن أخي جبر فلم أجده فدار في خاطري هواجس كثيرة لكني غالبتها بالاتصال على المرافقة ـ وهي المرأة الوفية المخلصة أم محمد السعود الطيار التي رافقت الوالدة في مستشفى الزلفي وفي العسكري، وكانت نعم المرأة في خدمتها للوالدة وحرصها عليها فجزاها الله عني وعن إخوتي خير الجزاء ـ فأفادتني أنها نقلت قبل ساعتين للعناية المركزة في نفس القسم، ثم اتصلت على أخي جبر وأيقظته من النوم وأخبرته أنها نقلت للعناية، وقلت له: سأذهب إليها وأخبرك بالوضع، وفعلاً ذهبت واستأذنت ودخلت عليها في العناية ووجدت نفسها يتردد دون حركة إطلاقاً ورأيت الضغط ينخفض وقرأت في نظرات من حولها من الهيئة الطبية أنها تودع الدنيا، ثم عدت أدراجي واتصلت على أخي فوجدته دخل المستشفى فأعدته إلى السكن وأخبرته بحالتها الصحية وخطورتها، ثم ذهبت وحاولت أن

أستريح دون جدوى لكن غفت عيني فرأيت الناس كأنهم يقدمون لي العزاء ورأيت أشخاصاً أعرفهم ورأيت أخي علياً رَحِمَهُ اللَّهُ معهم فأولتها بأن وفاتها هذا اليوم.

ثم ذهبت مبكراً إلى المستشفى ودخلت عليها ووجدتها على حالتها فجراً لكن الضغط ينخفض ثم سألت جهاز التمريض عن حالتها فقالوا: الطبيب يريد مقابلتك ليشرح لك وضعها، ثم حصل اللقاء بالطبيب والتقيت بخمسة من الأطباء والمساعدين وأخذوا يوضحون حالتها وباختصار يقولون لي: هي في طريقها إلى الوفاة، فقلت: أريد ملازمتها لأني لديَّ يقين أنها لن تتأخر ثانية ولن تتقدم ثانية عن أجلها المحتوم فأعطوني ورقة بالدخول عليها في أي لحظة، ثم قلت للمرافقة: من الأفضل أن تخرجي عندي في السكن مع أولادي فهيأت أغراضها ولكني تأخرت عليها فاتصل بها أخي جبر وجاء وأخرجها من المستشفى وذهب بها إلى البيت ولم يدخل على الوالدة حيث لم يؤذن له علماً أنني داخل العناية قد أغلقت الجوال.

ثم ذهبت إلى السكن وأنا أعلم أن الوالدة تودع الدنيا واتصلت بأخي سعود وهيأته للموقف ومن اتصل بي من إخوتي وأولادنا أخبرته بأنها في اللحظات الأخيرة ليتهيؤوا للموقف.

وعند الساعة العاشرة والنصف اتصل بي أخي سعود وقال: سأحضر للمستشفى وفعلاً جاء فأدخلته على الوالدة وقرأ عليها وودعها وجلسنا حولها حتى أذان الظهر وذهبنا للصلاة وبعدها للسكن ننتظر اتصال الممرض، وفعلاً عند الساعة الواحدة والنصف اتصل بي وكان أخويّ سعود وجبر معي فأخبرتهم وسبقتهم إلى المستشفى ودخلت عليها وقد توفيت، فقابلت سعود قبل دخوله وأخبرته بوفاتها، ثم قابلت جبر قبل دخوله وأخبرته بوفاتها، فدخلا وودعاها ثم بدأت بإنهاء الأوراق الرسمية لنقلها إلى الزلفي، وكان أخي مزعل وعبد الرحمٰن وابني محمد وأحمد بن سعود ومحمد ابن عبد العزيز في الطريق إلى الرياض، وبعد صلاة العصر استطعت إنهاء الأوراق واستلمنا جثمانها الساعة الرابعة والنصف واتجهنا إلى الزلفي.

وقد اتصلت بأم عبد الله بن راشد الرومي، وأم أحمد المنيع وطلبت منهما تغسيلها لما أعرفه من حب الوالدة لهما، واتصلت بأخي عبد الله السلمان وطلبت منه تهيئة الثلاجة لتكون الإجراءات أيسر ووضعناها فيها بعد صلاة المغرب مباشرة.

وفي الساعة العاشرة صباحاً نقلناها إلى المغسلة وحضرت مجموعة من النساء من أسرتنا وبعض المحبات لها وتركناها في المغسلة ودخلت عليها النساء ثم اتصلت إحداهن تشكو من كثرة الحاضرات اللواتي يرغبن في المشاركة، فقلت لها: نختار خمساً فقط وحددتهن لها وقمن بتغسيلها وطلبت منهن وغيرهن ممن حضرن توديعها ثم خرجن وأدخلت إخواني وكل أقاربنا من محارمها وودعوها ثم نقلناها إلى المسجد.

وصليتُ بالناس صلاة الظهر ثم صليت عليها والمسجد بساحته قد امتلأ وصلى عليها جمع غفير في المقبرة قل نظيره فيما أعلم، ثم صلى على قبرها عدد كبير أيضاً وجلسنا في المقبرة حتى خرج الناس كلهم ولم نستقبل العزاء في البيت إطلاقاً، وأظهرت تجلدي أمام الناس وتحملت والله أعلم ما بداخلي.

صبرت لأن الصبر خير مغبة ... ولا جزع يجدي عليّ فأجزع
صبرت على ما لو تحمَّل بعضه ... جبال شروري أصبحت تتصدع
ملكت دموع العين ثم رددتها ... إلى ناظري فالعين في القلب تدمع



تركة والدتي

كم كانت والدتي تعتب عليَّ وعلى إخوتي وأخواتي وأولادنا إذا أحضرنا لها بعض الثياب قائلة: أنا لا أدري مقامي في هذه الدنيا وأخاف أموت وعندي هذه الثياب، ولذا في كل صيف تجمع ما عندها وتتصدق به على صويحباتها في مكة.

ولذا لما تغدينا ظهر الاثنين الذي دفناها فيه أي: بعد ساعتين من دفنها ـ تماماً ـ جمعت إخوتي ومعنا أختي أم سعود وقلت لهم: هذا ما خلفته والدتي وكانت التركة بعض الثياب والدهونات وسجاجيد وأشياء يسيرة جداً فقومناه وتصدقنا به عليها، وقلت لأختي أم سعود: تصرفي فيه كما ترين فهو صدقة عليها فمن رغب من النساء شيئاً فليأخذه.

وهكذا ينبغي أن يحرص الحي على قسمة ما يخلفه الميت وألا يترك مدة بحيث لا يستفيد منه الحي ولا الميت.

لقد كانت والدتي غنية النفس وإن كانت قليلة ذات اليد وصدق القائل:

يعز غنيُّ النفس إن قل ماله ... ويغنى غنيُّ المال وهو ذليل

وكما قيل:

إن الغني هو الغني بنفسه ... ولو أنه عار المناكب حاف

ما كل ما فوق البسيطة كافياً ... وإذا قنعت فبعضُ شيءٍ كاف



رثاؤها

وقد رثيتها بهذه القصيدة التي كانت بعد وفاتها بعشرين يوماً في يوم السبت: ١٤/ ٤/ ١٤٢٤هـ:

سكتت ودمعي سال من أجفاني ... ومضت وقلبي فارغ ويعاني
أمَّاه ماذا قد أقول ومهجتي ... في معمل التفكير دون توان
أمَّاه قلبي طار من رجفانه ... والهم أثقلني وهدَّ كياني
أنت الأمان إذا يخاف مروَّع ... سعدوا لديك بِعِشْرَة وحنان
أنت الكريمة يا سليلة عنصر ... من فارس أمضى من الشجعان
أنت الوفية يا كريمة معشر ... منك اليدان تمد للخلان
يا برَّة بقريبة وغريبة ... يا نعمة كانت من الرحمٰن
أمَّاه قد هيلت لفقدك أمةٌ ... الأبعدون وقبلهم جيراني
أمَّاه إني قد وردت مناهلاً ... والمرء مثل الوارد الظمآن
يا ليتني منها رويت بمنهل ... فلي الهناء بكأسها الملآن
أمَّاه قد جفت بفقدك أنهر ... تروي ذوي الحاجات كل زمان
زفرات قلبي يا بنيَّ تكاثرت ... فتبادرت عيناي بالهملان
أبنيَّ إني قد فقدت دعاءها ... فاهنأ ببرٍّ قبل فقد الثاني
ها قد وقفت حيالها ممدودة ... فوق السرير سريعة الخفقان
أنحو عليها بالنداء ولم تجب ... ها قد وقفت كوقفة الحيران
أرنو بطرف العين نحو سريرها ... والنفس في وجل من الهجران
هذي الحنون فأين كل أساتها ... والأهلِ والإخوان والجيران
عجز الجميع أمام أمرٍ محكم ... قد خطه الرحمٰن في الأكوان
كُتب الفناء على الخلائق كلها ... ويدوم وجه الله ذي الإحسان

يا ليت شعري هل نقوم بحقها ... يوم انطوت في عزة وتفاني
ترعى اليتامى بعد فقد أبيهم ... وتجود بالمعدوم دون تواني
كنَّا صغاراً يوم مات حبيبها ... فروت سنين العمر بالتحنان
ترضى القليل وتعطه لصغارها ... وتبيت طول الليل وهي تعاني
وتبث فينا كل فعلٍ فاضل ... وتميت فينا كل عيب واني
وتردنا ردًّا جميلاً للعلى ... والعلمِ والأخلاق والإيمان
كبُر الصغار على مناهلها التي ... فاضت فعِمَّت كل صاحب شان
يا لهف نفسي هل يموت جميلها ... بنفوسنا أو هل تموت معاني
لا والذي برأ الحنون وخصّها ... بالحب والإيثار والإحسان
لا ننثني عن حبها وحنانها ... نحيي مآثرها بكل لسان
يا رب واجمعنا بها في صحبة ... طه الحبيبُ إمامُهم بجنان



رؤى تبشر بالخير

الأولى: رأيت صبيحة الأحد: ٢٤/ ٣/ ١٤٢٤هـ كأنها توفيت وجاء المعزون وعرفت أشخاصاً منهم، ورأيت أخي علياً رحمه الله وكأنه حريص ويتحرك وقد أهمه الأمر ولما قمت من النوم توقعت وفاتها في ذلك اليوم، وقد كان حيث خرجت روحها الساعة الواحدة والنصف ظهراً ـ رحمها الله ـ.

الثانية: ورآها أحد المشايخ من أحبابنا وأمه من خواص الوالدة الغاليات عندها وعندنا ـ متعها الله بالصحة والعافية ـ وهو: ع. ع. ب أبو عبد الله رآها كأنها ممدة في مكان التغسيل وابنها عبد الله ـ يقصدني ـ عند رجليها وسمع ـ الرائي ـ هاتفاً يقول: غسلوها واتركوها نرفعها وقد شاركت والدة هذا الرائي في تغسيلها.

الثالثة: ورآها أحد المشايخ ـ أبو خالد ـ ج. ع. ج ـ قال لي: رأيتها وكأن على المغسل فراشاً والنعش محمول ويقول الناس: هذه أم الطيار، يقول: وكأني سمعت أنها رفعت لأني لا أرى إلا الفراش على النعش.

الرابعة: ورآها أبو عبد الله ـ س. ج. ج ـ قبل وفاتها بأيام وكأنها مريضة والناس متهيئون للحج وكأنها لن تحج يقول: فقلت في نفسي: هي حجت كثيراً يقول: وأنت ـ يقصدني ـ مرافق معها، يقول الرائي: فوقع في نفسي أنها ستموت قريباً.

الخامسة: ورآها الشاب ـ م. ر. ج ـ قبل وفاتها بأيام وكأنها قبرت وقبرها يتسع لأربعة أشخاص.

السادسة: ورأتها امرأة صالحة ـ نقلاً عن أختي أم سعود ـ متعها الله بالصحة، تقول الرائية: رأيت نساء على بساط أخضر معهن ـ فاطمة الدخيل ـ

وهي من خواص صويحبات الوالدة ـ رحمهما الله تعالى ـ وفاطمة تقول: ننتظر أم سعود ستأتينا.

السابعة: ورأيتها صبيحة الجمعة: ٦/ ٤/ ١٤٢٤هـ وهي مضطجعة على جنبها الأيمن وعليها ثوب أحمر كانت تلبسه في آخر حياتها وأنا عندها وعن يميني ابني محمد ومعنا مجموعة وكأنها طلبت ثلاث حاجات، فقلت: سأحضرها لكن لمست منها أنها لا تريد أن تكلفني فقلت: هذا محمد سيحضرها، فطابت نفسها بذلك.

الثامنة: ورأتها بنت أخي ـ ن.ع.ط ـ يوم الأربعاء: ٤/ ٤/ ١٤٢٤هـ وكنت في مكة، تقول: رأيتها مضطجعة وأنت يا عمي ـ تقصدني ـ تدهن رأسها بطيب دهن العود فأولتها أن ذلك دعائي لها في العمرة وفي الطواف خاصة وفي سفرتي تلك عامة.

التاسعة: ورأتها ـ م. ن. ن ـ تقول: كأن جدتك حصة ـ أم الوالدة ـ تقول: سآخذ منيرة بنتي معي، تقول الرائية: ورأيت ابنيها علياً وعبد العزيز حول الجامع الجنوبي يقولون: ستأتينا الوالدة.

العاشرة: ورأيتها ـ أنا ـ بعد مدة من وفاتها، وقد رأيت نخلاً عليه حمل عجيب متراص وبعضه مربع وحمله كبير جداً، وكأننا نخرف منه بلحاً وكأنه لها وكأني أنظر إليه الآن يتدلى حمله أصفر وأحمر وهو بالمترين والثلاثة متشابك.

الحادية عشرة: ورآها أبو عبد الحكيم ـ س. ع. ج ـ قبل وفاتها بثلاثة أيام يقول: رأيت ـ شرق جامع الغنام ـ شكلاً كأنه طائرة ورأسه رأس حصان وأرجله أرجل حصان ومؤخرته مؤخرة حصان، لكن الشكل كأنه طائرة، ورأيت عنده رجلاً لباسه أبيض ووجهه يشع نوراً، فقلت له: ما هذا؟ قال: هذا براق، قلت: ولماذا؟ قال: ستركب عليه منيرة السابح، يقول أبو عبد الحكيم: ولم أعرف أن اسمها منيرة إلا منه فنحن نعرفها بأم سعود، يقول: وكنت أتحين الفرص لسؤالك عن هذا، فلما دفنا الوالدة يوم الاثنين

سألت زوجتي ما اسم أم سعود الطيار؟ قالت: منيرة السابح فأدركت تعبير الرؤيا.

وأخيراً أقول: إن هذه نماذج من المرائي وقد بلغني عنها عشرات المرائي مما سجلته وما لم أسجله، واكتفيت بما أوردته نموذجاً للرؤيا المبشرة ومعلوم أن الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره ويستبشر بها خيراً.



لا نامت عين من لا يبر بوالديه

أليسا يجوعان ليشبع الولد، ويعطشان ليروى.

أليسا يسهران لينام ويتعبان ليرتاح.

إنهما الوالدان ترتبط سعادتهما وفرحهما بسعادة الأولاد وفرحهم.

أرأيت أباً وأماً حين يقدم ولده المسافر.

أرأيتهما حين يحضر الولد أو البنت الشهادة ناجحاً ومتفوقاً.

أرأيتهما حين يسمعان الثناء على الولد أو البنت.

إنهما يفرحان فرحاً شديداً أكثر من فرح الولد والبنت؛ فلا نامت عين من لا يبر والديه.

لقد عشت ـ قصة ـ تعتبر مأساة؛ فأين وقعت ومن هم أبطالها؟ فانتبه لها ـ رعاك الله ـ وجنَّبك العقوق:

في حرم الله الآمن وفي مغرب ليلة سبع وعشرين من رمضان من عام ١٤٢١هـ، وكانت والدتي ـ رحمها الله ـ معي في الحرم، خرجت لأتوضأ فمررت من طريق باب الملك فهد بالحرم، وفجأة رأيت شاباً جلداً (من جنسية عربية غير سعودية) يدفع امرأة ثبطة ـ غليظة ـ في ذلك اليوم الفاضل، في الشهر المبارك، في البلد الحرام، وفي المسجد الحرام أمام الكعبة المشرفة ـ كلما سقطت المرأة أقامها، ثم أخذ يدفعها، فجئت إليه وقلت له: اتق الله، لا تؤذي هذه المرأة، اتركها تمشي على مهلها، فقال لي: ـ لا دخل لك في شؤوني ـ فقلت: لا نسمح لك بهذا الفعل والمرأة تمطره بوابل من الدعاء عليه أن يدخله الله النار، وأن لا يسامحه، وأن يبتليه..، وهو يمطرها بالشتائم والكلام البذيء، وخلال حديثنا معه اجتمع حوله عدد كبير من جنسيته

وغيرها، وعرفنا من خلال حديثهم أنها أمه ـ عياذاً بالله ـ فأخذوا المرأة منه وأدخلوها مع النساء، وأخذوه خارج الحرم، وهنا كاد أن يغمى عليَّ، وبعد أن هدأتُ سألتُ من حضر، ما خبر هذا الرجل؟ قالوا هو مهندس أحضر أمه للعمرة، ولكن اختلف معها داخل الحرم، هو يريدها تخرج معه للسكن، وهي تريد البقاء فيه، وقد أصر على رأيه مدعياً الخوف عليها أن تضيع.

فقلت سبحان الله! كم من مريد للخير وحريص عليه لا يوفق له، وسألت الله أن يحفظ والدتي، وأن يرزقني برّها على الوجه الذي يرضيه عني.

ولما خرجنا من الحرم وجلسنا ـ نتعشَّى أخبرتها بأمر ذلك الرجل، فقالت على الفور ـ لعله مجنون ـ فقلت لها: ليس بمجنون، لكنه لم يوفق للبر، وقلت لها: ادعي له بالهداية والتوفيق؛ فبدأت بالدعاء لي ولإخوتي وأخواتي، ثم ثنت بالدعاء له.



وفقدت كل شيء بفقد أمي

كل شيء كنت أتمناه يتحقق عند والدتي فأولادها وأحفادها يجتمعون مغرب كل يوم ويحلو الحديث، وتعذب السواليف وهي بينهم، كل حريص على كسب رضاها، الكبير قبل الصغير، قمة سعادتها وأنسها في لم شمل أسرتها، كم كانت تلبي طلبات الصغار والصغيرات برحلة أو نزهة أو جلسة في استراحة عن طريق أمر الكبار، وهنا تواصل الاتصال على كل واحدة من البنات وبناتهن، والزوجات، وتشعرهم جميعاً أن الدعوة منها، وهنا يتنافس الجميع في تحقيق مطلوبها، ولذا يندر أن يعتذر أحد منهم.

لقد فقدت بفقدها طعم الجلسات، ولذة الحديث، ومتعة الاجتماع.

كم كانت طلعتها بهية، وكم كانت جلستها هنيَّة، وكم كانت مسامرتها رضية.

رحمك الله ـ يا أم سعود ـ فقد كنت ملء العين والبصر، وكنت صاحبة القلب الكبير، كما أنت صاحبة البيت الكبير الذي يتسع للجميع.

لقد عبَّرت أختي ـ أم سعود ـ عن فقدها والدتي تعبيراً صادقاً حينما رثتها بأبيات عامية[1] لكنها معبرة أتم تعبير عما فقدته بفقد أمها.

كل شيء في هذه الدنيا يعوض، أما فقد أحد الوالدين فلا يعوض.

لقد فقدت حنانها، وضمها لي ولا سيما عند القدوم من السفر، وذلك ينسينا هموم الدنيا ومتاعبها.

ولذا أقول ـ وهذا أمر مجرب ـ على كل شاب أو شابة يصيبه هم أو

---

(١) من هذه الأبيات التي سيأتي ذكرها:

يا سعود وين الوادلة وين يا سعود ... يا حجرة أمي وش بلا النور طافي

غم، أو تحدث له مصيبة أو محنة في هذه الدنيا ـ وهذا كثير ـ عليه أن يبسط الأمر لأمه، ويسعد بلقائها، ولثم جبينها، واستمطار دعائها، فالفرج عند الله قريب؛ فحنان الأم وعطفها لا يدانيه عطف أو حنان.

فإن الحنان الحق في الأم وحدها ... وغير حنان الأم ضرب من الوهم
هي الأم سرٌّ لست تعرف كنهه ... وإن خلتها في صورة الدم واللحم

ولعل من أثمن ما فقدت بفقدها تلك الدعوات لي ولإخوتي صباح مساء.

ولذا قلت في رثائها مخاطباً ولدي:

بنيَّ إني قد فقدت دعاءها ... فاهنأ ببرٍّ قبل فقد الثاني

وصدق القائل:

لا تقولوا بكيت أقسى بكاء ... فبكاء المحب رمز الوفاء
كيف لا يذرف الدموع محب ... ذاق مرّ الفراق بعد اللقاء
هي أمي في فقدها فقد عمر ... وحياة من الرضا والصفاء
هي كنز للدعاء يا لهف نفسي ... وأساها لفقد كنز الدعاء
صرت كالطفل حين فارقت أمي ... تائهاً مثل ريشة في الفضاء



من له أم كأمي؟!

* الأم عظيمة في نفسها، صابرة على محنتها، قائمة بما أنيط بها.
* أرق الناس قلباً على أولادها، وأكثرهم حنواً عليهم.
* لكن أمي ليست كالأمهات، وقديماً قيل: ـ كل فتاة بأبيها معجبة وكل يغني على ليلاه ـ.
* أمي نادرة الوجود، عجيبة في حياتها، وإني معها كقول القائل:

أثني عليك بما استطعت وربما ... يعيي البليغ جلالة الممدوح

* أمي امرأة صاحبة هِمَّة عَلِيَّة، وقلب قطَّعه الأسى والحسرات، لكن زَيَنَهُ الصبر، وجَمَّله الرضا، وثبَّته التعلق بالله؛ فلا تراها إلا حامدة شاكرة، مصلية صائمة، داعية واعظة.
* مجلسها يعمر بالخير، ولا مكان فيه لأصحاب الغيبة والنميمة، حتى إنها إذا جاءت بعض النساء وتحدثت بما لا ترغبه أمي رفعت صوت المذياع على إذاعة القرآن، أو رفعت صوت التسجيل إلى حد التشويش على المتحدث أو المتحدثة لتقطع الحديث وتصرفه إلى الخير.
* أمي صاحبة رأي نادر ولاسيما في حل مشكلات النساء، ولذا أحياناً تسألني عن أمر فأقول لها: وأنت ماذا ترين، فتذكر العلاج الدقيق، وكم تولت بعض المشكلات دون أن يعلم عنها بعض الأطراف، وحسمتها في مهدها.
* أمي صاحبة صدر واسع يتسع لكثير من الخلاف والخصام، ولذا اليوم الذي لا يكون عندها أطفال ترتفع أصواتهم لا ترتاح على عكس كثير من النساء اللواتي يطردن الأطفال ولا يرضين بعبث الأطفال ولعبهم، ولذا كثيراً ما كانت تقول: «عسى عدو عينك بيت ما فيه أطفال».

وكانت تقول إذا دعوت على أحد فقل: «عساها تفر بوجهك الطيور في بيتك» يعني أنه لا يولد له.

هذه هي أمي

فيا لائمي دعني أغالي بها فأنا الذي أعرف قدرها ومكانتها.

قلت ذات يوم لسماحة الشيخ الوالد صالح اللحيدان ـ في مكانه في الحرم ـ: معي أعظم امرأة تطأ على الأرض الآن.

فقال: قل أعظم امرأة عندي ولا تلام في ذلك.

وكان ـ حفظه الله ـ يسألني عنها ويقول: إذا جئت لمكة فالأمر في الذهاب والبقاء لها، وليس لك.

فأقول: نعم، صدقت يا شيخ، فيقول: لعلها تلزم عليك وتجلس إلى الجمعة القادمة.

وكثيراً ما يحدث ذلك فأعود إليه في الجمعة التي بعدها، فيقول: عيت عليك الوالدة، هذا خير عظيم لك ولها.

هذه هي أمي مربية ومعلمة وصاحبة عقل راشد ورأي سديد وتقدير للعواقب، تحب القريب، وتكرم الجار، وتصل الرحم، وتواصل العبادة، ضربت المثل بالصبر والتحمل كلما ضاقت عليها الأمور عظم لجوؤها إلى الله، فيفرج كربها ويزيل همها، فرحمها الله رحمة واسعة وأسكنها الفردوس الأعلى من الجنة.



قالوا عن الوالدة

خلال العقود الأربعة التي عشتها في كنف والدتي تعلم وتوجه وتربي وتحنو، هي الأم والأب والأخ والمعلم، كنت أسمع عنها الشيء الكثير من رجال ونساء في ثنائهم عليها وذكر شيء من فضائلها ومحامدها، ولم أقيد ذلك في وقته، ولكن منذ عام ١٤٠١هـ حينما عينت عميداً لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية في الأحساء وابتعدت سكناً عن والدتي لكنها في سويداء قلبي، بدأت أقيد بعض الخواطر وما أسمعه عنها أسجله في أوراق لأقرأه عليها لكنها في بعض الأحيان ترفض ذلك.



قالت عنها أختي أم سعود

* رثتها أختي أم سعود وهي أكبر أولادها سناً وأكثر النساء علاقة بوالدتي وأعرف النساء بأسرارها، وإذا رغبنا في أمر تقنع به الوالدة طلبنا من أختي أم سعود أن تتولى هذا الأمر وبطريقتها الخاصة تقنع الوالدة بما نريد، وقد عبرت عما في داخلها بهذه الأبيات ـ العامية ـ ونظراً لأنها من أختي فقد وضعتها في هذا الكتاب إكراماً لأختي ـ متعها الله بالصحة والعافية ـ:

يا سعود وين الوالدة وين يا سعود يا حجرة أمي وش بلا النور طافي
أمي سراج البيت والنور يا سعود الله يكرمها بحسن الضيافي
غاب القمر يا سعود مع طلعة النور من عقبها والجو ما هوب صافي

وقالت:

يوم الأحد جاني خبر قرة العين قالوا لي أمك بالعناية مسجاة
يا الله ياللي تفرج الهم والضيق يا كاشف عن عبدك أيوب بلواه
مالي جدى غير البكا والتناهيت وأبكي على اللي تذرف الخير يمناه
الوالدة يا سعود ما نيب ناسيه والله لو طال الدهر ما أتناساه
يا الله عساها بجنان عليات وبجنة الفردوس والخلد مثواه
وصلاة ربي عد رمل الطعاميس على نبي كمل الحق وأرساه



وقال عنها ابنها البارّ سعود السليمان الطيار وكانت والدتي تعده من أبنائها

* «خالتي أم سعود السابح الطيار ـ رحمها الله ـ هي أغلى خالة لي في الوجود، إذْ كان يوجد لي أكثر من خالة وهي بحق والدة وليست خالة، فأنا أعتبرها عوضي عن أمي في هذه الحياة، كان لي معها بعض المواقف ـ رحمها الله ـ وشهادتي فيها مجروحة لكن الحق يقال فهي أمي بعد أمي، وكانت تقول عني: هو وليدي لكن ما رضع ديدي، على كل حال كانت امرأة صالحة واصلة محبة في الله لا رياء عندها ولا سمعة وحبها لي ولأختي أم أحمد محبة إلهية بلا شك، عشت معها في صباي جل وقتي حيث لا يوجد من أقضى معه وقتي اليومي لعدم وجود أم لي في البيت، فوجدت فيها ضالتي وعشت مع أولادها سعود وعلي رحمه الله وعبد العزيز رحمه الله وعبد الله رعاه الله، لكن زمالتي كانت مع الأخ سعود زمالة دراسية في الابتدائية من عام ١٣٧١هـ وحتى عام ١٣٧٩هـ وكنت أقضي جل وقتي عندها ومع أولادها وكانت امرأة مكافحة تسعى لكسب قوتها وأولادها بجهدها البدني طيلة يومها متحملة حرارة الشمس صيفاً وزمهرير البرد شتاء ـ رحمها الله رحمة واسعة ـ وإليك هذا الشاهد على سبيل المثال:

أ ـ كان بي دمل في الرسغ ومنتفخ جداً ومشوه ليدي اليمنى، وكنت متأذي من ألمه، ولكن لا أرغب في أن يلمسه أحد، فقالت لي في يوم من الأيام: إن هذا الخراج سيتعبك لكن أتركني أفضخه؛ فاستجبت لها وأخذت إبرة ووخزت رأسه وكان بارزاً، فضرب القيح في وجهها ولم تتأفف أو تتضجر ـ رحمها الله ـ فمسحته في يدها اليسرى ومسكتني في اليمنى، وأخذت تعصر القيح حتى أخرجت جذور الدمل كما تسميها (المواتة) ولا أنسى ذلك الموقف

لها ـ عليها رحمة الله ـ فأي امرأة تعمل ذلك وتصبر على ما وصل لها من الأذى بدون تأفف أواشمئزاز ـ عليها رحمة الله ـ؟.

ب ـ كانت زوجة لعبد الله الناصر الجبر ـ رحمهم الله جميعاً ـ وكان مقيماً في الرياض معظم وقته، وأرسل لها ذات مرة في عام ١٣٧٩ مع ابنه بندر رحمه الله الذي كانت له سيارة ـ يؤجرها للمسافرين من وإلى الرياض ـ وقد أرسل معه والده خيشة بطاطس لها رائحة منتنة لزوجته أم سعود وأولادها وأولاده، فلما رأتها قالت: شل معي يا وليدي نضعها في كومة السماد الذي في زاوية من البيت، فلما كبتها على السماد تقبلت القبلة وقالت: الله يعظم أجره وش نبي في هذا المروح يرسله لنا، فما غضبت ولا سخطت عليه ولا سبته.

إن هذا الموقف يراودني ويدور في خلدي كلما مر بي موقف بين زوجة وزوجها، أو سمعت تسخطاً أو تذمراً من أحد على أحد فأقول: أين أنت من أم سعود ـ رحمها الله ـ؟ فهي بحق لا تعتبر من نساء هذا الزمان بل تعتبر من نساء السلف الصالح ـ عليها رحمة الله ـ وبارك في ذريتها وأصلح عقبهم، وباختصار هي امرأة مربية، عفيفة اللسان، كريمة الخصال، سليمة الجنان، صوامة قوامة، إنسانية بمعنى الكلمة.



وقال عنها الأخ جبر ـ أبو ياسر ـ حفظه الله وأصلح نيته وذريته

* قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٥].

كل مصائب البشر تهون عند مصيبتين ألا وهما مصيبة الدين، ومصيبة فقدان أحد الوالدين وخاصة الأم التي فضلها الإسلام على سائر الناس.

لقد كنت ألازم والدتي في مرضها وعند دخولها المستشفى، وفي قسم النساء انقطع الاتصال بها إلا عن طريق أوقات الزيارة والهاتف المستمر معها ومع من يرافقها.

وفي ليلة الأحد الموافق: ٢٤/ ٣/ ١٤٢٤هـ كنت أنتظر زيارة المساء على أحر من الجمر، وكنت أول الداخلين للمستشفى، وعند دخولي على والدتي كعادتي ـ رحمها الله ـ وجدت عندها مجموعة من الأطباء، وكان واحد منهم الطبيب المشرف على علاجها وهو استشاري الأمراض الباطنية.

وعند دخولي للغرفة طلب مني الحديث فأمسكت بيده وخرجت خارج الغرفة، وبدأ يخبرني عن حالة والدتي وكأنه في حديثه يريد أن يصل إلى صعوبة وخطورة الموقف لصحة والدتي، وأنهم بذلوا جهداً في محاولة العلاج، فشكرت للطبيب مشاعره وقلت له: نحن علمنا ديننا أن الإنسان له أجل محتوم وأنه سوف يستكمل رزقه وأجله، وما أنتم إلا سبب أمرنا الإسلام باتخاذه ونقدر جهودكم وجهد العاملين معكم في هذا المستشفى، وكل من

وقف معنا في هذا الموقف العصيب، أسأل الله ألا يريهم مكروهاً وأن يجزيهم عنا خير الجزاء.

استأذنت من الطبيب ولازمت والدتي حتى نهاية الزيارة وقبلتها قبل الخروج منها ودعوت لها بأن يجعل ما يصيبها تكفيراً لذنوبها.

ذهبت إلى غرفتي المستأجرة جوار المستشفى، والتي استأجرتها حتى أكون قريباً منها، في هذه الليلة أردت أن أنام ولم أستطع فجسدي في الغرفة فقط والباقي جوار والدتي ـ رحمها الله ـ وفي هذه الليلة ذهب خاطري يقلب أحداث السنين السابقة والتي تتجاوز الثلاثين عاماً، والمواقف مع هذا الجبل الصامد والدتي ـ رحمها الله ـ.

وفي هذه الليلة تذكرت عندما كنت مرافقاً لها في المستشفى العسكري بالرياض عند استئصال المرارة مع أخي الدكتور عبد الله الذي رفض أن يفارقها، حيث باحت لنا بكل معاناتها بعد وفاة والد إخواني لأمي رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة وبعد زواجها من والدي رَحِمَهُ اللهُ وبعد وفاته وما عانت من الفقر والحاجة والعمل الشاق في حياتها لتأمين لقمة العيش لأولادها، وأنها مرَّ عليها اليوم واليومان والثلاثة لا تجد ما تطعم به أولادها.

وفي هذه الليلة تذكرت وقفتها معنا في حياتنا، خاصة في مراحل الدراسة حيث تذهب إلى زوجات وأمهات المعلمين وتوصيهم بالحرص على تعليمنا وتربيتنا، فكانت ـ رحمها الله ـ أماً وأباً وأخاً وصديقاً، علمتنا الأدب وربتنا عليه وعلى حب الخير وحب الناس والتسامح وعمل المعروف وبذل المال في وجوه الخير والدعاء للناس.

وفي هذه الليلة تذكرت مواقفها في استقبال وفاة إخوتي ـ رحمهم الله رحمة واسعة ـ أخي عبد العزيز وأخي على، فكانت كالجبل استندت على حمد الله والثناء عليه واستقبال المصاب بالحمد والاسترجاع، وكانت تردد إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه الليلة تذكرت عندما بدأت تشعر بالمرض في بداية ذي الحجة من هذا العام وقد عزمت على الحج لهذا العام، وطلبتُ منها عدم الذهاب

هذه السنة نظراً لما تعانيه من آلام ولكنها رفضت ـ وقد ألح عليها الأخ عبد الله بأن تذهب معه وولده محمد للحج. ـ وقالت: «لقد دعتني الحجة هذه السنة فلا تحرموني من طلب الطاعة».

وفي هذه الليلة تذكرت عند ملازمتي لها في مرضها وهي في المنزل وفي إحدى الليالي قد كنت بجانبها وهي لا تعلم بوجودي وقامت تشكو بعض الآلام فقمت لتألمها فقلت لها: ما بك يا أمي، ما يؤلمك؟ فقالت: أحس بآلام شديدة في جنبي الأيمن فأعطيتها بعض المسكنات وطلبت منها النوم، وطلبت مني أن أذهب لأنام عند أولادي، وأنها لا تسمح ببقائي عندها وترك أولادي، فقلت لها: سوف أذهب إن شاء الله، وتظاهرت بالذهاب، وبعد نومها عدت ولازمتها دون علمها وقد استأذنت زوجتي ـ حفظها الله ـ بالسماح لي بالبقاء مع والدتي هذه الأيام.

وفي هذه الليلة وعند الساعة الثالثة ليلاً سمعت صوتاً مزعجاً واستيقظت من نومي وإذا هي ـ رحمها الله ـ تخاطب ساعة التوقيت التي توقظها لقيام الليل وتقول: صوتها منخفض ولا أسمعها وقمت وقلت: ما بك يا أمي؟ فقالت: من الصبح وهي ترن الساعة ولم أستيقظ للصلاة، وهي لم تنم إلا بعد الثانية عشرة ليلاً من شدة آلامها، فقلت لها: يا أمي الساعة الآن الثالثة ومعك وقت للصلاة، ذهبت وتوضأت وجلست تصلي، وذهبت لأكمل نومي فقلت: عجباً أنا الصحيح أنام وهذه المسنة المريضة غضبت لأنها تأخرت نصف ساعة عن عادة قيامها، عجباً أهذا بشر أم جبل؟!.

وفي هذه الليلة تذكرت عندما كانت ترقد في مستشفى الزلفي وفي إحدى أوقات الزيارة كنت مع إخواني الأربعة نلازمها ونقوم بإجلاسها ـ ومعنا أولادنا ـ فبادرت بالدعوة التي كنا نسمع دعواتها في كل وقت ونؤمن عليها فدعت بقولها: «قولوا آمين ـ جعل يومي قبل يومكم» فنظر بعضنا إلى بعض ولم يؤمن واحد منا على دعوتها ودعونا لها بالشفاء وأن ما أصابها تكفير لذنوبها إن شاء الله، وأن يلبسها ثوب الصحة والعافية، فقلت في نفسي: عجباً أهذا بشر أم جبل؟!.

وفي هذه الليلة تذكرت عندما اشتدت عليها الآلام، فقلت لها: استعيني بالله ثم بالدعاء والاستغفار والذكر فردت بقولها: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ثم رددت الآية الثانية: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] فما زالت ترددها حتى فقدت الوعي وصارت لا تستطيع الكلام ولا تعرف من حولها.

وأنا أتذكر ونظري إلى ساعتي فإذا هي تشير إلى الثالثة والنصف ولم أنم بعد فتعوذت من الشيطان وقرأت بعض الأذكار، فنمت حتى صلاة الفجر، وكنت معتاداً عند الاستيقاظ لصلاة الفجر وقبل الصلاة أن أتصل هاتفياً بمرافقة والدتي ـ رحمها الله ـ على هاتفها وهي أم محمد وهي نعم الرفيق الرافق بوالدتي من زواجها من أخي سعود منحه الله الصحة والعافية حتى وفاتها، وجعل ما قامت به في موازين أعمالها وأصلح لها النية والذرية، وعند مكالمتها كان الصوت مغايراً لما قبله من الأيام السابقة، وسألتها عن حالة والدتي في هذه الليلة، فقالت لي: إنها نقلت إلى غرفة العناية المركزة نظراً لسوء صحتها، وانطلقت بعد صلاة الفجر لزيارتها واستأذنت بالدخول وإذا أخي عبد الله بجانبها يسمي عليها ويقرأ عليها.

وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً قبلتها ثلاث قبلات أحسست أنها آخر قبلات لها في حياتها، وخرجت لصلاة الظهر.

وفي الساعة الواحدة والنصف اتصل المستشفى بأخي عبد الله فقام فزعاً وكنا جالسين وقال: الوالدة متعبة جداً وكانوا أخبروه بوفاتها وسبقنا إليها، ثم لحقته أنا والأخ سعود، وإذا هي مسجاة.

وعند دخولي وحدة العناية أحسست بقشعريرة غريبة جداً، وأبلغني أخي عبد الله بوفاتها ـ رحمها الله ـ وذهبت وكشفت وجهها وقبلتها على نفس الجبين، وقلت ما أطيب هذا الجبين حياً وميتاً.

رحمك الله، وثبتك الله عند السؤال، وجعل ما انتقلت إليه خيراً مما قدمت منه، وأبدلك الله منزلاً خير من منزلك، وأسكنك الله الجنة.

وانغلق باب من أبواب الخير كنا نستمد منه الدعوة والتوجيه، ونتقرب به إلى الله.

أسأل الله تعالى أن يعوضنا باباً آخراً من أبواب الخير.. آمين.

(أبو ياسر)

وقال عنها الابن أحمد بن سعود الطيار

يـا نـايـم الـلـيـل كـلـه   قـم صـل مـا فـيـك عِـلّـه
بـكـرة تـزور الـمـقـابـر   تـنـام الـدهـر كـلـه

بهذه الأبيات الموعظة التي ما زال صداها يتردد في مسمعي إلى الآن كانت الوالدة أم سعود ـ رحمها الله وأسكنها فسيح جناته ـ توقظني لصلاة الفجر عندما كنت أنام عندها فكانت ـ رحمها الله ـ جاهرة بالحق آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، الصغير والكبير عندها سواء لا تخشى ملامة أحد، صاحبة قيام ليل، سباقة إلى الخير، رحيمة عطوفة، تحب المساكين، تبذل في الخير كان للأطفال نصيب كبير من عطفها حتى نحن الكبار لم نحرم من خيرها، كانت تحب صلة الرحم وتحثنا عليها، لا تكتمل سعادتها إلا باجتماعنا، تتفقد الصغير قبل الكبير، قدوة في الصبر رأيناها صابرة محتسبة عندما فقدت فلذات كبدها، كانت هي شمس البيت وضياءه، اللهم اجعل قبرها روضة من رياض الجنة واجعل مقرها في عليين واجمعنا بها ووالدينا وجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



وقال عنها الابن محمد بن عبد الله الطيار
زاده الله هدىً وتوفيقاً وبراً وصلاحاً

(والدتي أم سعود)

* الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وسلم، أما بعد: فلقد كانت ـ والدتي أم سعود ـ مثالاً رائعاً في الدين والخلق والتعامل، ولا أزكيها على الله.

كانت مثالاً للمرأة الصالحة العاملة، تقضي أكثر يومها في عبادة ربها، فكنا نرى فيها القدوة الحسنة في العبادة والمعاملة، ولو أبصرتها تنتقل من عبادة إلى أخرى، لسانها يلهج بذكر الله، تؤدي من نوافل الصلوات المطلقة والمقيدة ما شاء الله لها، وتحافظ على السنن القبلية والبعدية للصلوات المفروضة، وسبحة الضحى، وتقوم الليل ساعتين أو أكثر، وتصلي الجمعة والعيدين والاستسقاء والتراويح مع جماعة المسلمين، تفرح بسماع الأذان أيما فرح، وكانت تستمع من الصباح حتى المساء إلى إذاعة القرآن الكريم، وتتصدق كل يوم على بيوت كثيرة من الأقارب والجيران مما بين يديها لا سيما ما يجلب من المزرعة، وتصوم ثلاثة أيام من كل شهر، والأيام الفاضلة كست من شوال، وتسع ذي الحجة، وغيرها، وتعتمر وتحج كثيراً مع والدي حفظه الله، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتصل الرحم، وتؤدي الحقوق، وتحفظ المعروف.

قد ودّعتنا وما زالت مفاخرها تتلى علينا ونتلوها لتالينا

أما بالنسبة لنا فكانت كل شيء في حياتنا، هي مركز الاجتماع، وملتقى الإخوة والأقارب والأحبة، نجتمع دائما عندها، وكثيراً ما نتناول الطعام

معها، أما أبناؤها البررة فهم دائماً بالقرب منها، وكل واحد منهم رهن إشارتها، يتسابقون لخدمتها، أما نساء البيت فلهن جزء من يومها تجلس إليهن فيأنسن بها ويستفدن منها، والأطفال حولها لا يغيبون عنها، أما من أراد السفر من أبنائها أو أبنائهم فإنه يستأذنها ويخبرها عن سفره، فينطلق لسانها بالدعوات الصادقات أن يحفظه الله، ويرده سالماً، وتوصيه بالرفق وعدم العجلة، وأن يخبرها إذا وصل إلى مقصده، فإذا رجع من سفره فأول ما يبدأ به السلام عليها وطمأنتها، فتفرح بقدومه، وتبتهج لرؤيته، وتدعو له، فيا لها من حياة ما أروعها، ومن لذة عيش لا نجد منها إلا لذة ذكراها وحسرة فقدها.

فقدناك فقدان السحابة لم يزل لها أَثَر يُثني بِه السهل والوعر

لقد كانت والدتي أم سعود لنا قلباً حانياً مشفقاً، وحِجْراً واسعاً، وظلاً وارفاً، ونوراً في البيت مشعاً، وسعادة ظاهرة، وفرحة غامرة، وأنساً وبهجة، واجتماعاً ورحمة، وسروراً وألفة، وصلة وقربة، ونبعاً من الخير والفضل، وباباً من أبواب الجنة.

لقد علمتنا حب الناس والإحسان إليهم، علمتنا صلة القريب والبعيد، علمتنا حب العبادة والطاعة، علمتنا الغيرة على حرمات الله، علمتنا المداومة على ذكر الله، علمتنا الجد والصبر والتحمل والجلد في هذه الحياة.

ولقد كان فقدها مصيبة عظيمة حلت بنا، وقارعة نزلت بساحتنا، ولولا اليقين بأن كل نفس ذائقة الموت، وأن ما حل بها هو مراد الله وقضاؤه، وأن ما نرجوه لها عند ربها خير من هذه الدنيا وما فيها، لولا ذلك لما جفت المآقي، ولما انقطع الحزن، ولما فرحنا بعدها بشيء أبداً، وعلى مثلها فلتبك البواكي.

فمثل فقدك ترتاع القلوب له وفقد مثلك جرح ليس يندمل

اللهم آنس وحشتها في قبرها واجعله روضة من رياض الجنة، اللهم أورثها الفردوس من الجنة، اللهم أكرمها بالنظر إلى وجهك الكريم، اللهم اجمعنا بها في جنتك يا رب العالمين.

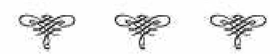
وقال عنها الابن أسامة بن عبد الله الطيار
زاده الله توفيقاً وبراً وهدىً وصلاحاً

(أفول شمس)

دمعة وفاء وزفرة رثاء في حق الوالدة أم سعود ـ غفر الله لها ـ:

شمس توارت في دجى الظلماء ... وسراج حُبٍّ بات غير مضاء
والليل ليل الحزن أسدل ستره ... فغدا فؤادي موحش الأرجاء
والدمع بات على الخدود محرقاً ... تلك الجفون بلوعة وبكاء
قالوا توارت شمسكم يا ويحهم ... أو مادروا أنا بدون ضياء
أفلت وكانت للقلوب ضياءها ... وسناءها فغدت بدون سناء
غابت فغاب النور بعد غيابها ... شتان بين النور والظلماء
يا أمنا فارقتنا ورجاؤنا ... بعد الفراق يكون خير لقاء
يا طالما كنا نراك منيرة ... بيت المحبة مشرق الأنحاء
كنا نراك فتبهج الدنيا لنا ... ونعيش عندك عيشة السعداء
كنت الحنون وكان شخصك دائماً ... رمز اجتماع صادق ووفاء
كم قد تعبت وكم بذلت كريمة ... ترجين في الجنات خير جزاء
كم قد صبرت على البلاء عزيزة ... ترعين للأيتام والفقراء
مات الأحبة من بنيك فلم نرى ... غير ابتهال صادق ودعاء
لم تجزعي بل كان حالك ناطقاً ... هذا قضاء الله دون مراء
من كفك المعروف ينبت زهره ... ويضوع مسك البذل في الأرجاء
لم تبذلي الإحسان يوماً سمعة ... أو مِنَّة بل كان خير عطاء
لما مرضت أتى الأساة بطبهم ... هل يستطيع الطب رد قضاء

الـموت حـق والـفـنـاء مـحـتـم   كـل الـخـلائـق عـرضـة لـفـنـاء
ربـاه أسـكـنـهـا الـجـنـان بـرحـمـة   فـي روضـة وحـدائـق غـنـاء
رباه في الفردوس فاجمعنا بها   فـي نـضـرة وسـعـادة وهـنـاء
ربـاه إنَّـا قـد دعـونـا فـاسـتـجـب   أنـت الـكـريـم مـجـيـب كـل دعـاء



وقال عنها ابن عمي الشيخ الوافي المحتسب
أبو عبد المجيد عبد الله بن عقيل الطيار

* تشغل الوالدة أم سعود أو منيرة السابح ـ رحمها الله ـ حسب تعبير معارفها حيزاً كبيراً، وسمعة طيبة وثقلاً اجتماعياً في الحي، حيث عرفت بالمثابرة والصبر والجد والاجتهاد والصلة والكرم والحكمة وحسن التصرف مع قوة في الدين، واجتهاد في العبادة.

ونالت بفضل الله ثم بنيتها الصالحة محبة الجميع وثناءهم ودعاءهم مما يرجى لها أن تكون قد طُرح لها القبول الوارد في حديث المحبة، ويكفيها فخراً أنها ترملت من زوجين تركا لها عدداً من الأيتام فتكفلت برعايتهم وتربيتهم وتدبير شئونهم حتى قرت عينها برؤيتهم علماء صلحاء بررة.

كانت على صلة قوية بجدتي لوالدي نورة بنت حمد البدر الشهيرة بـ (نورة الحمد) رحمها الله، وكانت على صلة بوالدتي، ولا أحصي تبادل رسائل السلام بينهما وبين والدي مع أولادها وأحفادها.

إذا كلمتها أحس وكأنها والدتي بتحاياها الندية ودعائها الطيب وسؤالها عن الدقيقة والجليلة، ولا تنسى أن تختم المكالمة بإبلاغ السلام لوالديَّ وجدتي إبان حياتها.

لقد عايشتها عن قرب لكونها والدة شيخي ـ حفظه الله ونفع بعلمه ـ وكثيراً ما أطلب الشيخ على هاتفها الخاص، وكانت حماة لخالتي، وبالطبع فهي جدة لإخواني وزملائي أبناء الشيخ وهم: الشيخ محمد والشيخ أسامة وأيوب.

لقد سعدت لما أبلغني الشيخ ـ حفظه الله ـ أنه يزمع إخراج كتاب خاص

بوالدته فعلمت أن الله قد شرح صدره لباب من أبواب البرِّ بعد وفاتها.

رحم الله الفقيدة أم سعود رحمة واسعة وجعل قبرها روضة من رياض الجنة ورفع درجتها في عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وجزى الله الشيخ على برِّه بوالدته خير ما يجزي عباده الصالحين، ونفع بكتابه عامة المسلمين إنه جواد كريم.



وقال عنها الشيخ زيد المنيفي

* ولعل من أول ما قيدت كلمات قالها لي أستاذي القدير ومعلمي الأول في المدرسة المربي الفاضل والخطيب المفوه والواعظ المتقن والناصح الغيور ـ زيد بن محمد المنيفي رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قال لي وهو يشجعني بعد أن أخذت الدكتوراه بثلاث سنوات تقريباً: «يا ولدي عوِّض والدتك عما قدمت لك ولإخوانك فقد ربتكم تربية أفضل من تربية كثير من الرجال، ها أنت درست وتفوقت وحصلت على الشهادة العليا كل ذلك بسببها وتشجيعها وحرصها فاحرص على برها والقيام بحقها، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: سلِّم لي عليها وقل لها: يقول زيد الله يجعل ذريتك مباركين ويغفر لك ووالديك والمسلمين».

وكم كانت هذه الكلمات دافعة لي ومشجعة ولاسيما من أستاذي أبي محمد الذي كان مثلاً يحتذى لي وزملائي أثناء الطلب.



وقال عنها شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ

* «هذه امرأة صالحة السلام عليها عبادة» حينما طلب مني أن يسلم عليها في مكانها في المنزل فقلت له: تأتي إليك هنا قال: لا أنا أذهب إليها وأسلم عليها في مكانها.



وقال عنها الوالد الزاهد الورع الناصح الغيور إبراهيم الغنام

* «جعلها الله في الفردوس الأعلى من الجنة عملت وتعبت وجنسها قليل في هذا الزمن؛ فبرُّوها وادعوا لها أنت وإخوانك أصلحكم الله».



وقال عنها شيخي وأستاذي الشيخ الدكتور عقيل العقيلي بعدما دار بيني وبينه حديث حولها في المسجد النبوي

* «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: «فإن من خيرة من عرفت من نساء الزلفي ديناً وأدباً واحتساباً أم الأخيار سعود وعبد الله وإخوتهم الآخرين الذين تربوا في حجرها وكانوا مثالاً يحتذى ديناً وأدباً وأمانة.

ومن المسلَّم به أن طيب المحتد له أثر في امتياز الأسرة وامتياز النشء كما يشهد له الواقع ومهما يعبر به من عبارة فإن أم سعود بن محمد الطيار حقيقة بالشكر على جمائلها والدعاء لها بأن تكون في بحبوحة بشائر النبي ﷺ للخيِّرات الصالحات الصابرات».

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

وكتب هذه الأحرف
عقيل بن أحمد بن دخيل العقيلي
في: ١٤٢٦/٧/٨هـ

وقال عنها شيخنا الفاضل
الشيخ محمد بن مرزوق المعيتق

* «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: فإن لذكر أهل الفضل والإحسان أثراً في تربية النفس على ترقي مدارج الكمال البشري، كما أن في إظهار تلك الفضائل والمحاسن رداً لشيء من الجميل لأهله.

ويعظم هذا الأمر إذا كان المتحدَّث عنه معروفاً عن قرب، ولعل في هذا الكتاب المبارك ـ إن شاء الله ـ الكشف عن كثير من الجوانب المشرقة التي هي ـ بحق ـ مدرسة متكاملة يجليها فارس نشأ وترعرع فيها، وعبَّ من معينها.

وحسبي أن أبين شيئاً مما يخصني فيما يتعلق بمعرفة المرأة الصالحة، والمربية الفاضلة، الصوَّامة القوَّامة، أم المساكين، والدة الجميع ـ أم سعود بن محمد الطيار ـ رحمها الله رحمة واسعة، وأعلى درجتها في المهديين.

فلقد جاورتها مدة طويلة ناهزت ربع قرن من الزمان عهدت منها حب الخير وأهله، والمسارعة إلى الأعمال الصالحة على كبر في السن ووهن في العظم، إلا أن قوة إيمانها، ورباطة قلبها، وصفاء روحها، وإشراقة نفسها طغت على ذلك كله مع حسن في التربية، وجهد مبارك في التنشئة انعكس ذلك ـ بتوفيق الله تعالى ـ على الأبناء رحم الله من مات منهم وبارك في الأحياء، وصلى الله على نبينا محمد».



وقال عنها الأستاذ الدكتور سعود الفنيسان

* «كانت والدتك ـ أم سعود رحمها الله ـ امرأة صابرة عابدة تحب الخير وتمتد يدها إلى أقاربها، أحسنت في تربية الأيتام ورعايتهم فتخرجوا من مدرستها ولقد قامت بما يعجز عنه كثير من الرجال».



وقال عنها أخي وصديقي الدكتور عبد الله المنصور حينما دار بيني وبينه حوار حولها على سطح المسجد الحرام في رمضان عام ١٤٢٤هـ

* «حق عليك أن تكتب عنها ليقتدي الشباب والفتيات ولتعرف الأمهات فضلهنَّ وحقهنَّ؛ فبركات أمك عليكم وعلى غيركم معروفة مشهورة».



وقال عنها الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد

* وقال عنها الحبيب الوفي صاحب الفضائل والمحامد والقلب السليم والقلم السيال الأخ الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد حفظه الله وتولاه وحقق له مطلوبه ومبتغاه.

(أم سعود، وما أدراك ما أم سعود؟!)

إنها أم الشيخ سعود الطيار ووالدة شيخنا أ. د. عبد الله بن محمد الطيار. امرأة من عُقْلَيات النساء، تحمل قلباً ينبض بالحب، ويداً تفيض بالعطاء، ولساناً يلهج بالذكر، والدعاء، والشكر، والنصح.

ولن أطيل في ذكر مآثرها، فهي متميزة بأمور كثيرة يدركها كل من عرفها، أو سمع بها، وأظن أن ابنها البار شيخنا الشيخ عبد الله سيبين قدراً كبيراً من ذلك.

وإنما أذكر بعض المواقف التي تحضرني في شأنها؛ فمن ذلك أنها تحرص كل الحرص على أحفادها، ومتابعتهم في دراستهم خصوصاً عند ظهور النتائج؛ فلما كنت وكيلاً للمعهد العلمي في الزلفي من عام ١٤١٣ ـ ١٤١٨هـ كانت ـ رحمها الله ـ تتصل وتطمئن على نتائج الأولاد؛ فكنت أفرح كثيراً لاتصالها، وأتعجب من حرصها، ومتابعتها، وأسعد كثيراً بحسن تأتيها، وسؤالها وتلطفها ودعائها.

وإذا اتصلتُ عبر الهاتف أريد شيخنا الشيخ عبد الله ولم يكن موجوداً وردت هي عليَّ، أَخَذْتُ أتجاذب معها أطراف الحديث، وأَخَذَتْ تسألني عن والدتي، وأولادي، وتدعو لي بالتوفيق.

وكانت ـ رحمها الله ـ تغمر القاصي والداني، والصغير والكبير من أقاربها ومعارفها بقلبها الكبير، وحنانها الفياض، وعطائها المتدفق.

ولقد رزقها الله ﷻ بالأولاد والأحفاد البررة الذين يتنافسون على خدمتها، ويتسابقون إلى برها، ويسارعون إلى مرضاتها.

ولعل النصيب الأوفى، والقدح المعلى لشيخنا المفضال الذي يرعاها، ويحرص كل الحرص على مداراتها، بل ـ حسب علمي ـ أنه لا يراجعها في أي أمر تريده، وكان يحرص على أن تذهب معه إلى الحج كل عام.

بل إنه ـ حفظه الله ـ أصبح قدوة في هذا الباب، ومضرباً للمثل في حسن الصحبة للوالدة.

ولا أريد أن أطيل أكثر من هذا؛ خشية أن تطاله يد الحذف.

وأذكر في عام ١٤٢٣هـ أنني كنت أطوف طواف الوداع قبيل صلاة الفجر فالتفت وإذا بجانبي شيخنا الشيخ عبد الله وعن يساره ابنه البارّ الشيخ محمد وهو يسير بجدته في العربة، وكانت متعبة في تلك الليلة، فكنت أقول في نفسي: هل ستحج بعد عامها هذا؟ وكتب الله ﷻ أن تكون تلك السنة آخر حجة تحجها، حيث فارقت الدنيا في ربيع الأول عام ١٤٢٤هـ.

وبعد أن رحلت عن الدنيا خلَّفت سيرة غراء، وذكراً أطيب من ريح المسك ولئن غابت عن الأعين فإنها حاضرة في القلوب.

ولئن انقطع عملها في هذه الدنيا فإن الدعوات الصادقة والصدقات الجارية التي يبذلها أولادها، وأحفادها البررة، ومحبوها، ونائلو معروفها مستمرة ـ بإذن الله تعالى ـ.

ولقد تركت فراغاً كبيراً بعد وفاتها، وأصبحتَ ترى ذلك بادياً على حال ذويها ومعارفها، فكلما ذكرت هاجت الأحزان، والذكريات، إذ كل واحد من أقاربها ومعارفها يحمل عنها ذكرى طيبة، سواء بدعاء صادق، أو بهدية معبرة، أو بملاطفة، أو نحو ذلك.

وخلاصة القول: أن الوالدةَ المرحومةَ ـ بإذن الله ـ أمَّ سعودٍ نادرة من

نوادر النساء، وعَقِيْلة من كرائم العقائل، ومذكرة بنساء الرعيل الأول وما كنَّ عليه من الصيانة والعفاف والتقى.

وأخيراً هذه كلمات يسيرة، وخواطر عجلى كتبتها؛ وفاءً لبعض حق أم سعود، واستجابةً لإشارة شيخنا أبي محمد.

وفي الختام أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يغفر للوالدة الكريمة أم سعود، وأن يجعلها في الفردوس الأعلى، وأن يجمعها بأحبتها في جنات النعيم، وأسأله ﷻ أن يغفر لولديها عبد العزيز وعلي ـ رحمهما الله ـ اللذين سبقاها إلى الدار الآخرة، وأن يبارك في أولادها الشيخ سعود، والشيخ عبد الله، والأستاذ مزعل، والأستاذ عبد الرحمٰن، والأستاذ جبر، وأختهما الكبرى أم سعود، وأختهما الصغرى أم ناصر.

كما أسأله ـ تبارك وتعالى ـ أن يصلح الذرية، وأن يجعل الجميع مفاتيح للخير، مغاليق للشر، مباركين أينما كانوا.

محمد بن إبراهيم الحمد
الجمعة، ١٤٢٦/٨/٧هـ

وقالت عنها أم فراج بن عبد العزيز الزنيدي

* وقالت عنها أم فراج بن عبد العزيز الزنيدي ـ وأم صديقي الوفي محمد ـ وقد أرسلت لي مجموعة من الأوراق فيها ثناء على الوالدة وذكر لصفاتها ومحامدها وقد لخصت ذلك في آخر كلامها وقالت: هذا هو الذي ينشر وأما غيره فهو لكم، وأنا أذكره كما جاءني ملخصاً دون زيادة أو نقصان: «كانت أم سعود ـ رحمها الله ـ معروفة بالكرم وكانت لا تحتقر من المعروف شيئاً وكانت سخية ومن ذلك أنها كانت تحتطب وتحش وتروي وتهدي من ذلك كله، وأيضاً تطحن العيش وتهدي منه كل ذلك احتساباً لوجه الله رغم ما هيَ فيه من ظروف معيشية صعبة، وقد أهدتني في آخر حياتها إبرة وكانت تعطيني الخمسة والعشرة ولا تحتقر شيئاً تجود به نفسها ـ يرحمها الله ـ وكانت تحبني لأنها تحس أنني مثلها بنفس صفاتها حيث عانيت مثلها وربيت الأيتام كما فعلت.

لم تتح لي مدة طويلة في معرفتها حيث كان ذلك حينما حججت معها قبل عشر سنوات وكان معنا ولدها الشيخ عبد الله وولدي أبو عبد العزيز محمد وفقهما الله لكل خير وأصلح لهما الذرية، وقد استفدت من مرافقتها في رحلات الحج حيث رأيت بر ولدها بها فاستفاد ولدي منه كثيراً وأصبح من ذلك الوقت يتفانى في برِّي وإكرامي، وأنا أدعو للشيخ عبد الله ووالدته وولدي في كل الأوقات.

وكانت أم سعود إذا رأتني متضايقة تعزيني بنفسها وتذكر لي أنها عانت في تربية أبنائها وعوضها الله كثيراً ولاسيما ولدها عبد الله وتقول لي: أنت تعرفينه جيداً وترين عمله معي وإخوانه مثله ولله الحمد والمنة، وكانت تدعو لابنها عبد الله دعاء كثيراً وقد رأيتها في عرفة وهي مستقبلة القبلة في السنوات

التي حجينا معها وهي رافعة يديها وتبكي وتدعو له بطول العمر وصلاح النية والذرية وسعة الرزق والعلم النافع وأن ينفع الله به البلاد والعباد.

رحمها الله رحمة واسعة وجمعني وإياها وذرياتنا في جنات النعيم.



وقالت عنها الغالية الكريمة موضي السويد

* وقالت عنها الغالية الكريمة ـ موضي السويد ـ ووالدة أخي الوفي وصديقي الغالي محمد بن عبد الله البدر وإخوانه البررة الأوفياء: «عرفت أم سعود صابرة تقية، وافية حفية، تعطف على اليتامى، والصغير والكبير، تأكل من كسب يدها إلى أن أصبحت تأكل من كسب أبنائها، تفرج عن المكروب، وتقضي حاجة المحتاج، ومن أرجى أعمالها التي يعرفها الصغير والكبير رعايتها للأيتام من أبنائها من ذرية زوجها الأول ثم من ذرية زوجها الثاني، وكذا ما كانت تقوم به خلال ثلاثين سنة من توليد للنساء، تذهب أول الليل ووسطه وآخره مشياً على الأقدام، محتسبة الأجر من الله، ولقد كانت تذهب من بيت والدها إلى ـ العقلة ـ ومعها ثلاثة أطفال، واحد في ـ زبيل ـ على رأسها، والثاني على كتفها، والثالث تمسكه بيدها الثانية، وتقطع هذه المسافة الطويلة بصبر عجيب وطمأنينة، وكانت وفية لي فحين حصل لي عارض في رجلي تتصل كثيراً وتدعو وتطمئن عليّ.

ولذا أحبها الصغير والكبير، وحزنوا على فقدها ـ رحمها الله رحمة واسعة ـ وجمعنا بها في الجنة، وجعل البركة في ذريتها وذرياتهم، وصلى الله على نبينا محمد.



وقالت عنها ـ أم محمد ـ بن خالد الحربي

* وقالت عنها ـ أم محمد ـ بن خالد الحربي ـ شيخة الرشيد ـ وكانت من جيراننا وهي من أعز وأفضل وأصفى صويحبات والدتي وجيرانها: «أم سعود قضاية الحاجة، قليلة الساية (السيئة)، مكرمة الجار، قوَّامة الأسحار، مفرحة الأيتام، تقدر الكبير، وترحم الصغير، كم من حاجة قضتها، وكربة فرجتها، ومشكلة حلتها، مجلسها ما يوزن بالملايين، وكل على فرقاها حزين، والله يجمعنا وإياها بجنات النعيم.





الخاتمة

هذه هي أمي: سطرت ما حضرني من خواطر في حياتها وما خفي عليّ كثير، وعزائي أني سأجد من أولادها وأحفادها وأقاربها الشيء الكثير مما سأقيده في الطبعات اللاحقة ـ بإذن الله ـ.

رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها الفردوس الأعلى من الجنة، وحشرها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأوردها حوض خاتم النبيين، وجمعها بوالديها وزوجيها وذريتها وإخوانها وأخواتها وأعمامها وعماتها وأجدادها وجداتها وجيرانها وكل من أحبته ويحبها في جنات النعيم.

وعوضها عن آلامها وأحزانها نعيماً وسروراً، ورزقها الله لذة النظر إلى وجهه الكريم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكان الفراغ من هذا الكتاب في ضحوة الخميس الثامن عشر من شهر شعبان من عام ١٤٢٦هـ.



كتاب

صفحات من حياة علامة القصيم
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي رفع مكانة العلماء العاملين، فقال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، إمام العلماء، وقائد المصلحين، القائل في سنته الغراء، : «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة**»[(١)]، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه العلماء العاملين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فكم شوَّه كثير من المسلمين اليوم بسلوكهم وتصرُّفاتهم من صورة الإسلام الصافية الناصية، ولو فتشت عن هذه الصورة في صفوف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم؛ فقلَّما تجدها صحيحة كاملة أو صافية نقية، وإنما تجدها وقد شابها من الشوائب الشيء الكثير.

ولهذا؛ يتميز العلماء العاملون في كل جيل ومصر بأنهم هم الذين يوضَع لهم القَبول في الأرض، ويقبل منهم الناس، ويسمعون لهم، ويقدمون فتاواهم على غيرهم.

ويعدُّ علامة القصيم الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي واحداً من هؤلاء؛ بما منحه الله من سعة في العلم، وتفوُّق في فهم النصوص، صاحب ذلك إخلاص صادق وورع وزهد وسلوك حميد وأخلاق عالية وبذل للعلم في كل مناسبة.

---

(١) رواه مسلم، انظر: صحيح مسلم ٣/ ٢٠٧٤.

فهذه الأمور وغيرها أهَّلت هذا العالم لأن يكون في طليعة العلماء، الراسخين في هذا العصر.

وإن من الوفاء له ـ وقد تعلَّمنا على يدي طلابه وهم بحمد لله كثير ـ أن نقدم ترجمة ضافية لحياته، استقيناها مما كُتب عنه ـ وهو يسير ـ، وركزنا على ما كتبه عنه طلابه، ثم مما أخذناه مشافهة من بعض طلابه.

وإني بهٰذه المناسبة أسجل اعترافي بالتقصير وعدم الوفاء بحق هذا الإمام، ولكن بذلت جهدي على حد قول الشاعر:

ولكِنَّ البَلادَ إذا اقْشعَرَّتْ وصُوِّحَ نَبْتُها رُعِيَ الهَشيمُ

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجمعني بهذا الشيخ ومشايخة وطلابه وجميع المسلمين في جنات النعيم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب

أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار

ضحوة الخميس ١٠/ ٤/ ١٤١٢هـ



المبحث الأول

اسمه ونسبه وأسرته

اسمه:

هو العالم الجليل، والفقيه الأصولي، والمحدث الداعية، والمحقق المدقق، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، علامة القصيم، صاحب التآليف النافعة المشهورة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

نسبه وكنيته:

عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن أحمد آل سعدي، من نواصر بني تميم، من بني عمرو المنتمية إلى تميم، نزح جدهم من قفار قرب حائل، وسكن عنيزة عام ١١٢٠هـ، وقيل: من بلدة المستجدة، إحدى البلدان المجاورة لمدينة حائل[١].

يكنى بأبي عبد الله، وهو أكبر أولاده الذكور.

مولده وعائلته:

ولد علامة القصيم في منطقة عنيزة في الثاني عشر من شهر المحرم عام سبعة وثلاث مئة ألف للهجرة ١٢/ ١/ ١٣٠٧هـ.

وقد توفيت والدته وهو صغير، له من العمر أربع سنوات، وتوفي والده وله من العمر سبع سنوات.

وهكذا أراد الله أن ينشأ هذا العالم يتيم الأب والأم، ومن تكون هذه حاله كثيراً ما يكتب له التفوق والنبوغ إذا وجد الرعاية والعناية والمتابعة، وقد

---

(١) انظر: روضة الناظرين ١/ ٢٢٠، وعلماء نجد ٢/ ٤٢٢.

تيسر ذلك للمترجم له، فحاز الكثير من الفضائل والعلوم، ونفع الله به منذ حداثة سنه.

وقد أشار بعض من مترجم للشيخ[١] إلى أنه كان له من العمر عند وفاة والده ثماني سنوات، وأشار بعضهم الآخر[٢] إلى أنه كان له من العمر اثني عشر سنة عند وفاة والده، وهذا غير مسلَّم؛ لأن عامة من ترجموا للشيخ ذكروا أن عمره عند وفاة والده كان سبع سنوات، ومن هؤلاء ولده عبد الله وتلاميذه القريبون منه.

كفالة زوج أبيه له:

نشأ المترجَم له يتيم الأبوين، فقيَّض الله له زوجة والده، فكفلته وأحبَّته أكثر من أولادها، فصار عندها موضع الرعاية والعناية، فلما شبَّ؛ صار في بيت أخيه الأكبر حمد.

والده:

ولد ناصر آل سعدي والد المترجم له في حدود ١٢٤٣هـ في عنيزة، ونشأ نشأة صالحة، فكان: عابداً، حافظاً للقرآن، محباً للعلم وأهله، وكان يقرأ على جماعة المسجد الكبير المواعظ دبر صلاة العصر وقبل صلاة العشاء، وينوب عن إمام المسجد في الإمامة والخطابة، والإمام في ذلك الوقت هو الشيخ علي آل محمد.

وفي آخر حياة والد المترجم له تولى إمامة مسجد الموكف حتى توفاه الله عام ١٣١٣هـ[٣]، وكان خلال إمامته للمسجد يدرِّس فيه ويعلم الناس ما يحتاجونه من أمور دينهم.

---

(١) انظر: ترجمة الشيخ في ذيل المختارات الجليلة بقلم أحد تلاميذه ص٤١٠.
(٢) انظر: مشاهير علماء نجد ص٢٩٢.
(٣) علماء نجد ٢/٤٢٣.

وقد اشتهر بالبذل والإحسان وإعانة المحاويج ومد يد العون للآخرين، وتلك صفات الأخيار الصالحين.

والدته:

أمه من آل عثيمين، وهم من آل مقبل، من آل زاخر، البطن الثاني من الوهبة، نسبة إلى محمد بن علوي بن وهيب، ومحمد هذا هو الجد الجامع لبطون الوهبة جميعاً، وآل عثيمين كانوا في بلدة أشيقر الموطن الأول لجميع الوهبة، ونزحوا منها إلى شقراء فجاء جد آل عثيمين الموجودين في عنيزة من شقراء إلى عنيزة وسكنها، وهو سليمان آل عثيمين، وهو جد المترجم له لأمه(١).

إخوته:

للمترجم له رحمه الله أخوان يتوسطهما سناً:

أما أكبر الثلاثة؛ فاسمه حمد، وهو الذي نشأ عنده المترجم له، ونشأ نشأة صالحة، وهيأ له أسباب تحصيل العلم.

وحمد هذا يعد من المعمَّرين، حيث مات سنة ١٣٨٨هـ وله من العمر ست وتسعون سنة.

يقول عنه القاضي: «كان من أعمدة المساجد، تجرَّد للعبادة والتلاوة، وكان من حملة القرآن»(٢).

والثاني وهو أصغر الثلاثة سناً: سليمان، سكن الجبيل، ثم الدمام، وكان من خيرة زمانه، توفي عام ١٣٧٣هـ.



(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٢.

(٢) روضة الناظرين ٢/ ٣٧٠.

المبحث الثاني

نشأته

إذا تأمَّلنا العصر الذي ولد فيه الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي، نجده عصراً يضطرم بنيران الاضطرابات والفتن، وتمزق شمل الجزيرة، وانتشار الخوف والهلع في شتى الجهات.

ومن المسلم به أن عصراً هذا صفته لا يشجِّع على طلب العلم والتحصيل والعكوف على البحث والتنقيب في الكتب، إنه عصر يلتمس فيه الإنسان الأمن والطمأنينة، ويبحث عن لقمة العيش والكفاف، ومتى توفر ذلك له، اكتفى ولم يبحث عن درجات الرقي والسمو.

وإذا أدركنا هذه الحقيقة المرة، ندرك أية عبقرية كانت كامنة في جوانح الشيخ المترجَم له؛ فقد أجمع أمره على أن يقف حياته على طلب العلم، وأن يعطي نفسه أمناً وطمأنينة وسكينة خاصّة تصل برباطها الوثيق بينه وبين المهمة التي أزمع أن يقف حياته عليها، فتراه إذ ذاك في وادٍ وأغلب ناشئة عصره ـ من زملائه وأترابه ـ في واد آخر، ولعمر الحق إن هذا هو الطموح والمثابرة الذي يعجز عنه بعض الكبار فضلاً عن الصغار، ولكنها الهمم العلية، واستسهال الصعاب مهما كانت مكابدتها، وصدق الشاعر إذ يقول:

لأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنى فما انْقادَتِ الآمالُ إلَّا لِصابِرِ[١]

لقد[٢] ارتضى المترجَم له العلم والمعرفة خديناً وأليفاً، ولم يرق في

---

(١) هذا البيت شاهد نحوي على نصب الفعل المضارع بعد (أو) التي بمعنى (حتى) بـ(أن) مضمرة وجوباً، وهو من الشواهد التي أكثر النحاة من الاستشهاد بها، ولم يذكروا لها قائلاً.

(٢) سيرة العلامة ابن سعدي ص٧.

نظره ـ من رجال زمنه ـ سوى طبقة العلماء؛ فلازمهم ملازمة الظل، وأكبَّ على الاغتراف من معين علمهم وفضلهم وأخلاقهم، فتغذى أطيب غذاء، وروى أكرم ريٍّ، وكابد المصاعب والمشاق؛ يسهر الليل، ويجتهد في النهار؛ لا فرق عنده بين ليل الصيف والشتاء، حتى حصَّل ما أراد، وحقق ما أمل، ووفق إلى تحقيق مبتغاه، وهكذا المكافحون المثابرون يقطفون الثمرة في النهاية شهية يانعة، وصدق الشاعر إذ يقول:

أَخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ للأَبْوابِ أَنْ يَلِجا[1]

يقول الشيخ محمد القاضي: «وكان شيخنا منذ نشأته: صالحاً، مثاراً للإعجاب وأنظار الناس، محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة، حتى لقد حدَّثني أبي رحمه الله أنه خرج لصلاة الفجر صباح سطوة آل سليم، وله من العمر خمس عشرة سنة، والقصر فيه الرماة، والناس كلهم متحصنون في منازلهم خوفاً على أنفسهم، فقابله بعض الناس، فقالوا: إلى أين تريد؟! فقال: لصلاة الفجر، فضربه حتى ألجأه إلى الرجوع إلى منزله»[2].



(١) قائل هذا البيت محمد بن بشير الخارجي، انظر: الشوارد ١/ ١٣٠.

(٢) روضة الناظرين ١/ ٢٢٠.

المبحث الثالث

حفظه للقرآن وبداية طلبه للعلم

حفظه للقرآن:

نشأ الشيخ ابن سعدي نشأة صالحة، وتربى تربية حسنة، وكان بيته بيت علم؛ لأن والده كان عالماً، وكذا كان أخوه من حملة القرآن، ولذا تعاهده بعد وفاة والده، ودفع به إلى حلقات القرآن، وشجَّعه على حفظه، حتى تحقَّق له ما أراد، فحفظه على سليمان بن دامغ في مدرسته بأم خمار، وكان إذ ذاك يافعاً لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

بداية طلبه للعلم:

بعد أن قرأ القرآن، وأتمَّ حفظه عن ظهر قلب، وأتقنه تلاوة وتجويداً، انصرف إلى طلب العلم بهمَّة ونشاط، وقد ساعده في ذلك بيئته الصالحة، وتشجيع أخيه الأكبر حمد له، حيث هيأ له المناخ لطلب العلم، وكفاه مؤنة العيش، فاشتغل ابن سعدي بطلب العلم، على أيدي علماء بلده عنيزة وما جاورها، وقد جدَّ واجتهد في طلب العلم، وسهر الليالي، وواصل الليالي بالأيام، ومضى في طريقه قدماً لا يلوي على شيء غير العلم، ولا ينشد شيئاً غير تحصيل العلم، وقد وفقه الله تعالى بثُلَّة من العلماء والزملاء الذين أعانوه على سلوك هذا الطريق.

ورغم أن ما اختاره ابن سعدي هو الطريق الأصعب، وهو طريق مليء بالمتاعب والمصاعب؛ إلا أن الله شرح صدره لذلك، وحبَّب له العلم، وهكذا طالب العلم لا يعدل بلذَّة العلم لذَّة، وصدق الشاعر:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُلومِ أَلَذُّ لِي ... مِن وَصْلِ غَانِيَةٍ وطِيبِ عِناقِ
وتَمايُلي طَرَباً لِحَلِّ عويصةٍ ... أَشْهَى وأَحْلَى مِن مُدامَةِ سَاقِ

وصَريرُ أَقْلامِي عَلى أَوْراقِها أَحْلى مِنَ التَّصفيقِ للعُشّاقِ

قال عنه تلميذه القاضي: «... وكان مشايخه كلهم معجبين بفرط ذكائه ونبله واستقامته، وكان يحضر هو وأبو عثمان ومحمد العبد الله المانع فيراجعون دروسهم على مشايخهم في كل مساء وفي كل ليلة، حتى يذهب معظم الليل، ويقول والدي: إن فائدتان فيما بيننا من المناقشات والبحث تعادل أو تقارب الفائدة على مشايخنا...»(١).



(١) روضة الناظرين ١/٢٢١.

المبحث الرابع

بداية جلوسه للتدريس

أشرنا في نشأته إلى أنه نشأ يتيماً، لكن ذلك لم يمنعه من الطموح والرقي وطلب العلا، ولعلَّ ظروف نشأته كانت من أسباب إقباله على العلم، وقد ظهرت أمارات النبوغ عليه مبكراً، ولذا؛ لما رأى زملاؤه في الدراسة تفوقه عليهم ونبوغه؛ تتلمذوا عليه، وصاروا يأخذون عنه العلم وهو في سن البلوغ، فصار في هذا الشباب المبكر متعلِّماً ومعلِّماً، وما إن تقدمت به الدراسة شوطاً؛ حتى تفتحت أمامه آفاق العلم[١].

ولما بلغ سنَّ الثالثة والعشرين من عمره؛ جلس في حلقة التدريس ليعطي الدروس للطُّلَّاب، وقد مضى في طريقين متوازيين، فهو يدرس العلوم ويتلقَّاها من العلماء، وهو في الوقت نفسه يُدَرِّس العلوم لطلَّابها من الناشئة والشباب.. إنه يتلقَّى نوراً ويلقي أنواراً على بلده من النور الذي يتلقَّاه.

وقد بلغ الذروة في علوم الحديث والفقه والتفسير، حتى إنه منذ عام ١٣٥٠هـ صار مرجع التدريس ومرجع الإفتاء في بلده وما حولها من القرى، وأصبح عليه المعوَّل ـ بعد الله ـ لدى جميع الطلاب في أخذ العلوم[٢].



(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٣.

(٢) سيرة ابن سعدي ص١٠.

المبحث الخامس

أعماله التي قام بها

كان الشيخ رحمه الله محباً للخير، ساعياً فيه، يطرق كل باب يؤدي إليه، ولذا كانت له مشاركات إيجابية في إقامة المشاريع الخيرية التي يعود نفعها على المجتمع عامة.

ومن مشاركاته وأنشطته التي قام بها ما يأتي:

١ ـ كان مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشؤونهم؛ فهو مدرس الطلاب، وواعظ العامة، وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد، وكاتب الوثائق، ومحرر الأوقاف والوصايا، وعاقد الأنكحة، ومستشارهم في كل شؤونهم وما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم، وكل هذه الأعمال يقوم بها حسبة، ولا يتقاضى عنها أجراً، وهذا ما جعله كبيراً في أعين الناس، محبوباً لدى عامتهم وخاصتهم.

يقول عنه العدوي: «لقد كان الشيخ عبد الرحمٰن السعدي من الناحية الدينية هو كل شيء في عنيزة؛ فقد كان العالم، والمعلِّم، والإمام، والخطيب، والمفتي، والواعظ، والقاضي، وصاحب مدرسة دينية له فيها تلاميذ منتظمون. . .»[1].

٢ ـ قام بتأسيس المكتبة الوطنية بعنيزة، وذلك عام ١٣٥٩هـ أو عام ١٣٦٠هـ على نفقة الوزير عبد الله السليمان الحمدان تحت إشراف الشيخ، فبذل الشيخ المترجم له جهوداً كبيرة في تأسيسها وتأمين المراجع العلمية لها من كل مكان، وقد جلب لها آلاف المراجع ما بين مطبوع ومخطوط في شتى

(١) مجلة الجامعة الإسلامية سنة ١١، العدد ٤، ص٢٠٧.

العلوم والفنون والمعارف، وقد خدمه في ذلك تلاميذه المنتشرون في كل مكان، وأصبحت هذه المكتبة بمثابة نادٍ يلتقي فيه طلبة الشيخ ويتذاكرون ويتدارسون ويتحاورون، وقد خصص الشيخ للمكتبة جلسة، فأصبحت تعج بالزائرين؛ لأنها شهدت حركة علمية كبيرة، وتعد هذه المكتبة من طلائع المكتبات العامة في العهد السعودي، وخصوصاً في الديار النجدية.

٣ ـ رشح لقضاء عنيزة عام ١٣٦٠هـ فامتنع تورُّعاً، وحرص ألا يعمل بعمل رسمي، ليتسنَّى له التفرُّغ للعلم وطلابه، ولهذا عرض عليه القضاء مراراً، ولكنه كان في كل مرة يرفض، ومبدؤه الحرص على التفرُّغ وجمع القلب والفكر للعلم والتعليم، وقد علم الله صدق سريرته، فتحقَّق له ما أراد، وسلم من كل المناصب التي تشغله عن العلم شاء أم أبى.

٤ ـ عينه القاضي عبد الرحمٰن بن عودان إماماً وخطيباً للجامع الكبير بعنيزة في رمضان عام ١٣٦١هـ، واستمرَّ فيه حتى خلفه تلميذه الشيخ محمد بن صالح ابن عثيمين، رحمهما الله جميعاً.

وقد عدَّ الناس هذا التعيين حسنة من حسنات الشيخ ابن عودان، وأحبوه من أجلها، وحفظوها له؛ لأنها خطوة مباركة، نفع الله بها البلاد والعباد، إذ كان المسجد الجامع نادياً من أندية العلم في حياته وحياة شيخه صالح القاضي، يأتيه طلاب العلم من كل البوادي والأمصار القريبة للانتفاع، ويزدحم بالطلاب على اختلاف ميولهم ورغباتهم وتفاوتهم في درجات تحصيلهم، لكن الدافع للجميع هو الرغبة في العلم والتحصيل، وكانت مجالس المترجم له وشيخه في المسجد وغيره مجالس علم وتعليم وتربية وتوجيه، وهكذا العالم كالغيث أينما حل نفع.

٥ ـ قام في سنة ١٣٦٣هـ يجمع التبرُّعات من المحسنين كل على قدر استطاعته لبناء مقدَّم الجامع الكبير، وقد انهالت عليه التبرُّعات من كل مكان، وجمع من المال ما مكَّنه من توسعة المسجد وبناء مقدِّمته بناء مناسباً يتواكب مع الأعداد الكبيرة التي تؤم المسجد وتصلي فيه.

٦ ـ قام في سنة ١٣٧٣هـ بجمع التبرعات مرة ثانية لعمارة مؤخِّر الجامع

الكبير، وقد اجتمع لديه المال ما تمكَّن به من إتمام العمارة على أتمِّ وجه وأكمله، وليس هذا بغريب؛ فإن الأخيار الموثقين إذا تصدَّروا وتصدَّروا لعمل الخير، فسيجدون كل عون ومساعدة من المحسنين؛ لثقتهم بهم، ولاطمئنانهم على مصير ما تجود به أنفسهم.

٧ ـ قام بالإشراف على المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٣هـ، وإنه لدعم كبير لطلاب المعهد، وتشجيع لهم؛ أن يتولَّى الشيخ الإشراف عليه؛ لأن ذلك سيوثق العلاقة بينهم وبينه، وسيمكنهم من عرض أي مشكلة تواجههم عليه.

يقول الشيخ عبد الرحمٰن العدوي أحد المدرسين في المعهد خلال هذه الفترة: «وبدأت الدراسة في المعهد العلمي بعنيزة في شهر ربيع الثاني من عام ١٣٧٣هـ، وفي نفس الوقت بلغنا أن عبد الرحمٰن السعدي قد عُيِّن مشرفاً على المعهد من الناحية العلمية، وكان تعيينه براتب شهري قدره ألف ريال، ولكن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أرسل إلى رئاسة المعاهد العلمية[1] أنه على استعداد للإشراف على المعهد حسبة لوجه الله تعالى، وأنه لا يريد أن يكون له على ذلك أجر مادي، وقبلت الرئاسة شاكرة له هذا الصنيع الذي لا يصدر إلا من عالم زاهد يبتغي وجه الله.

... وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يأتي إلى المعهد بانتظام يوم الثلاثاء من كل أسبوع.. ثم يدخل إلى آخر صف، ويجلس فيه كأنه أحد طلاب هذا الفصل، ويكرِّر هذا العمل في أكثر من فصل، ويستمع إلى أكثر من درس، ولم يكن في المعهد من المدرِّسين؛ المصريين سواي وزميلي ـ محمد الجبة ـ، أما بقية المدرسين؛ فكانوا من أبناء الشيخ، علمهم في المسجد الجامع إلى درجة

(١) تحولت فيما بعد عام ١٣٩٥هـ إلى جامعة، وأطلق عليها اسم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد نفع الله بها نفعاً عظيماً، فلا تكاد تجد دائرة حكومية أو كلية أو مدرسة ثانوية أو متوسطة للبنين والبنات إلا وفيها من خريجي وخريجات الجامعة، وذلك بفضل الله، ثم بفضل حسن نية مؤسسها وسلامة منهج القائمين عليها، غفر الله للأموات وبارك في الأحياء.

تسمح لهم بالقيام بتدريس المواد التي تعلموها على يديه»[1].

٨ ـ يعد الشيخ رحمه الله أول من أدخل مكبر الصوت إلى مساجد عنيزة.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمٰن العدوي سبب إدخاله لمكبر الصوت للجامع الكبير، فقال: «... وذات لقاء قلت له: يا فضيلة الشيخ! لماذا لا تستخدم مكبر الصوت (الميكرفون) في الخطبة، فإن أكثر الناس لا يسمعون صوتك ولا يستفيدون مما تلقيه عليهم من المواعظ والأحكام، فابتسم الشيخ ـ وكان له بسمة خفيفة جميلة تنمُّ عن الرضى والسرور ـ قال: إن مكبر الصوت لم يدخل المساجد في بلاد نجد، ولا أحب أن أكون أول من يستخدمه. قلت: ولماذا؟ ألست الشيخ العالم القدوة؟ إذا لم تفعل أنت ما تراه نافعاً؛ فمن يفعله؟ أليس في استعماله خير وهو نشر تعاليم الدين وآدابه وإسماع أكبر عدد ممكن بواسطته، والنساء في بيوتهن حول المسجد يستمعن الخطبة عن طريق مكبر الصوت، فيكون الخير قد تجاوز حدود المسجد، ومن سنَّ سنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ذلك لأنه سيتعرض لجهل الجاهلين، ونقد الناقدين، وسيصيبه من أقوال الناس وإيذائهم واستنكارهم لما لم يألفوه شيء كثير، فيكون له من أجل ذلك الأجر الكثير؟ ثم إنك يا فضيلة الشيخ! إذا لم تستخدم مكبر الصوت في خطبة الجمعة؛ فلن يجرؤ أحد على استخدامه من بعدك، وسيقول الناس: لو كان فيه خير؛ لاستخدمه الشيخ السعدي، فتكون قد منعت استخدامه مستقبلاً من حيث لا تدري ولا تريد! فاتسعت الابتسامة على شفتي الشيخ، وقد استمع إلى كلامي كله مصغياً ومتأملاً، وهز رأسه يميناً وشمالاً في هدوء رتيب، وقال: ما شاء الله! لقد حدثني في ذلك غيرك، وما شرح الله صدري لذلك مثل ما شرحه الآن، وأعدك أن يكون في المسجد مكبر الصوت ذي ثلاث سماعات، يعمل بواسطة البطارية ـ فلم تكن عنيزة قد عرفت الكهرباء بعد ـ، وفرح الناس، وتحدثوا عن استماعهم للخطبة من غير جهد، وحرصت على أن أسمع رأيهم، فلم أجد

(١) مجلة الجامعة الإسلامية سنة ١١، العدد ٤، ص٢٠٥ و٢٠٦.

معارضاً، وما سمعت إلا كلمات الاستحسان والسرور، وذهبت إلى الشيخ في بيته لأنقل إليه استحسان الناس وسرورهم، فإذا به ينقل إليَّ بشرى سارة مؤداها أن الشيخ عبد الله السليمان صلى هذه الجمعة في المسجد واستمع إلى الخطبة، فسره ذلك، وتبرع بماكينة كهرباء للمسجد»[١].

وللشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ خطبة نافعة في فوائد مكبر الصوت، قالها حينما وضعه في الجامع، جاء فيها: «. . . وكذلك إيصال الأصوات والمقالات النافعة إلى الأمكنة البعيدة من برقيات وتلفونات وغيرها داخل في أمر الله ورسوله بتبليغ الحق إلى الخلق؛ فإن إيصال الحق والكلام النافع بالوسائل المتنوعة من نعم الله، وترقية الصنائع والمخترعات لتحصيل المصالح الدينية والدنيوية من الجهاد في سبيل الله. .»[٢].

وللشيخ أعمال أخرى خفيت على الناس في حياته، ولم يعلموا عنها إلا بعد موته، فقد كان يعين الفقراء، ويسدِّد عن المدينين مما يقع في يديه من الأموال وقد كان موفقاً في حل المشاكل العائلية والمعاملات الماليَّة التي يترتَّب عليها منازعات ومخاصمات، وكان ينهيها قبل وصولها إلى المحكمة، ولعمر الحق إن هذا هو العالم الرباني الذي ينفع أينما حل وارتحل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[٣].



---

(١) مجلة الجامعة الإسلامية سنة ١١، العدد ٤، ص٢٠٧.

(٢) الخطب المنبرية ص٨١.

(٣) انظر في أعمال الشيخ: علماء نجد ٢/ ٤٢٤، وروضة الناظرين ١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، وآخر كتاب: المختارات الجليلة صفحة (د ـ هـ) وسيرة السعدي ص١٣، ومشاهير علماء نجد ص٣٩٦.



المبحث السادس

صفاته الخَلْقية

وصفه أحد تلاميذه فقال:

«كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، أبيض اللون، مشرباً بالحمرة، مدور الوجه، طلقه، كثيف اللحية البيضاء، وقد ابيضَّت مع رأسه وهو صغير»[١].

ووصفه آخر، فقال:

«كان متوسط القامة، إلى الربعة أقرب، ممتلئ الجسم، أبيض اللون، مشرباً بالحمرة، مدور الوجه، كثيف اللحية البيضاء، وقد ابيضَّت مع رأسه وهو صغير، وكان شعره في شبيبته في غاية السواد، وفي شيخوخته في غاية البياض، يتلألأ كأنه فضة، ووجهه حسن، عليه نور في غاية الحسن وصفاء اللون»[٢].



(١) روضة الناظرين ١/٢٢٦.

(٢) انظر ترجمة السناني للشيخ في: ملحق المختارات الجليلة صفحة (هـ).

المبحث السابع

خصائله وشمائله

أخلاقه:

عاش الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي حياة الزهد والورع والتواضع والأمانة والأخلاق الكريمة، كان جريئاً في قول الحق، لا يخشى في الله لومة لائم، يصدع به مهما كلفه ذلك من تضحيات، وقد سبب له ذلك غضب بعض المأجورين من العصاة وأهل المنكرات.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يضيق بنصح ناصح، بل يسمع بأدب جمٍّ مهما كانت النصيحة صادرة من صغير أو كبير، وذلك خلق العلماء الأعلام الذين رزقهم الله التواضع، فرفعهم الله في أعين الناس كباراً.

وقد حباه الله شدة الذكاء، وسرعة في البديهة، وقوة في الحفظ، ولهذا ذكر عنه تلاميذه أنه كان يحفظ المتون عن ظهر قلب، ويتعاهدها بين الحين والحين، ولهذا؛ إذا استشهد بشيء؛ هذّه هذّاً كما تُهَذُّ فاتحة الكتاب.

كما وهبه الله مَلَكة فريدة في الإِلقاء، جذبت إليه أنظار الناس من كل مكان، إذ كانوا يتوافدون إليه للاستماع منه، وقد صاحب ذلك حسن صوت ومنطق يجعل سامعه لا يمل حديثه؛ لاسترساله في الحديث، وتخيُّره للبراهين العقليَّة والقصص الواقعيَّة، وتلك مزايا يندر وجودها في خاصة الناس؛ فضلاً عن عامتهم.

وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ: وثيق الصلة، حسن المعاشرة، متودِّداً إلى جلسائه من مشايخ وأقران وطلاب، إذا جلست عنده؛ لا تفرِّق في حلقته بين كبير وصغير، لسمو الأخلاق وكريم السجايا[1].

---

(١) روضة الناظرين ١/ ٢٢٠، وسيرة العلامة السعدي ص٢١، وابن سعدي مفسراً ص٢٧.

وإليك تفصيل أخلاقه فيما يأتي:

زهده:

إذا أردنا أن نعرف حقيقة الزهد عند المترجَم له؛ حسُنَ أن نذكر هنا طرفاً من «منظومته في السير إلى الله»، ونشير إلى بعض تعليقاته عليها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يتقربون إلى المليك بفعلهم ... طاعاته والترك للعصيان
فعل الفرائض والنوافل دأبهم ... مع رؤية التقصير والنقصان
صبروا النفوس على المكاره كلها ... شوقاً إلى ما فيه من إحسان
نزلوا بمنزلة الرضى فهم بها ... قد أصبحوا في جنة وأمان
شكروا الذي أولى الخلائق فضله ... بالقلب والأقوال والأركان
صحبوا التوكل في جميع أمورهم ... مع بذل جهد في رضى الرحمٰن
نصحوا الخليقة في رضى محبوبهم ... بالعلم والإرشاد والإحسان
صحبوا الخلائق بالجسوم وإنما ... أرواحهم في منزل فوقاني
عزفوا القلوب عن الشواغل كلها ... قد فرغوها من سوى الرحمٰن
حركاتهم وهمومهم وعزومهم ... لله لا للخلق والشيطان
نعم الرفيق لطالب السبل التي ... تقضي إلى الخيرات والإحسان»

هذه أوصاف السائرين إلى الله، الذين يحرص الشيخ على صحبتهم والسير معهم.

يقول في تعليقه على البيتين الأخيرين: «أي: فرَّغوا قلوبهم عن جميع ما يشغَلُ عن الله ويبعِد عن رضاه، وهذا حقيقة الزهد، ولا يكفي هذا التفريغ حتى يمتلئ القلب من الأفكار النافعة والعزوم الصادقة، فتكون أفكار العبد في كل ما يقرِّب إلى الرحمٰن؛ من تصوُّر علم، وتدبُّر قرآن، وذكر الله بحضور قلب، وتفكُّر في عبادة وإحسان، وخوف من زلَّة وعصيان، أو تأمل لصفحات الرحمٰن وتنزيهه عن جميع العيوب والنقصان، أو تفكُّر في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها والنار وجحيمها، فأفكارهم حائمة

حول هذه الأمور، متنزِّهة عن دنيَّات الأمور والتفكُّر بما لا يجدي على صاحبه إلا الهمّ والوَبال وتضييع الوقت وتشتيت البال غير نافع للعبد في الحال والمآل؛ فهؤلاء هم الذين يَسْعَد بهم رفيقهم إذا اقتدى بسلوك سيرهم فريقهم، وهؤلاء الذين أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا طريقهم، إذ أنعم عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقهم»[(١)].

يقول عنه تلميذه محمد القاضي: «... وكانت الكتابة سهلة عليه في قلم أو عود عصفر أو غيرها، مما جعل شيخه محمد الشنقيطي يقول: ما وصفته في مخطوطاته إلا على الزهاد في الدنيا، يأخذ ما عُفِيَ له بدون تكلف...»[(٢)].

ويقول عنه أيضاً: «وكان كثير الحج نفلاً، زاهداً، عفيفاً، متعففاً، عزيز النفس مع قلة ذات يده، متواضعاً، يسلِّم على الصغير والكبير، ويجيب الدعوة، ويزور المرضى، ويشيع الجنائز..»[(٣)].

وقال عنه صاحب «سيرة ابن سعدي»: «... ومن الجدير بالذكر أنه كان زاهداً، معرضاً عن مفاتن الدنيا ومباهج الحياة وزخارفها، وكان منقطعاً للعبادة والعلم، لا يشارك الناس فيما يهتمون به من المناصب والجاه والنفوذ، وناهيك أنه عرض عليه القضاء مراراً عديدة، فأبى أن يدخل الميدان، ومع هذا؛ فكان الناس يرضونه حكماً، ويتقبَّلون فتاواه، ويطمئنون إلى ما يقوم به من إصلاح ذات البين عن طيب خاطر...»[(٤)].

ويقول عنه الأديب عبد الرحمٰن الفوزان: «... كان مثال الورع والزهد الصحيح؛ فقد أتته الدنيا تطلب ودّه ضاحكة مبتسمة، لكنه رفضها وأباها، وكم من مرة عرضت عليه المناصب الرفيعة والأعمال الغالية، فأصبحت محاولاتها

---

(١) مجموع تآليف ابن سعدي ص١٤٦.
(٢) روضة الناظرين ١/ ٢٢٥.
(٣) روضة الناظرين ١/ ٢٢٤.
(٤) سيرة ابن سعدي ص١٢.

عبثاً، ولم يرض أن تفرض له المرتبات، ولا أن يُجْرى عليه المخصصات، بل كان قانعاً بما عنده من كفاف، حتى إن مخصَّص إمامة الجامع الكبير الذي تولَّى الصلاة فيه سنين عديدة كان ينفقها في المصالح الخيرية، وعلى الفقراء والمعوزين...»[١].

هذا هو زهد الشيخ: صدق الإقبال على الله، وتفريغ القلب عن كل محبوب سوى الله، ومصاحبة للأخيار السائرين في الطريق المستقيم طريق المنعم عليهم، عزوف عن المناصب وطمع الدنيا الزائل، وتخلُّص مما في اليد منها، وعطف على الفقراء والمساكين، وتلك درجات لا يبلغها إلا المقربون، وقليل ما هم.

ورعه:

للوقوف على ورع الشيخ يحسن بنا أن نقف على تعريفه للورع ووصفه له.

ذكر في كتابه: «بهجة قلوب الأبرار» حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر! لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق»**[٢].

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديث اشتمل على ثلاث جمل، كل واحدة منها تحتها علم عظيم...».

«الجملة الثانية: قوله ﷺ: **«ولا ورع كالكف»**؛ فهذا حدٌّ جامع للورع، بيَّن به رسول الله ﷺ أن الورع الحقيقي هو الذي يكف نفسه وقلبه ولسانه وجميع جوارحه عن الأمور المحرمة الضارة، فكل ما قاله أهل العلم في تفسير الورع، فإنه يرجع إلى هذا التفسير الواضح الجامع.

(١) سيرة العلامة ابن سعدي ص٣٠.

(٢) روه البيهقي في شعب الإيمان، انظر: مشكاة المصابيح ٣/ ٤٠٦، ورواه الطبراني ٢/ ١٦٨. وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٤٠٥، وقال: رواه ابن حبان في صحيحه.

فمن حفظ قلبه عن الشكوك والشبهات وعن الشهوات المحرمة والغل والحقد وعن سائر مساوئ الأخلاق، وحفظ لسانه عن الغيبه والنميمة والكذب والشتم وعن إثم وأذى وكلام محرَّم، وحفظ فرجه وبصره عن الحرام، وحفظ بطنه عن أكل الحرام، وجوارحه عن كسب الآثام؛ فهذا هو الورع حقيقة، ومن ضيع شيئاً من ذلك؛ نقص من ورعه بقدر ذلك...»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موطن آخر: «... واعلم أن القناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل أحد، ولا سيما المشتغلون بالعلم، فإنه كالمتعيَّن عليهم؛ لأن العلم وظيفة العمر كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريَّات؛ حصل النقص بحسب ذلك، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لحصر الأشغال الدنيوية وإقبال المتعلم على ما هو بصدده...»[2].

وقال عنه صالح بن عبد العزيز بن عثيمين: «.. لقد كان الفقيد رَحِمَهُ اللَّهُ عبد الرحمٰن السعدي على جانب كبير من الأخلاق الحسنة، متواضعاً للصغير والكبير، ذا عبادة وزهد وورع..»[3].

وقال عنه عبد الرحمٰن الفوزان: «... وكان مثال الورع والزهد الصحيح...»[4].

وقال عنه عبد القدوس الأنصاري: «... وقد اشتهر فضله وورعه وعلمه، وكان مرجعاً عظيماً من مراجع العلم والدين...»[5].

هذه النصوص من الشيخ ومن محبِّيه وتلاميذه ومعاصريه خير شاهد على ورع الشيخ وبعده عن مباهج الدنيا وزينتها، ويكفي دليلاً واقعيّاً على ورعه أنه رفض القضاء أكثر من مرة، وذلك حرصا منه على سلامة نفسه؛ مخافة أن

(١) بهجة قلوب الأبرار ص١٧٦.
(٢) الفتاوى السعدية ص٦٣٢.
(٣) سيرة ابن سعدي ص٢٨.
(٤) سيرة ابن سعدي ص٣٠.
(٥) سيرة ابن سعدي ص٣٢.

يجرَّعليه تولِّيه للقضاء أموراً هو في غنى عنها، وقد وفِّق في توجُّهه، وسلَّمه الله منه، مع أنه كان من خيرة من يؤهِّل الطلاب للقضاء، فضلاً عن أن يتولَّاه بنفسه، ولكنه الورع والصدق ومخافة الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

تواضعه:

اشتهر علَّامة القصيم بتواضعه الكبير، فرغم أنه كبير البلد وعالمها ورجلها الأول وصاحب المواقف الشجاعة وصاحب اليد الطولى في مجالات الخير والبر والإحسان؛ إلا أن ذلك زاده تواضعاً، فكبر في أعين الناس، ووضعوه بالمكانة اللائقة به.

وصفه بعض من ترجم له، فقال: «... كان متواضعاً، جمَّ التواضع؛ للصغير والكبير، والغني والفقير؛ على السواء، كان كثير الاجتماع مع العامَّة ومع الخاصَّة في أنديتهم وفي مجتمعاتهم، وإذا اجتمع بهؤلاء أو أولئك؛ انقلب المجلس إلى ناد علميٍّ، فمع طلبة العلم يبحث في شؤون العلم، ومع العامَّة يرشدهم إلى ما فيه نفعهم في دينهم وفي دنياهم.

ولهذه الميزة التي تدلُّ على تفتُّح الوعي واستنارة البصيرة وسعة الأفق؛ تجد كل من يحضر مجالسه يستفيد منها علماً جماً وفوائد جزيلة...»[1].

«وكان يتكلَّم مع كل إنسان بما يصلُحُ له ويصلحه، ويبحث معه في الموضوعات التي تهمُّه والتي تنفعه في دينه ودنياه».

وكان رحمه الله حلَّالاً للمشاكل ـ مشاكل الناس بعضهم مع بعض ـ بما أوتي من علم وحكمة ورشد وذكاء لمَّاح.

وكان محبوباً من جميع من خالطه وعرفه؛ لأن الجميع كانوا يشعرون: أنه والد لهم، حريص على العناية بشؤونهم، يقوم بحاجاتهم، ويخدمهم فيما يحتاجونه، لا يفرق بين صغير أو كبير، أو شريف أو غيره.

لقد بلغ من تواضعه أن الأرملة والعجوز والطفل الصغير قد يستوقفونه

---

(١) سيرة العلامة ابن سعدي ص١١.

فيقضي لهم حاجاتهم بكل يسر وسهولة ووجهه بشوش مستبشر»[١].

ويقول عنه تلميذه الشيخ عبد الله البسام: «... له أخلاق أرق من النسيم، وأعذب من السلسبيل، لا يعاتب على الهفوة، ولا يؤاخذ بالجفوة، يتودد ويتحبب إلى البعيد والقريب، يقابل بالبشاشة، ويحيي بالطلاقة، ويعاشر بالحسنى، ويجالس بالمنادمة ويجاذب أطراف أحاديث الأنس والود، ويعطف على الفقير والصغير، ويبذل طاقاته ووسعه، ويساعد بماله وجاهه وعلمه ورأيه ومشورته ونصحه بلسان صادق وقلب خالص وسر مكتوم...»[٢].

ولقد أشار الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الكبر المذموم هو التكبُّر عن قبول الحق والأخذ به، والتكبُّر عن الرجوع إلى الصواب بعد أن يتبيَّن له.

يقول في: «بهجة قلوب الأبرار»: «... فيجب على طالب العلم أن يعزم عزماً جازماً على تقديم قول الله وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد، وأن يكون أصله الذي يرجع إليه وأساسه الذي يبني عليه الاهتداء بهدي النبي ﷺ، والاجتهاد في معرفة مراده، واتباعه في ذلك ظاهراً وباطناً، فمن وفِّق لهذا الأمر الجليل، فقد وفِّق للخير، وصار خطؤه معفوّاً عنه؛ لأن قصده العام اتباع الشرع، فالخطأ معذور فيه إذا فعل مستطاعه من الاستدلال والاجتهاد في معرفة الحق، وهذا هو المتواضع للحق...»[٣].

ويقول في موضع آخر: «... على المعلم إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق، ولا يمنعه قولٌ قاله ثم رأى الصواب في خلافه من مراجعة الحق والرجوع إليه، فإن هذا علامة الإنصاف والتواضع للحق، فالواجب اتِّباع الصواب، سواء جاء على يد الصغير أو الكبير، ومن نعمة الله على المعلم أن يجد من تلاميذه من ينبهه على خطئه، ويرشده إلى الصواب، ليزول استمراره

(١) سيرة العلامة ابن سعدي ص١٣.
(٢) علماء نجد ٢/ ٤٢٩.
(٣) بهجة قلوب الأبرار ص١٨٢.

على جهله، فهذا يحتاج إلى شكر لله تعالى، ثم إلى شكر من أجرى الله الهدى على يديه، متعلماً كان أو غيره..»(١).

جرأته في الحق:

لقد كان الشيخ السعدي رحمه الله واحداً من العلماء القلائل الذين وقفوا في وجه الباطل، ولم يمنعهم مانع من منازلته وهدم بنيانه من الأساس.

كان الشيخ جريئاً في الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، دأبه دأب العلماء العاملين في كل زمان ومكان، يدل لذلك كتابه القيم: «الأدلَّة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»؛ فقد نازل فيه جميع طوائف الملحدين، وتحداهم، وأبطل أصولهم، وفنَّد مزاعمهم، وهدم قواعدهم، وزلزل بنيانهم، وبين مخالفتهم للعقل والفطرة والحكمة كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة.

كما وقف كالطَّود الشامخ في مواجهة القصيمي الذي أعلن الحرب على الله وعلى عباده، وخصَّ منهم العلماء، فانبرى له الشيخ، وألف رسالته القيمة. «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»، وبين فيها ضلال الرجل وثناءه على أعداء الله وتقربه لهم ومقته وسخريته بعباد الله المؤمنين، وخصوصاً أهل الصلاح والدين والعلم.

وكان الشيخ موفَّقاً أيما توفيق في هذين الكتابين اللذين كانا درعاً حصيناً لأهل الخير، وسهماً صائباً لأعداء الله وأعداء عباده الصالحين.

يقول الشيخ رحمه الله في معرض حديثه عن العلماء والمتعلمين: «.. ومن أهم ما يتعيَّن على أهل العلم معلِّمين أو متعلِّمين: السعي في جمع كلمتهم، وتأليف القلوب على ذلك، وحسم أسباب الشر والعداوة والبغضاء بينهم، وأن يجعلوا هذا الأمر نصب أعينهم؛ يسعون له بكل طريق؛ لأن المطلوب واحد، والقصد واحد، والمصلحة مشتركة، فيحققون هذا الأمر بمحبَّة كل من كان من

---

(١) الفتاوى السعدية ص٦٢٨.

أهل العلم.. ولا يدعون الأغراض الضارَّة تملكهم وتمنعهم من هذا المقصود الجليل..»[١].

وقال في موضع آخر: «... فالموفَّق تجده.. ناصحاً لأئمة المسلمين؛ من ولاتهم، وعلمائهم، ورؤسائهم؛ في محبة الخير لهم، والسعي في إعانتهم عليه قولاً وفعلاً، ومحبة اجتماع الرعية على طاعتهم، وعدم مخالفتهم الضارة، وناصحاً لعامة المسلمين، يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه ويسعى في إيصال النفع إليهم بكل ممكن، ويصدق ظاهره باطنه وأقواله أفعالُه..»[٢].

ويقول عنه محمد الفقي: «.. وعرفت أنه اكتسب عزة النفس وكرامتها التي سمت به أن يأكل لقمة العيش من الدين وباسم الدين، وإنما كان يأكلها من كده وكسبه الطيب بالكدح لها من أسبابها الأخرى. عرفت فيه أنه اكتسب العزة والكرامة، فخاف الوظائف، وأبى قيودها؛ ليبقى عزيز النفس كريماً يصدع بكلمة الحق ويقولها للناس، ابتغاء وجه ربه فهي أنجح وأربح وأقوى وأسعد، وهي كذلك الحياة الطيبة التي اختارها الله تعالى لرسله ولمن اصطفى من أتباعهم الذين يحرصون على سلوك سبيلهم على بصيرة وهدى من الله...»[٣].

هكذا كانت جرأته في قول الحق، لا يخاف أحداً إلا الله، يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، لكن متى تطلب الأمر صراحة وصرامة وقوة، فحسبك به.

ولهذا كان الكثيرون يأتون إليه ويخبرونه ببعض المنكرات، فيقوم الشيخ مباشرة بدوره في مكاتبة الجهات المعنية، ومناصحة الأفراد، حتى تتم إزالة المنكر.

---

(١) الفتاوى السعدية ص٦٣٢.
(٢) الفتاوى السعدية ص٦٣٤.
(٣) سيرة العلامة ابن سعدي ص٤٠.

وبهذا الأسلوب الفريد كسب ثقة الجميع، وأحبَّه الناس كلهم؛ من تعامل معهم ومن لم يتعامل معهم ممَّن سمعوا ثناء الناس عليه.

وليت العلماء وطلاب العلم يقومون بهذا الأمر على وجهه الصحيح، ويتعاونون فيما بينهم، ويومها لا تقوم للباطل قائمة، ويعلو الحق، ويقوى جانب الخير، ويومذاك يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو القوي العزيز.

قوة ذكائه وحفظه:

اشتهر الشيخ السعدي رحمه الله بقوة الحافظة والذكاء، ولهذا؛ فكل من يذكره يشير إلى هاتين الميزتين العظيمتين، وناهيك بمَن وظَّفهما بالعلم والتحصيل، ولذا سهل على الشيخ حفظ القرآن صغيراً، حيث حفظه وعمره إحدى عشرة سنة.

يقول عنه تلميذه البسام رحمه الله: «... فأقبل على العلم بجد ونشاط وهمة وعزيمة، فحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب قبل أن يتجاوز الثانية عشرة من عمره...»(١).

ويقول عنه تلميذه القاضي: «... وكان يحفظ كثيراً من المتون العلمية، وإذا استشهد بها؛ رأيته يهذُّها هذّاً؛ لأنه كان يتعاهدها دائماً، وكان واسع الاطِّلاع في فنون عديدة، ففي كل فنٍّ نقول: هذا فنُّه المختصُّ به..»(٢).

ويقول في موضع آخر: «.. وعنده قوة ذاكرة وحفظ وجواب حاضر يندهش منه سامعه ومن قرأ عليه أو تلمح مؤلفاته القيمة بأن له ذلك من فصاحة وبيان وجزالة لفظ، فإنه البحر الذي لا ساحل له.

يقر له الفضل من كان منصفاً ... إذا قال قولاً كان بالقول أمثلا»(٣)

لقد اشتهر كثير من علماء السلف بهاتين الخصلتين: الذكاء والحفظ،

---

(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٣.

(٢) روضة الناظرين ١/ ٢٢٢.

(٣) روضة الناظرين١/ ٢٢٦.

ومن أنعم الله بهما عليه؛ انتفع بهما نفعاً عظيماً ونفع الله به نفعاً كثيراً، وقل أن تجد عالماً اشتهر في الأزمنة المتأخرة دون أن تكون فيه هاتان الخصلتان، نسأل الله الكريم من فضله.

حسن منطقه:

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: دمث الأخلاق، لطيف المعشر والمحضر، ينساب حديثه العذب إلى النفوس، فيجذبها إليه جذباً قوياً.

وكان حديثه ممتعاً، لا يملُّه السامع، مهما يطول درسه؛ فإنك تجد تلاميذه لا يملُّون، ولهذا نجح على يديه كثير من الطلاب الناجحين والمحصِّلين[(١)].

يقول عنه تلميذه القاضي: «... وكان له صوت حسن رخيم، لا يملُّه سامعه، كما كان يختم المجلس بقراءة القرآن؛ لحسن صوته وجودة قراءته»[(٢)].

ويقول عنه في موضع آخر: «... ويستنبط من الحديث إذا أخذ يتكلم عليه فوائد لا تجيء على البال، ويفسر القرآن ارتجالاً، وعنده قوة ذاكرة وحفظ وجواب حاضر يندهش منه سامعه»[(٣)].

هكذا كان الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ يبهر سامعه، في حسن حديثه، وترتيبه، وكثرة استشهاده، واستطراده، وسياقه للقصص التي تجذب المستمع وتجعله يصغي بكليته إلى محدثه.

ولقد أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ بقسط وافر مما ينبغي أن يكون عليه المعلم؛ من تفاعل مع طلابه، وشحذ لهممهم، وتدريب لهم، لتعظم استفادتهم في أقل الأوقات وأيسر الجهود.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلما «وتعليما»، فإذا شرع المعلم في مسألة؛ وضحها وأوصلها إلى أفهام المتعلمين

---

(١) سيرة العلامة ابن سعدي.
(٢) روضة الناظرين ١/ ٢٢١.
(٣) روضة الناظرين ٢/ ٢٢٦.

بكل ما يقدر عليه من التعبير وضرب الأمثال والتصوير والتحرير، ثم لا ينتقل عنها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلمين...»[١].

ويقول في موضع آخر: «... وينبغي تعاهد محفوظات المتعلمين ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان والحث على المذاكرة والمراجعة وتكرار الدرس، فإن التعلم بمنزلة الغرس للأشجار، والدرس والمذاكراة والإعادة بمنزلة السقي لها وإزالة الأشياء الضارة عنها لتنمو وتزداد على الدوام...»[٢].

سمو أخلاقه ولين جانبه:

كان الشيخ السعدي رحمه الله: كريم الأخلاق، حسن السجايا، يتودد للقريب والبعيد، يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه، لين الجانب، يتحدث مع الصغير والكبير، كل حسب عقله وإدراكه.

يقول عنه تلميذه القاضي: «.. وكان رحمه الله ذا دعابة، يتحبب إلى الخلق بحسن خلقه، مرحاً للجليس، لا يرى الغضب في وجهه، طلق الوجه، كريم المحيا... يتكلم مع كل فرد بما يناسب حاله، ويدفع للفقراء من الطلبة الأموال ليتجردوا عن الانشغال في وسائل معينة...».

ويقول: «.. وكان متواضعاً، يسلم على الصغير والكبير، ويجيب الدعوة، ويزور المرضى، ويشيع الجنائز..»[٣].

أما شفقته على الفقراء وحدبه على الغرباء ومساعدته لهم بحسب طاقته واقتداره، فحدث عن البحر ولا حرج.

وأما عفته وأدبه ونزاهته وحزمه ونباهته، فقد سارت بها الركبان[٤].

يقول عنه تلميذه البسام رحمه الله: «... وكان لا ينقطع عن زيارتهم ـ أهل بلده ـ في بيوتهم ومشاركتهم في مجتمعاتهم...»[٥].

---

(١) الفتاوى السعدية ص٦٣٠.
(٢) الفتاوى السعدية ص٦٣١.
(٣) روضة الناظرين ١/ ٢٢٤.
(٤) سيرة العلامة ابن سعدي ص١٢.
(٥) علماء نجد ٢/ ٤٢٤.

المبحث الثامن

ثروته ومورد رزقه

نشأ الشيخ السعدي في أسرة فقيرة، فقد كان والده رحمه الله فقيراً، ومع ذلك قدَّر الله ـ وله الفضل والمنة ـ أن يعيش المترجم له يتيماً، إذ ماتت أمه وله من العمر أربع سنوات، ومات والده وله من العمر سبع سنوات، وقد تولت تربيته زوجة والده، فأحسنت القيام عليه، وأحبته أكثر من أولادها، فنشأ نشأة صالحة، ثم تعاهده أخوه الأكبر حمد، حيث أوصى والده به أخاه الأكبر، وكان حمد رجلاً صالحاً حافظاً للقرآن، فهيأ الجو للشيخ عبد الرحمٰن، وأخذ ينفق عليه، ويدفعه لحلقات العلم، فظهرت علامات الزهد وأمارات الذكاء والنجابة عليه وهو صغير، ففرح أخوه حمد، واستمر في مشواره معه؛ ينفق عليه، ويجعله لا يحتاج إلى شيء، ومتى تهيأ الجو الصالح ورزق الشخص ذكاء وحفظاً؛ تيسر التحصيل بإذن الله تعالى.

وقد كان أهل الخير في ذلك الزمن وقبله ـ ولا يزالون ـ ينفقون على المنقطعين على طلب العلم، وتلك خصلة طيبة، إذ طلب العلم يحتاج إلى شيء من التفرغ عن شواغل الحياة وملهياتها.

ثم إن للشيخ عبد الرحمٰن أخاً من أمه، هو حمد القاضي، وكان تاجراً أنعم الله عليه، فأخذ يبعث لأخيه الأموال التي يقسمها على الفقراء والمساكين، ولا شك أنه كان يخصص لأخيه شيئاً من هذه الأموال.

وبهذا تهيأ للشيخ المترجم له الجو المناسب لطلب العلم، وأتته الدنيا منقادة رغم أنفها، فأخذ منها بقدر، وكان منها على حذر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.



المبحث التاسع

معايشته لقضايا العالم الإسلامي

هناك كثيرون من العلماء في عالمنا الإسلامي، ولكن العلماء الذين يجمعون بين فقه النصوص وفقه الواقع قليلون، ولعل من هؤلاء علامة القصيم الشيخ ابن سعدي، حيث كان يعيش هموم العالم الإسلامي، وقد ظهر ذلك جلياً في كتاباته في الصحف والمجلات داخل المملكة وخارجها، وفي خطبه التي كان يخصصها لأحداث العالم الإسلامي.

فقد خطب الشيخ عن العدوان الثلاثي على مصر الذي قامت به كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، ولكل منها هدف من العدوان، فعرف الشيخ هذه الأبعاد، وخطب الناس خطبة الجمعة في هذا الموضوع، ورفع الناس معه أكف الضراعة إلى الله أن يحمي القوة الإسلامية، وأن ينصر المسلمين، ويرد كيد الكافرين.

وقد استجاب الله من المسلمين، فخطب الشيخ السعدي في جمعة ثانية مهنئاً ومبشراً ومذكراً بقول الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].



المبحث العاشر

مصادر علمه وخصوصاً فقهه

سبق وأن ذكرنا طرفاً من شيوخه الذين تلقى على يديهم، ولكي نعرف المصادر التي استقى منها الشيخ ابن سعدي؛ لا بد أن نقف على طريقة التعليم وقت تلقيه للعلم، وهي الطريقة العامة التي كانت سائدة في عصره، حيث كانت حلقات العلم عامرة، يتصدر كل عالم حسب الفن الذي تخصص فيه.

وقد تلقى ابن سعدي في هذه الحلقات علوم التفسير والحديث والفروع والعقائد والفرائض وعلوم العربية، وكان له القدح المعلى في كل هذه الفنون.

ولما شبَّ ابن سعدي عن الطوق؛ أدخل على هذا الأسلوب أساليب أخرى في التعليم تناسب العصر، وقد أكد على هذا في الكثير من كتبه ومن ذلك قوله:

«. . . التعليم له طرق كثيرة، سوى طرق التعليم في المدارس على اختلاف أنواعها، وسوى طرق تعليم الطلبة المستعدون للتعليم في أوقات مرتبة وعلى طرائق مختلفة، هؤلاء المتعلمون هم المستعدون للترقي في العلم بحسب ما يسَّر الله لهم من طرق التعليم النافعة بحسب قرائحهم وأذهانهم، وهم الذين يرجى أن يبلغوا مبلغاً يكونون المرجوع إليهم، وأن يكونوا معلمين بعدما كانوا متعلِّمين»[١].

لقد كان الشيخ ابن سعدي حريصاً على التلقي من مصادر كثيرة، حيث لازم حلقات متعددة، وسافر للتحصيل، ويسر الله له بعض العلماء المارين بعنيزة، فلازمهم، واستفاد منهم، وكان حريصاً على تحصيل شتى الفنون،

(١) الرياض الناضرة ص١٠٠ ـ ١٠١.

ولكن ميله كان للفقه، حيث خلف فيه المؤلفات الكثيرة، وبرع فيه، وأبدع في اجتهاداته التي يعضدها الدليل القوي.

ولذا نراه يرشد طلاب العلم إلى السعي للتحصيل والجد والاجتهاد، فيقول: «... اعلم أنه يتعين على طالب العلم ان يسعى جهده لتحصيل ما يحتاجه من الفهم وتشتد إليه ضرورته مبتدئاً بالأهم فالأهم؛ قاصداً بذلك وجه الله، يعتقد أن درسه ومدارسته وبحثه ومباحثته ونظره ومناظرته وتعلمه وتعليمه طريق يوصله إلى ربه ويحتسب به ثوابه...»[1].

يقول عنه تلميذه البسام رَحِمَهُ اللَّهُ: «... واشتغل بالعلم على علماء بلده والبلاد المجاورة لها ومن يرد إلى بلده من العلماء، وانقطع للعلم، وجعل كل أوقاته مشغولة في تحصيله؛ حفظاً، وفهماً، ودراسة، ومراجعة، واستذكاراً، حتى أدرك في صباح ما لا يدركه غيره في زمن طويل...»[2].



(١) مقدمة المختارات الجلية ص٧.

(٢) علماء نجد ٢/ ٤٢٣.

المبحث الحادي عشر

مذهبه

كان الشيخ ابن سعدي ذا معرفة تامة بالفقه أصولاً وفروعاً، وقد كان في أول أمره متمسكاً بمذهب الإمام أحمد رحمه الله، وكان له الاطلاع الواسع على مؤلفات الفقه الحنبلي.

وكان ذا إدراك باهر واطلاع واسع على كتب الخلاف في هذا المذاهب، وقد حفظ بعض المتون فيه، وله مؤلف في الفقه على طريق النظم للمسائل، يتكون من أربع مئة بيت على مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

يقول عنه تلميذه البسام رحمه الله: «... وما إن تقدمت به الدراسة شوطاً، حتى تفتحت أمامه آفاق العلم، فخرج عن مألوف بلده من الاهتمام بالفقه الحنبلي فقط إلى الاطلاع على كتب التفسير والحديث والتوحيد وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه رحمهما الله وتلميذه ابن القيم التي فتقت ذهنه ووسعت مداركه، فخرج عن طور التقليد إلى طور الاجتهاد المفيد، فصار يرجح من الأقوال ما رجحه الدليل وصدقه التعليل...»(١).

وقد ألف الشيخ ابن سعدي كتاب: «المختارات الجلية»، ذكر فيها بعضاً من المسائل التي ترجحت عنده بعد بحثها والنظر في أدلتها، ومعظم هذه المسائل على خلاف ما ترجح عند بعض الحنابلة، لكن دليلها عند الشيخ قوي، فرأى رجحانها.

وقد تبين مسلكه في تتبع هذه المسائل، فقال في مقدمة هذا الكتاب: «.. واعلم أنه يتعين على طالب العلم أن يجتهد ويحرص في كل مسألة من

---

(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٤.

مسائل الدين والأحكام على تصورها وتحريرها وتفصيلها وحدها وتفسيرها، ثم يسعى في إدراك ما بُنيت عليه من الدليل والتعليل الراجح لمعاني الكتاب والسنة وأصولهما. . .»[١].

وقال في موضع آخر: «. . قد تكرر السؤال من بعض الأصحاب على وضع كتاب في فقه أصحابنا من الحنابلة على وجه يتضح به ما نختاره ونصححه من المسائل الفقهية، ونشير إلى شيء من مآخذها وأدلتها. . .»[٢].

ثم بدأ في ذكر ما ترجح لديه، مرتباً المسائل حسب أبواب الفقه عند الحنابلة، وقد جعل هذه المختارات استدراكاً على «شرح الزاد»؛ لأنه أكثر الكتب شيوعاً بين يدي طلاب العلم.

وقال في باب الطهارة: «الصواب أن الماء نوعان: طهور مطهر ونجس منجس. . الصحيح أن الدباغ مطهر لجلد ميتة المأكول. . . والصحيح أنه لا يكره استقبال النيرين وقت قضاء الحاجة. . .»[٣].

«وبعد أن أدرك الشيخ ابن سعدي وبلغ مبلغ العلماء وأخذ يجتهد ويرجح، كاتب علماء الأمصار ومفكري الآفاق في جديد المسائل وعويصات الأمور، حتى صار لديه جرأة وجسارة على محاولة تطبيق بعض النصوص الكريمة على بعض مخترعات هذا العصر وحوادثه. . .»[٤].

لكنه مع نزعته للاجتهاد، لم يخرج في الغالب عن ترجيحات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله إلا في القليل.



---

(١) المختارات الجلية ص٧.

(٢) المختارات الجلية ص٥.

(٣) المختارات الجلية ص٩ ـ ١٥.

(٤) علماء نجد ٢/ ٤٢٤.

المبحث الثاني عشر

نظرته للعلم والعلماء

تواترت نصوص الكتاب والسنة على: فضل العلم، وشرفه، وفضل أهله، وأن كل شيء يفتقر إليه، وأن الناس كلهم في الظلمات إلا من استنار بنور العلم، وجعل الله طريق الجنة والصراط المستقيم مركباً من العلوم النافعة ومن الأعمال الصالحة.

وقد أكد العلامة ابن سعدي مكانة العلم والعلماء، ووجه طلاب العلم إلى بلوغ المكانة السامية، وأرشدهم إلى الترقي في درجات العلم وبلوغ أعلى المراتب فيه، وحذرهم من المقاصد الدنيئة أو الأطماع القريبة، وتناول هذه القضية في العديد من كتبه.

ومن أوضح ذلك قوله: «... العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يصحبك في دورك الثلاث: في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد.. الجهل داء قاتل والعلم حياة ودواء نافع، حاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، والاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات وأجل القربات، مذاكرة العلم تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته توجب رضى العباد، لولا العلم؛ لكان الناس كالبهائم في ظلمات الجهالة، ولولا العلم؛ لما عرفت المقاصد والوسائل، ولولا العلم؛ ما عرفت البراهين على المطالب كلها ولا الدلائل، العلم هو النور في الظلمات، وهو الدليل في المتاهات والشبهات، وهو المميز بين الحقائق، وهو الهادي لأكمل الطرائق، بالعلم يرفع الله العبد درجات، وبالجهل يهوي إلى أسفل الدركات..»[(١)].

---

(١) الرياض الناضرة ص٦٩ و٧٠ و٧٣.

وقال في موضع آخر موجهاً المعلمين مناصحاً لهم: «... وعلى المعلم النصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التعليم والصبر على عدم إدراكه وعلى عدم أدبه وجفائه مع شدة حرصه وملاحظته لكل ما يقومه ويهذبه ويحسن أدبه، لأن المتعلم له حق على المعلم، حيث أقبل على الاشتغال بالعلم الذي ينفعه وينفع الناس، وحيث توجه للمعلم دون غيره، وحيث كان ما يحمله من العلم عن المعلم هو عين بضاعة المعلم، فيحفظها وينميها ويتطلب بها المكاسب الرابحة؛ فهو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له... والحذر الحذر من التعصب للأقوال والقائلين... فإن التعصب مذهب للإخلاص مزيل لبهجة العلم معم للحقائق فاتح باب الحقد والخصام الضار، كما أن الإنصاف هو زينة العلم وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح... ثم الحذر الحذر من طلب العلم للأعراض الفاسدة والمقاصد السيئة من المباهاة والمماراة والرياء والسمعة، وأن يجعله وسيلة للأمور الدنيوية والرياسة...»[1].



(١) الفتاوى السعدية ص٦٢٥ و٦٢٩.

المبحث الثالث عشر

تأثره بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم

الناظر في سيرة العلامة السعدي يتحقق أن من أعظم مشايخه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، رغم المسافة الزمنية الطويلة التي تربو على ستة قرون، فقد أقبل ابن سعدي على مؤلفات هذين الإمامين الجليلين إقبالاً منقطع النظير، فاستوعب كل ما حوته كتبهما من التحقيق العظيم في علوم السلف وحسن التوجيه والإرشاد، وحصل له بذلك سعة علم؛ خاصة في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وسواها من العلوم النافعة، وقد أكد ذلك معظم من ترجم للشيخ، وخصوصاً طلابه الذين تعلموا على يديه ونهلوا من معين حلقاته الفياضة.

يقول عنه تلميذه البسام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم التي فتقت ذهنه ووسعت مداركه، فخرج من طور التقليد إلى طور الاجتهاد المقيَّد، فصار يرجح من الأقوال ما رجحه الدليل وصدقه التعليل...»[(١)].

ويقول تلميذه القاضي: «.. ولقد أكبَّ على المطالعة في كتب الفقه والحديث طيلة حياته؛ خصوصاً على كتب الشيخين ـ ابن تيمية وابن القيم ـ؛ فقد كانت له صبوحاً وغبوقاً...»[(٢)].

ويقول ابنه عبد الله: «... وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحصل له خير كثير بسببهما في علم

(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٤.

(٢) روضة الناظرين ١/ ٢٢١.

الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة...»[١].

ولقد أثنى الشيخ ابن سعدي على الشيخين كثيراً في ثنايا كتبه الكثيرة، ونوه بما لهما من باع طويلة في التحقيق والتدقيق للمسائل العلمية.

ومن ذلك قوله في مقدمة كتابه: «طريق الوصول»: «... أما بعد؛ فإن لما كانت كتب الإمام الكبير شيخ الإسلام والمسلمين تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية بن عبد قدس الله روحه، جمعت فأوعت؛ جمعت جميع الفنون النافعة والعلوم الصحيحة، جمعت علوم الأصول والفروع، وعلوم النقل والعقل، وعلوم الأخلاق والآداب الظاهرة والباطنة، وجمعت بين المقاصد والوسائل، وبين المسائل والدلائل، وبين الأحكام وبيان حكمها وأسرارها، وبين تقرير مذاهب الحق والرد على جميع المبطلين، وامتازت على جميع الكتب المصنفه بغزارة علمها وكثرته وقوته وجودته وتحقيقه، بحيث يجزم من له اطلاع عليها وعلى غيرها أنه لا يوجد لها نظير يساويها أو يقاربها. وقد يسر الله الوقوف على كتبه الموجودة، فتتبعت ما وجدته في كتب هذا الإمام من الأصول والقواعد والضوابط النافعة، وأثبتها في هذا المجموع، ونقلتها بعبارات مؤلفها، إلا شيئاً يسيراً منها أوجب تغيير بعض الألفاظ...».

وقال في موضع آخر: «.. ولما كان شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية قد سلك مسلك شيخه المذكور بالتحقيق للعلوم الأصولية والفروعية والظاهرة والباطنة، وكان أعظم من انتفع بشيخ الإسلام، وأقومهم بعلومه، وأوسعهم في العلوم العقلية والنقلية؛ أحببت أن أنقل من كتبه من الأصول والقواعد والضوابط والفوائد الجلية، وأتبعها لهذا الكتاب...»[٢].

وقال في: «المواهب الربانية»: «... ولا يخفى لطف الباري في وجود

---

(١) سيرة ابن سعدي ص٢١.

(٢) طريق الوصول ص٣و٤ و٢٣٥.

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أثناء قرون هذه الأمة، وتبيين الله به وبتلامذته من الخير الكثير والعلم الغزير وجهاد أهل البدع والتعطيل والكفر، ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات؛ فلا شك أن هذا من لطف الله لمن انتفع بها، وأنه يتوقف خير كثير على وجودها؛ فلله الحمد والمنة والفضل..»[١].

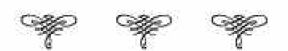
وقال في رسالته: «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»: «... ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعاً وعقلاً شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فإنه بين عدة وجوه في فسادها وبطلانها، كل وجه منها كافٍ في إبطالها؛ فكيف إذا اجتمعت...»[٢].

وقال في قصيدة نونية عصماء يثني على الإمامين، ويذكر بفضلهما وفضل كتبهما:

«يا طالباً لعلوم الشرع مجتهداً ... يبغي انكشاف الحق والعرفان
احرص على كتب الإمامين اللذيـ ... ـن هما المحك لهذه الأزمان
العالمين العاملين الحافظيـ ... ـن المعرضين عن الحطام الفاني

إلى أن قال:

أعني به شيخ الورى وإمامهم ... يعزى إلى تيمية الحرَّاني
والآخر المدعو بابن القيم ... بحر العلوم العالم الرباني
فهما اللذان قد أودعا في كتبهم ... غرر العلوم كثيرة الألوان
فيها الفوائد والمسائل جمعت ... من كل فاكهة بها زوجان»[٣]



(١) المواهب الربانية ص٧٣.
(٢) الأدلة القواطع ص٧.
(٣) الفتاوى السعدية ص٦٥٠.

المبحث الرابع عشر

شيوخه

تلقى المترجم له العلم على كثير من العلماء الذين برزوا في عصره، سواء منهم من كان في بلده عنيزة، أو من مرَّ عليها من العلماء، أو من سافر لهم الشيخ في أماكنهم وتلقى عليهم.

وكان محل إعجاب جميع مشايخه؛ لما توسموا فيه من فرط الذكاء وأمارات النجابة.

وكان رحمه الله معترفاً بالفضل لأهله، إذ كان كثيراً ما يثني على مشايخه، ويدعو لهم، ويصفهم بالورع والتقى والزهد والصلاح؛ كما سيأتي تفصيله في تراجمهم الموجزة إن شاء الله.

ولست في هذا المقام أحصر من تلقى عنهم العلم، بل أذكر أبرزهم، ممن ثبت لي بالتتبع أنه تلقى عليهم، وقد يكون هناك الكثيرون ممن تلقى عليهم ولم أطلع على ذلك، وفوق كل ذي علم عليم.

ومن مشايخه البارزين(١):

١ ـ إبراهيم بن حمد بن جاسر:

ولد عام ١٢٤١هـ في بريدة، ونشأ فيها، وقرأ على علمائها ومشايخها، ثم تولى القضاء في عنيزة من عام ١٣١٨هـ إلى عام ١٣٢٣هـ، ثم القضاء في بريدة من عام ١٣٢٤هـ إلى عام ١٣٢٦هـ، ثم سافر إلى الزبير وبصحبته مجموعة من أعيان أسرة آل بسام، ورجع منها إلى نجد عام ١٣٢٩هـ، وجلس في بريدة يدرس، وبعد فترة أصيب بمرض، فسافر للعلاج، ولكن المنية أدركته

(١) رتبت هؤلاء الأعلام حسب الأبجدية.

في الكويت عام ١٣٣٨هـ، وقيل: عام ١٣٤٢هـ[١].

وكان من أبرز طلاب الشيخ إبراهيم عبد الرحمٰن السعدي، وكان من أول من قرأ عليه في علم الحديث والمصطلح والأصول والفروع والتفسير.

وقد وصف ابن سعدي شيخه بالحفظ العظيم للحديث النبوي الشريف، وكان كثيراً ما يتحدث عما وهبه الله من الورع والصلاح والتقوى والحدب على الفقراء ومواساة البؤساء، فكثيراً ما كان يقصده الفقير البائس في اليوم الشاتي، فيخلع عليه أحد ثوبيه، هذا مع شدة حاجته إليه، ومع قلة ذات يده.

٢ - إبراهيم بن صالح بن إبراهيم القحطاني:

ولد في بلدة أشقير في شهر شعبان من عام ١٢٧٠هـ، ونشأ نشأة حسنة كريمة بتربية أبوية كريمة، وحفظ القرآن، وجوده عن ظهر قلب، وشرع في طلب العلم بهمة ونشاط ومثابرة، فقرأ على أعيان علماء الوشم، ثم رحل إلى سدير، فقرأ على علمائها، ثم رحل إلى الأحساء والحجاز والزبير، وطوَّف بلاداً كثيرة، حرصاً على طلب العلم وتحصيله، حتى أدرك بعض مبتغاه، وكان موفقاً في طلب العلم، يجمع بين الحرص والجد والمثابرة، وهذه من صفات طالب العلم المنتفع.

وبعد أن أدرك وحصل؛ جلس للتعليم في عنيزة، فاستفاد منه خلق كثير، وكان من أبرزهم الشيخ ابن سعدي، الذي قرأ أصول الدين.

وقد كان ابن سعدي رحمه الله معجباً بشيخه؛ يثني عليه، ويذكر له براعته في التاريخ والأدب.

وقد توفي الشيخ إبراهيم شيخ السعدي في مدينة عنيزة في يوم السبت الثامن من شهر شوال من عام ١٣٤٣هـ رحمه الله رحمة واسعة[٢].

---

(١) علماء نجد ١/ ١٠٠٢، وروضة الناظرين ١/ ٤١.

(٢) علماء نجد ١/ ١٧٣ وروضة الناظرين ١/ ٤٤ ومشاهير علماء نجد ص٢٨٥.

٣ ـ صالح بن عثمان القاضي:

ولد الشيخ صالح في شهر ربيع الأول من عام ١٢٨٢هـ، وقد رباه والده أحسن تربية، ثم تولى تربيته أخواه حمد ومحمد، وقد قاموا بما عهد إليهم أتم قيام، فحفظ القرآن عن ظهر قلب، وتعلم القراءة والكتابة، وبدأ يطلب العلم حتى فاق فيه الأقران، وأصبح إماماً لا يشق له غبار، وقد توفي رحمه الله في عام ١٣٥٠هـ.

ومن أبرز تلاميذه عبد الرحمٰن السعدي، حيث قرأ عليه التوحيد والتفسير والفقه بأصوله وفروعه وعلوم العربية.

وقد لازمه ابن سعدي ملازمة تامة، حتى توفاه الله، وكان هو الذي يقرأ على الشيخ في الدروس، والشيخ يقرر على قراءته، بدأ القراءة على الشيخ بعد وفاة عبد عزيز الغدير الذي كان يقرأ على الشيخ، وكان ابن سعدي له صوت حسن رخيم لا يمله سامعه، كما كان يختم المجلس بالقراءة؛ لأنه كان ملازماً له في مجالسه عند الخاصة والعامة؛ لأن مجالس العلماء لا تخرج عن العلم؛ قراءة، وتعليماً، وتطبيقاً، وتوجيهاً، وإرشاداً[1].

٤ ـ صعب بن عبد الله بن صعب التويجري:

ولد في بريدة سنة ١٢٥٣هـ، ونشأ نشأة حسنة، ورباه والده فأحسن تربيته، وقرأ القرآن وجوده ثم حفظه عن ظهر قلب، ثم شرع في طلب العلم، وأخذ عن ثلة من المشايخ في القصيم، ثم رحل إلى بعض البلاد النجدية والحجازية، حتى حصل الكثير.

وكان له تلاميذ من أبرزهم عبد الرحمٰن السعدي، وكان التلميذ يثني على شيخه ويقول: إنه من أفضل أهل زمانه، وحسبك شهادة من أمثال ابن سعدي لهذا العالم الجليل.

وقد درس عليه الفقه وأصوله واستفاد منه كثيراً، خصوصاً في رحلته من بريدة إلى عنيزة، حينما جلس للتدريس.

(١) روضة الناظرين ١/ ٢٢١.

وقد توفي الشيخ صعب في بريدة في الخامس والعشرين من محرم سنة ١٣٣٩هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته[١].

٥ ـ عبد الله بن عائض العويضي الحربي:

ولد في عنيزة عام ١٢٤٩هـ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في بلده، ثم رحل إلى مكة المكرمة لطلب العلم، فقرأ على علمائها، مع اشتغاله بنسخ الكتب العلمية للكسب، فأجاد القرآن الكريم والعلوم العربية.

وقد عمل إماماً وقاضياً وواعظاً في بلده عنيزة، وتولى التدريس وقتاً طويلاً، وتعلم على يديه الكثير من طلاب العلم، ومن أشهرهم وأبرزهم الشيخ السعدي، حيث تعلم على يديه الفقه وأصوله وعلوم العربية.

وقد توفي الشيخ عائض ضحى يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر شوال عام ١٣٢٢هـ في عنيزة، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته[٢].

٦ ـ علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد السناني:

ولد في عنيزة عام ١٢٦٣هـ، ونشأ في بلده التي ولد فيها، وكان والده عالماً، وقد توفي وولده علي في دور الطفولة، وقد نشأ الفتى محباً للعلم، راغباً فيه، وقرأ على علماء بلده ومن مر بها، وجد في تحصيل العلم، حتى أدرك الشيء الكثير، ثم تولى إمامة أحد الجوامع، وأخذ يعظ ويدرس، وهذا هو الطريق الأمثل للتعلم والتعليم وحفظ الوقت، وقد عرض عليه القضاء أكثر من مرة، ولكنه كان يرفض؛ إيثاراً للسلامة والعافية.

وكان من أخص طلابه الشيخ السعدي، حيث تعلم على يدي الشيخ أصول الدين.

توفي الشيخ السناني في عنيزة في العشرين من شوال عام ١٣٣٩هـ، رحمه الله وجعله في المهديين[٣].

---

(١) علماء نجد ٢/ ٣٧٩، وروضة الناظرين ١/ ١٥١.

(٢) علماء نجد ٢/ ٥٦١.

(٣) علماء نجد ٣/ ٧٣٣.

٧ ـ علي بن ناصر بن محمد أبو وادي:

ولد في عنيزة عام ١٢٧٣هـ، ونشأ بها، وقرأ على علمائها، ثم سافر داخل البلاد النجدية والحجازية، وبعدها رحل إلى الهند، وأخذ عن علمائها، وخصوصاً علماء الحديث وحفظ الصحاح والمسانيد، وبرع في ذلك.

وبعد أن عاد إلى عنيزة أصبح إماماً لأحد مساجدها، وجلس للتعليم والتدريس، فأقبل عليه الطلاب من كل مكان، وحرصوا على إجازته؛ ليتصل ذلك بعلماء الهند.

وكان من أبرز تلاميذه الشيخ السعدي، الذي أخذ عنه الصحاح الستة، وأجازه فيها وفي غيرها، وأخذ عنه التفسير وأصوله، وأصول الحديث، وكان ملازماً له، ومنتفعاً منه، وهكذا حال التلميذ مع شيخه، إذا حرص على الملازمة، وصاحب ذلك حرص وجد مثابرة؛ أدرك ما لم يدركه أترابه.

وقد طال عمر الشيخ أبو وادي، حتى عجز عن الذهاب إلى المسجد في آخر عمره، ووافته منيته في شهر شعبان عام ١٣٦١هـ، ودفن في بلده عنيزة رحمه الله وجعله من عباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[١].

٨ ـ محمد الأمين محمود الشنقيطي:

ولد في شنقيط في موريتانيا سنة ١٢٨٩هـ، وتعلم في بلاده، وأجاد علوم العربية، ثم رحل إلى البلاد الحجازية، وأقام بالمدينة النبوية، وقد وصفه بعض المؤرخين بالرحالة السلفي، وقد وفد الشنقيطي من المدينة إلى عنيزة عام ١٣٣٠هـ، وأقام بها سنوات، وذلك حينما طلب الأمير علي باشا السعدون ـ أحد أمراء العراق ـ من الشيخ علي بن عبد الله البسام أن يجيء إليه من المدينة النبوية بعالم مالكي المذهب؛ ليكون إماماً وخطيباً ومدرساً للجامع الذي أنشأه في بلدة الزبير، فاختار الشيخ الشنقيطي لذلك، وعرض عليه، فوافق وسافر من المدينة إلى الزبير؛ مروراً بعنيزة.

---

(١) علماء نجد ٣/ ٧٣٨.

وقد تسنى للشيخ السعدي أن يتعلم على يديه، ولازمه ملازمة تامة، وأخذ عنه التفسير والحديث ومصطلحه وعلوم العربية كالنحو والصرف وغيرها، وأخذ عنه إجازة بالرواية، وكان ذلك من فضل الله على ابن سعدي، حيث هيأ له قدوم هذا العالم السلفي دون سفر أو تعب.

وقد توفي الشنقيطي في الزبير صباح الجمعة الرابع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٥١هـ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته[١].

٩ ـ محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن مانع:

ولد في عنيزة عام ١٣٠٠هـ، ولما بلغ السابعة، أدخله والده كتاباً ليتعلم القرآن، وكان والده مريضاً إذ ذاك، وهو قاضي عنيزة، وبعد أيام توفي والده، فقرأ القرآن كله، وحفظ بعضه، ثم اشتغل بطلب العلم، فقرأ مختصرات العلوم الشرعية والعربية، ككتاب: «التوحيد»، و«دليل الطالب»، و«بلوغ المرام»، ثم سافر إلى بغداد وقرأ هناك على ثلة من علمائها، وبعدها سافر إلى مصر وقرأ على مشايخ الأزهر، ثم إلى دمشق ولازم علماءها فترة من الزمن، ثم عاد إلى العراق ولازم مشايخه السابقين، واستفاد منهم كثيراً.

كان طموحاً، حريصاً على الاستفادة من وقته، فحصَّل الكثير في الزمن اليسير، وقد رزقه الله قوة في الحفظ ونشاطاً في الطلب وسرعة في الاستعاب؛ مما أهله أن يكون في صف العلماء الكبار.

وكان من أعماله التي تولاها:

١ ـ رئاسة النادي العلمي في البحرين، الذي أنشأه المحسن مقبل الذكير لتحرير المقالات ونشر الأبحاث التي ترد على المستشرقين والنصارى.

٢ ـ وفي عام ١٣٣٤هـ طلبه حاكم قطر من المملكة، فذهب هناك، وتولى القضاء والتدريس والفتوى والخطابة، واستقرَّ هناك ما يزيد على عشرين عاماً.

---

(١) مشاهير علماء نجد ص٣٩٢، وعلماء نجد ٢/ ٣٧١.

٣ ـ وفي عام ١٣٥٨هـ عاد إلى المملكة بطلب من الملك عبد عزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، وتولى التدريس بالمسجد الحرام والمدارس الحكومية.

٤ ـ تولى رئاسة هيئة تمييز الأحكام الشرعية وهيئة الأمر بالمعروف وهيئة الوعظ والإرشاد.

٥ ـ عين في عام ١٣٦٥هـ مديراً عاماً للمعارف، وبعدها أسندت إليه رئاسة دار التوحيد.

٦ ـ وفي عام ١٣٧٤هـ، طلبه حاكم قطر، وأسند إليه الإشراف على التعليم وإصلاح مناهجه، وكان من آثار ذلك طبع العشرات من الكتب النافعة التي كان له الفضل بعد الله في نشرها.

لقد قضى الشيخ ابن مانع حياته المديدة في طلب العلم وتعليمه، فأخذ عنه التلاميذ من مختلف منطقة الخليج، وتوافدوا إليه من عمان والإمارات والكويت والمنطقة الشرقية، وكان من أخص تلاميذه الشيخ ابن سعدي، الذي أخذ عنه علوم العربية واستفاد منه كثيراً، حيث طوف ابن مانع في كثير من البلاد العربية، وأخذ عن فطاحلتها في اللغة، فاستفاد من ذلك ابن سعدي دون عناء أو تعب.

ولقد خلف ابن مانع مجموعة كبيرة من التآليف، تشهد بغزارة علمه، ووفرة تحصيله.

وفي آخر حياته أصيب الشيخ ابن مانع بمرض البروستات، فأجريت له عملية جراحية في أحد مستشفيات بيروت، لكن حالته الصحية أخذت في التدهور، حتى وافاه الأجل المحتوم في اليوم السابع من شهر رجب سنة ١٣٨٥هـ في بيروت، ونقل جثمانه إلى قطر، فصلي عليه هناك، ودفن فيها، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة[١].

(١) علماء نجد ٣/ ٨٢٧.

١٠ ـ محمد بن عبد كريم بن إبراهيم بن صالح الشبل:

ولد في عنيزة عام ١٢٥٧هـ، وأخذ في صباه وأول شبابه مبادئ القراءة والكتابة، ثم سافر من بلده إلى مكة، وأخذ عن علمائها، وبعدها سافر إلى مصر والشام والعراق والكويت والحرمين الشريفين، واجتمع بعلماء هذه الأمصار، وأخذ عنهم، وأجازوه، وأثنوا عليه كثيراً، ثم عاد إلى عنيزة وأكمل دراسته وتعلمه على مشايخها، حتى أدرك الشيء الكثير، وأصبح عالماً لا يشق له غبار.

وقد رغب عن المناصب، وزهد فيها، حيث عرض عليه القضاء والإمارة لبلدة عنيزة، فرفض، واختار إمامة مسجد الجوز والتدريس والتعليم وإلقاء الدروس العامة وتنشئة التلاميذ، وقد وفق في ذلك إلى حد كبير، وكان من أبرز تلاميذه وأكثرهم أخذاً عنه الشيخ السعدي، حيث أخذ عنه الفقه وأصوله وعلوم اللغة العربية وغيرها.

ولقد استفاد ابن سعدي من شيخه كثيراً، ولازمه، فحصل في الزمن اليسير ما لم يحصله أترابه في الزمن الطويل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وبقي الشيخ الشبل يدرس ويعلم ويوجه ويرشد حتى وافاه الأجل المحتوم في عنيزة عام ١٣٤٣هـ، رَحِمَهُ اللَّهُ وأسكنه فسيح جناته[١].

١١ ـ محمد بن عبد الله بن حمد بن محمد بن سليم:

ولد في بريدة عام ١٢٤٠هـ، ونشاء وتعلم في كتاتيبها مبادئ القراءة والكتابة، ثم حبب إليه العلم، فشرع في القراءة على علماء القصيم، ولازمهم ملازمة تامة، ثم رحل إلى الرياض، وأخذ عن علمائها، ثم إلى شقراء وأخذ عن علمائها، ولم يزل في الجد والاجتهاد والتحصيل حتى أدرك إدراكاً تاماً، خصوصاً في العلوم الشرعية والعلوم العربية.

---

(١) علماء نجد ٣/ ٨٤٣.

وبعد ذلك عاد إلى عنيزة، وأخذ يدرس ويعلم ويوجه ويرشد، لكن حدث بينه وبين محمد الصالح أبو الخيل بعض الخلاف، فغضب عليه محمد، وأكد على أمير بريدة أن يخرجه منها، فرحل إلى عنيزة، فأكرموه، وتزوج منها، وجلس فيها للتدريس والتعليم، وكان يحرص كل الحرص على كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، ولذا اشتهر بسعة الاطلاع وقوة الحجة، وكان من أبرز تلاميذه الشيخ السعدي الذي أخذ عنه التوحيد وغيره، واستفاد منه العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

وقد توفي الشيخ ابن سليم عام ١٣٢٣هـ في بريدة، رحمه الله رحمة واسعة(١).

وبعد؛ فهؤلاء هم أبرز مشايخ ابن سعدي.

وبهذا نعرف مكانة الشيخ، وغزارة علمه، وكثرة تحصيله، حيث تعلم على يد هؤلاء وغيرهم ممن تخصصوا في شتى العلوم والفنون، وهذا ما أهله أن يدرك ما لم يدركه أترابه، حيث توفر له ثلة من المشايخ، وصاحب ذلك جدٌّ واجتهاد ونية صالحة وعزيمة صادقة، ومتى توفر ذلك للشخص؛ انتفع ونفع بإذن الله.

ولذا ليس غريباً أن نرى هذه المؤلفات الكثيرة لابن سعدي، بل وليس غريباً أن نرى طليعة العلماء والقضاء في هذا الوقت من تلاميذه وممن درسوا عليه، وهذا يتبين في المبحث التالي إن شاء الله.



(١) علماء نجد ٣/ ٨٧٢.

المبحث الخامس عشر

تلاميذه

تعلم على يد ابن سعدي تلاميذ كثيرون، قد لا يستطيع الباحث حصرهم، لكنني حرصت على الاطلاع على ما كتب عن الشيخ، وسألت مجموعة من أبرز تلاميذه لمحاولة حصر أكبر عدد منهم، ومع ذلك لم أصل إلى النتيجة المرضية.

وقد وقفت على حوالي خمسين من طلابه ممن تقلدوا مناصب علمية كبيرة ومناصب قضائية عالية، وكان لهم إسهام وافر في الحركة العلمية التي نشهدها ولله الحمد، ومن أبرز هؤلاء(١):

١ ـ إبراهيم بن عبد عزيز الغدير:

ولد في عنيزة في جمادي الأولى من عام ١٣٢٢هـ، ونشأ نشأة حسنة، ورباه والده تربية صالحة؛ لأن والده من طلبة العلم، وهو القارئ في جامع عنيزة الكبير، لأنه كان ذو صوت حسن رخيم، وقد توفي والد إبراهيم، ثم تولاه أخوه الأكبر عبد الرحمٰن، فدفعه لطلب العلم، وحثه عليه، وشجعه على التحصيل، وكفاه مؤنة العيش، فأقبل بجد واجتهاد، ولازم شيخه ابن سعدي من عام ١٣٤٠هـ حتى توفي ابن سعدي عام ١٣٧٦هـ.

خلف شيخه علي أبو وادي في إمامة جامع الجديد بعنيزة، وبعد أن افتتح المعهد العلمي، رشح مدرساً فيه عام ١٣٧٣هـ، إلى أن أحيل على المعاش عام ١٣٨٣هـ، واستمر في التعليم والتوجيه والوعظ حتى وافاه الأجل

---

(١) رتبت هؤلاء على الأبجدية قدر المستطاع، علماً أن بعضهم لم أستطع معرفة اسمه كاملاً، وأكون شاكراً وداعياً لمن دلني على غير هؤلاء وزودني بما لم أقف عليه.

المحتوم في يوم عيد الفطر عام ١٤٠١هـ، رحمه الله رحمة واسعة[1].

٢ ـ إبراهيم بن محمد العمود:

ولد في عنيزة عام ١٣٢٤هـ، وتربى على يد والده تربية حسنة، وقرأ القرآن، وحفظه عن ظهر قلب، وشرع في طلب بهمة عالية ونشاط ومثابرة، فقرأ على خاله عبد الرحمٰن بن سعدي، ولازمه زمناً في الفقه والحديث، واستفاد منه كثيراً، حتى ذهب مع ثلة من المشايخ إلى اليمن للوعظ والإرشاد، وذلك عام ١٣٥٤هـ، ثم تعين قاضياً في عسير، ثم تولى القضاء في الدمام عام ١٣٦٣هـ، ثم نقل قاضياً في الرياض عام ١٣٨٠هـ، حتى أحيل على المعاش عام ١٣٨٢هـ، وتفرغ للعبادة، وأخذ ينتقل بين الرياض والحرمين للتزود من التقوى، حتى وافاه الأجل المحتوم في ١٨ من جمادى الآخرة عام ١٣٩٤هـ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته[2].

٣ ـ حمد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن القاضي:

ولد في عنيزة عام ١٣٢٣هـ، ونشأ نشأة حسنة، وقرأ القرآن وحفظه عن ظهر قلب، وتعلم مبادئ العلوم والكتابة وغيرها في المدرسة، ثم شرع في طلب العلم، فقرأ على علماء عنيزة، ومن أشهر مشايخه الشيخ ابن سعدي، حيث لازمه ملازمة تامة، وقرأ عليه الأصول والفروع والحديث والفرائض، وكان حريصاً على الاستفادة والتحصيل، فثابر وجد واجتهد، حتى أدرك الكثير.

وفي سنة ١٣٦٧هـ طلب منه الشيخ ابن عودان أن ينوب عنه في قضاء عنيزة مدة غيابه في الرياض، فامتنع الشيخ حمد تورعاً.

وفي سنة ١٣٧٠هـ تعين مدرساً ثم مديراً لمدرسة أم تلعة الابتدائية بالبدايع، ثم تقلب في التعليم، حتى أحيل للمعاش عام ١٣٨٦هـ، وتفرغ

---

(١) روضة الناظرين ١/ ٥٨.

(٢) روضة الناظرين ١/ ٥٦.

للعبادة والتعليم والتوجيه، وكان يتعامل بالبيع والشراء، وقد كسب الناس في حسن تعامله، واستمر على هذه الحال إلى أن مرض في شهر ربيع الأول سنة ١٣٩٥هـ، ولزم الفراش، وامتد مرضه بجلطة دموية أفقدته شعوره في عنيزة، فنقله أولاده إلى المستشفى المركزي بالرياض، وتوفي فيه مساء يوم الجمعة الموافق ١٦ من شهر ربيع الأول من عام ١٣٩٥هـ، ودفن في الرياض بعد أن صلي عليه، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته[١].

٤ ـ حمد بن عثمان الخويطر:

ذكره ضمن تلاميذ الشيخ ابن سعدي صاحب: «روضة الناظرين»[٢].

٥ ـ حمد الصغير القاضي بمدينة الرس:

ذكره ضمن تلاميذ الشيخ السعدي صاحبا «علماء نجد» و«روضة الناظرين»[٣].

٦ ـ حمد بن محمد البسام:

درس في معهد عنيزة العلمي، ثم في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، كان هو القارئ على الشيخ في الدرس.

ذكره ضمن تلاميذه صاحبا «علماء نجد» و«روضة الناظرين»[٤].

٧ ـ حمد بن محمد المرزوقي:

ولد في عنيزة عام ١٣٤٦هـ، فتربى تربية حسنة، فقرأ القرآن وحفظه عن ظهر قلب ولما يبلغ الخامسة عشرة، ثم شرع في طلب العلم بهمة ونشاط ومثابرة، ودرس على كبار تلاميذ ابن سعدي، ثم انضم إلى حلقة شيخه ابن

---

(١) روضة الناظرين ١/ ٩٦.
(٢) روضة الناظرين ١/ ٢٢٣.
(٣) علماء نجد ٢/ ٤٢٨، وروضة الناظرين ١/ ٢٢٢.
(٤) علماء نجد ٢/ ٤٢٦، وروضة الناظرين ١/ ٢٢٢.

سعدي، حيث قرأ عليه الأصول والفروع والحديث والتفسير، وحصل الكثير، ولما افتتح المعهد العلمي في عنيزة؛ التحق به عام ١٣٧٣هـ، ثم تخرج فيه، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرج فيها عام ١٣٨٠هـ، ثم تعين مدرساً بمعهد حايل العلمي، واستمر فيه أربع سنوات، ثم انتقل إلى معهد النور بعنيزة، فدرس فيه حتى عام ١٤٠٥هـ، ثم انتقل عام ١٤٠٦هـ إلى متوسطة فلسطين بعنيزة، وأخيراً أحيل على التقاعد عام ١٤٠٦/١٤٠٧هـ، نفع الله به حيثما وجد، ووفقه لخيري الدنيا والآخرة.

٨ ـ سليمان بن إبراهيم البسام:

ولد في عنيزة في ٢٧ صفر عام ١٣٢٨هـ، وتربى على الصلاح والتقى، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب، ثم اشتغل منذ صغره بالعلم، فقرأ على الشيخ ابن سعدي في الفقه والحديث والتفسير، ولازمه ملازمة تامة، فكان لا يغيب عن درس من دروسه إلا نادراً، وجدَّ واجتهد حتى أدرك، لا سيما في الفقه؛ فقد تردد في القراءة والبحث في كتب المذهب، حتى بلغ في فهمها واستحضار دقائق مسائلها شأواً بعيداً.

يقول عنه تلميذه عبد الله البسام: «وفي ظني أنه حين وفاته كان أفقه زمانه في مذهب الإمام أحمد بن حنبل، هذا مع استقامة وصلاح وحسن خلق وتواضع وطيب عشرة، أما غير الفقه الحنبلي؛ فله يد في بقية العلوم الشرعية»[(١)].

وقد عين قاضياً فرفض، ثم عين مدرساً في معهد عنيزة، واستمر حتى وفاته، حيث أصيب بضغط الدم، فسافر للعلاج في ٧/١٢/١٣٧٦هـ، ومر بالعراق ولبنان وسوريا، ثم عاد إلى بلده، ووافاه الأجل المحتوم صحوة يوم ١٤/٣/١٣٧٧هـ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

(١) علماء نجد ١/ ٢٧٤.

٩ ـ سليمان بن صالح البسام:

من خواص الشيخ ابن سعدي المقربين عنده، ولهذا صار له يد طولى في العلوم الشرعية والعلوم العربية، واطلاع واسع على التاريخ الجاهلي والإسلامي، ومعرفة بأنساب العرب القديم منها والحديث، يحفظ الكثير من الأشعار، يعتبر من أعيان عنيزة، ويتعاطى بالتجارة، لكنها لا تشغله عن العلم والأدب والبحث؛ اطلاعاً، وتعليماً، ومناقشة، بل يعطي كل ذي حق حقه.

١٠ ـ سليمان بن عبد الرحمٰن الدامغ:

له اطلاع على علوم العربية، درس على الشيخ ابن سعدي، وذكره تلاميذه صاحبا «علماء نجد» و«روضة الناظرين»[(١)]، عين إماماً لمسجد الجزيرة بعنيزة، ودرس في مدارس الرياض فترة، له ميول لغوية.

١١ ـ سليمان بن محمد الشبل:

ولد في عنيزة عام ١٣١٢هـ في بيت علم وشرف ودين، وتربى على يد أبيه تربية حسنة، وكان أبوه فقيهاً محدثاً، أخذ معلوماته من الهند والشام والحجاز، فنشأ ولده سليمان في كنفه نشأة صالحة.

قرأ القرآن وحفظه على مقرئ في عنيزة، ثم ما لبث أن حفظه عن ظهر قلب وجوده، وأخذ يراجع فيه أباه، فكانا يختمان معاً كل ثلاث ليال، وكان قوي الحافظة.

طلب العلم وهو يافع، ومن أبرز مشايخه والده ثم الشيخ ابن سعدي، حيث لازمه ودرس عليه الأصول والفروع والحديث، ولازمه حتى سافر للحجاز، وهناك درس على علماء الحرمين، وكان ذلك سنة ١٣٤٧هـ، ثم سافر إلى الهند وأخذ عن علمائها الحديث والمصطلح، ثم إلى العراق وأخذ عن علماء الحنابلة فيها الفقه، ثم رجع إلى مكة وتعين مدرساً وتنقل بين مدارسها ومدارس الطائف، وأخيراً استقر به المطاف مدرساً في عنيزة، ومكث فيها عشرين سنة.

---

(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٧، وروضة الناظرين ١/ ٢٢٢.

كان ذكيًا، نبيهاً، واسع الاطلاع، يؤثر الخمول، ولا يحب الشهرة، وصولاً للرحم، محباً لمجالس أهل الخير والصالحين.

امتاز رحمه الله بإخلاص في عمله، وحسن التعليم والتوجيه، واستمرت هذه حاله حتى وافاه أجله المحتوم سنة ١٣٨٦هـ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته[(١)].

١٢ ـ صالح بن عبد الله الزغيبي:

ولد في عنيزة عام ١٣٠٠هـ، ونشأ نشأة صالحة، وتربى على يد أبيه، قرأ القرآن واستظهره، ثم حفظه عن ظهر قلب، ثم شرع في طلب العلم بهمة ونشاط ومثابرة، فقرأ على ثلة من علماء عنيزة، ومنهم الشيخ ابن سعدي، مع أنه زميل له، لكنه استفاد منه كثيراً في المراجعة والمذاكرة، وهذا هو التواضع المحمود.

كان نبيهاً، قوي الحفظ، سريع الفهم، آية في الورع والزهد والتقوى والاستقامة في الدين، وكان يؤانس جليسه، حديثه محبب للنفس، ومجالسه مجالس علم وأدب، رشح للقضاء فاعتذر تورعاً، ثم عين بأمر الملك عبد عزيز رحمه الله إماماً وخطيباً ومرشداً وواعظاً في المسجد النبوي الشريف، وذلك سنة ١٣٤٤هـ.

كان صوَّاماً، قوَّاماً، يحب المساكين ويحنو عليهم، عزيز النفس، كريماً بما في يده، كثير الوعظ والإرشاد، ولمواعظه أثر كبير في نفوس السامعين.

استمر على هذه الحال حتى مرض في شهر رمضان، ووافاه أجله بالمدينة النبوية في شهر شوال من عام ١٣٧١هـ[(٢)].

وذكر الشيخ البسام أن وفاته سنة ١٣٧٢هـ، فقال: «... وكان زميلاً للشيخ عبد الرحمٰن السعدي في الدراسة، ويكبره في السن، ولكنه عرف تفوق زميله عليه، فصار يأخذ عنه ويتتلمذ له ويستفيد منه».

---

(١) روضة الناظرين ١/ ١٤٧.

(٢) روضة الناظرين ١/ ١٨٤.

«... وقد توفي وهو في عمله ـ إمامة المسجد النبوي ـ بالمدينة المنورة، ودفن في البقيع، في شهر صفر من عام ١٣٧٢هـ...»[١].

١٣ ـ صالح بن محمد الزغيبي:

ذكره ضمن تلاميذ الشيخ ابن سعدي صاحب كتاب: «علماء نجد خلال ستة قرون»، وذكر أنه درس في الثانوية بمكة المكرمة[٢].

١٤ ـ عبد الرحمٰن بن عبد عزيز بن زامل آل سليم:

أحد تلاميذ الشيخ ابن سعدي الأقدمين؛ لأنه يقارب ابن سعدي في السن، ويعد من أعيان مدينة عنيزة، وكان ملازماً لشيخه ابن سعدي وقت الطلب، ولذا كان بينهما محاورات وجلسات أثمرت مناقشات وقصائد، منها القصيدة التي قالها عبد الرحمٰن آل سليم في شيخه عبد الرحمٰن السعدي، ومن أبياتها:

دَعْ عَنكَ ذِكر الهوى واذكر أخا ثقةٍ ... يَدعُو إلى العلم لم يَقْعد بهِ الضجرُ
شَمسُ العُلوم ومن بالفَضْل منتصفٌ ... مفتاحُ خيرٍ إلى الطاعاتِ مُبتكرُ
بَحرُ من العِلْم نالَ العلمَ في صغرٍ ... مع التُّقَى حيثُ ذاكَ الفوزُ والظفرُ
نالَ العُلا يافعاً تَعلو مراتِبُهُ ... ففضلُهُ عندَ كل النَّاسِ مُشتهرُ
بالفقهِ في الدينِ نِالَ الخَيرِ أجْمَعَهُ ... والفقهُ في الدينِ غُصنٌ كُلهُ ثَمَرُ

١٥ ـ عبد الرحمٰن بن محمد السماعيل:

قرأ على الشيخ ابن سعدي الأصول والفروع والحديث والتفسير، ولما افتتح المعهد العلمي بعنيزة؛ انتسب له، ولما نال الشهادة الثانوية من المعهد؛

---

(١) علماء نجد ٢/ ٣٦١.

(٢) انظر في تلاميذ الشيخ السعدي: علماء نجد ٢/ ٤٢٦ وما بعدها، وروضة الناظرين ١/ ٢٢٢ وما بعدها، ومشاهير علماء نجد ص٣٩٣ وما بعدها، وعلماء آل سليم وتلاميذهم ٢/ ٢٩٦ وما بعدها.
وبعض التراجم أخذتها مشافهة من أصحابها أو ممن له صلة بالشيخ وتلاميذه.

التحق بكلية الشريعة عن طريق الانتساب، فخرج فيها عام ١٣٩٢هـ، ثم درس في مصر بمعهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة.

وقد تولَّى التدريس في مدارس عنيزة، ثم عيَّن مديراً لمدرسة الرحمانية، ثم عيَّن موجهاً للتربية الإسلامية بإدارة التعليم بمدينة عنيزة حتى أحيل على التقاعد، وكان يخلف والده في إمامة المسجد والخطابة فيه، وبعد وفاة والده تولى الإمامة والخطابة.

١٦ ـ عبد الرحمٰن بن محمد المقوشي:

درس على الشيخ ابن سعدي فترة من الزمن، وقد عُين قاضياً في الرياض، ثم أحيل للتقاعد.

١٧ ـ عبد الرحمٰن العقيل:

درس على الشيخ ابن سعدي كثيراً من العلوم، ثم عيَّن قاضياً في جيزان.

١٨ ـ عبد العزيز بن سبيل:

عيَّن قاضياً في البكرية، ثم درس بالمسجد الحرام.

١٩ ـ عبد العزيز بن علي بن مساعد العبد المنعم:

ولد في عنيزة عام ١٣٤٦هـ، وتربى تربية حسنة، نشأ في حجر أبيه، وكان والده محباً للعلم وأهله، حفظ القرآن صغيراً، وشرع في طلب العلم بهمة ونشاط، وقد تلقى العلم على يدي الشيخين الفاضلين عبد الرحمٰن بن عودان وعبد الرحمٰن بن سعدي، ولازم الثاني منهما ملازمة طويلة، فقرأ عليه في الأصول والفروع والحديث والتفسير، ولما فتح المعهد العلمي بعنيزة؛ التحق به، فنال الشهادة الثانوية، ثم التحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرج فيها عام ١٣٨٠هـ، ثم درس في معهد الرياض العلمي، ثم معهد عنيزة العلمي حتى أحيل على التقاعد عام ١٤٠٧هـ، وله نشاط واسع في الدعوة إلى الله داخل عنيزة وخارجها.

٢٠ ـ عبد العزيز بن محمد البسام:

تميز من بين طلاب الشيخ ابن سعدي بأنه ينوب عن شيخه إذا غاب في إمامة الناس في الصلاة وفي الخطابة يوم الجمعة.

٢١ ـ عبد العزيز بن محمد السلمان:

أحد العلماء البارزين الذين أثروا المكتبة الإسلامية في الوقت الحاضر وخصوصاً في مجال الوعظ والإرشاد، وله كتب ذات انتشار كبير، قلمه سيال بالتأليف، سلك طريق شيخه السعدي بكثرة المؤلفات، له تعليقات فريدة في الفقه والتوحيد، طبعت بعض كتبه ما يزيد على عشرين طبعة، من أبرز مؤلفاته: «الأسئلة والأجوبة الفقهية» و«التنبيهات على العقيدة الواسطية» و«موارد الظمآن» وغيرها كثير مما انتفع به المسلمون ولا يزالون، جزى الله الشيخ خير ما يجزي عباده الصالحين.

وقد عمل الشيخ لفترة طويلة مدرساً بمعهد إمام الدعوة العلمي، ثم تقاعد وتفرغ للعلم والتعليم والتأليف.

٢٢ ـ عبد الله بن حسين آل بريكان:

درس في معهد عنيزة العلمي.

٢٣ ـ عبد الله بن عبد الرحمٰن بن صالح البسام:

عضو هيئة التمييز وعضو هيئة كبار العلماء، وله مشاركات فعالة في كثير من المجالس والمؤتمرات، له باع طويل في التأليف، أبرز مؤلفاته وأنفعها: «تيسير العلام» في الحديث، وقد انتفع منه صغار طلاب العلم نفعاً عظيماً في بداية طلبهم، وكذا «نيل المآرب» في الفقه في مجلدين، وهو من أحسن الكتب الحديثية التي اعتنت بالدليل والتعليل وترجيح العلماء المعاصرين، له دروس منتظمة في المسجد الحرام، وهي من أنفع الدروس؛ لغزارة المادة العلمية، وحسن العرض، وقد حضرتها لسنوات متعددة، وخصوصاً في شهر رمضان.

٢٤ ـ عبد الله بن عبد الرحمٰن بن محمد البسام:

تميز عن زملائه طلاب الشيخ ابن سعدي بأنه أفضلهم في إعادة الدرس بعد أن يلقيه شيخه ويطلب من الطلاب إعادته.

٢٥ ـ عبد الله بن عبد الرحمن بن ناصر السعدي:

ابن الشيخ عبد الرحمٰن، وكان ذا عناية فائقة بطبع مؤلفات والده وجمعها وعرضها على بعض العلماء، وقد ترجم لوالده ترجمة موجزة، نشرت بعد وفاة والده، وذيلت في كثير من كتبه.

٢٦ ـ عبد الله بن عبد العزيز الخضيري:

درس في أول حياته على الشيخ ابن سعدي، ثم عُيِّن قاضياً، فاستمر فيه سبع سنوات مثالاً للورع والزهد والنزاهة، ولما فتح المعهد العلمي بالرياض؛ ألحَّ بطلب الإعفاء من القضاء، فأعفي منه، وعُين مدرساً في معهد الرياض العلمي عام١٣٧٣هـ، ثم انتقل إلى معهد شقراء العلمي، فمعهد بريدة العلمي، وهناك لازم الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، ودرس عليه، ثم نُقل إلى معهد المدينة العلمي، ولازم علماء المدينة، وخصوصاً الشيخ عبد العزيز بن باز والعلامة محمد الأمين الشنقيطي.

كان حسن الأخلاق، محبوباً للخاص والعام، قد انعكست عليه أخلاق الصالحين والعلماء والعاملين، واستمر في المدينة حتى وافاه أجله عام ١٣٩٣هـ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

٢٧ ـ عبد الله بن عبد عزيز الشبيلي:

ولد في عنيزة عام ١٣٣٨هـ، ونشأ نشأة صالحة، حيث ربَّاه والده وتعاهده حتى حفظ القرآن، ثم نشأ محباً للعلم وأهله، ولذا رغب في الانضمام لحلقة شيخه ابن سعدي، فانضمَّ إليها، ولازم ابن سعدي ملازمة تامَّة، وقرأ عليه في الأصول والفروع والحديث والتفسير والعربية، ثم رشح للتدريس في معهد عنيزة العلمي عام ١٣٧٦هـ في السنة التي توفي فيها شيخه،

واستمرَّ فيه حتى أُحيل على التقاعد عام ١٤٠٤هـ، وكان له نشاط ملموس في الدعوة، حيث كان إماماً وخطيباً في أحد مساجد عنيزة.

٢٨ ـ عبد الله بن عبد العزيز العقيل:

استفاد من شيخه الكثير، ونقل آراء شيخه إلى بعض المحافل العلمية، تدرَّج في مناصب كثيرة، كان آخرها مجلس القضاء الأعلى، حتى طلب الإحالة على التقاعد، جلست معه ذات مرة، فكان وفيّاً لشيخه؛ يثني عليه كثيراً، ويحضر المناسبات التي لها صلة بحياة شيخه العلمية؛ كمناقشة الرسائل العلمية وغيرها.

٢٩ ـ عبد الله بن عبد العزيز المطوِّع:

ولد في عنيزة عام ١٣١٢هـ تقريباً، ونشأ نشأة صالحة، فتربَّى على يد أبيه، وحفظ القرآن، وجوَّده، ثم شرع في طلب العلم بهمَّة ونشاط، ولازم شيخه ابن سعدي ملازمة تامَّة، فقرأ عليه في الأصول والفروع والتفسير والحديث، وتنقَّل داخل الديار النجديَّة والحجازية يطلب المزيد من العلم، حتى أدرك الكثير.

وقد أوذي كثيراً بسبب حبه وإخلاصه لدعوة التوحيد، حتى سُجن في الحجاز، لكنه هرب، وكانت له مواقف في حياة الملك عبد العزيز، ولذا أحبَّه وقرَّبه وأمر بعلاجه من إصابة حصلت له في إحدى المعارك، فسافر للعلاج في البحرين، ثم رجع ولازم الفراش حتى وافاه أجله المحتوم في حدود عام ١٣٥٤هـ، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة.

٣٠ ـ عبد الله بن محمد الصيخان:

نشأ في عنيزة، وقرأ على علمائها، ومن أبرز مشايخه عبد الرحمٰن بن سعدي، حيث لازمه سنين طويلة، وقرأ عليه في أصول الدين والفروع والحديث والتفسير وعلوم العربية، وقد لازمه حتى توفي، ولما افتتح المعهد العلمي بالرياض؛ التحق به، ثم انتقل إلى معهد عنيزة عام ١٣٧٣هـ، وتخرج

فيه، ثم التحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرج فيها، وكان نابغة متفوِّقاً على زملائه.

عيِّن قاضياً في الطائف عام ١٣٨٠هـ، ثم مدرساً بالمعهد العلمي بشقراء، ثم مدرساً بمعهد الرس العلمي، ثم معهد عنيزة العلمي، ثم نقل إلى مدرسة تحفيظ القرآن الكريم.

كان يحفظ كثيراً من المتون، مغرماً بالاطلاع، لا يكاد يمل من القراءة، لديه مواهب وقدرات كبيرة، مرض عام ١٤٠٠هـ، وسافر للعلاج، لكن المنية عاجلته عام ١٤٠١هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

٣١ ـ عبد الله بن محمد العوهلي:

درس في معهد مكة العلمي.

٣٢ ـ عبد الله بن محمد الفهيد:

كان إماماً لمسجد القاع في عنيزة.

٣٣ ـ عبد الله بن محمد المطرودي:

اشتهر بأنه كان يحفظ «صحيح البخاري» بأسانيده.

٣٤ ـ علي بن محمد الصالحي:

له نشاط واسع في نشر رسائل شيخه، وهو صاحب مطبعة النور، وكل إليه الشيخ رحمه الله تدريس صغار الطلبة.

قدم الكثير من رسائل شيخه، وأبرزها إلى الوجود، فانتفع بها خلائق كثيرون.

٣٥ ـ علي بن زامل آل سليم:

له عناية كبيرة بالعربية، حتى إنه يقال: إنه أعلم أهل زمانه بالنحو، عُيِّن مدرساً في معهد عنيزة العلمي، ثم عُيِّن أستاذاً غير متفرغ بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، وكان يدرس التفسير حتى تقاعد، ولا

يزال له جهود في التدريس في حلقات العلم، وخصوصاً في علوم العربية.

٣٦ ـ محمد بن سليمان البسام:

كان أخص أصحاب شيخه ابن سعدي، وقد درس في الحرم المكي الشريف فترة من الزمن.

٣٧ ـ محمد بن صالح الخزيم:

قرأ القرآن وجوده ثم حفظه، وبعد ذلك تعلم قواعد الخط والحساب، ثم شرع في طلب العلم على علماء القصيم، وقد لا زمهم ملازمة تامة، وقرأ عليهم في أصول الدين والفروع والحديث والتفسير وعلوم العربية، ثم جلس على ابن سعدي، واستفاد منه كثيراً، حيث كان يمكث الأشهر في عنيزة يحضر دروس ابن سعدي، ولقد أثنى عليه شيخه كثيراً، حيث كان يقول: إن أسئلته واستنتاجاته واستقراءاته تدل على موهبة كبيرة وعقلية مدركة.

وفي عام ١٣٦٨هـ عُيِّن قاضياً في الرس، ثم في المذنب، ثم في عنيزة، وفي كل هذه المدن يؤم الناس ويلقي الدروس ويعقد الحلقات، حتى مرض مرضاً شديداً، وطلب الإعفاء من القضاء، وتفرغ للعبادة والتعليم، حتى توفي عام ١٣٩٤هـ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

٣٨ ـ محمد بن صالح العثيمين:

شيخنا محمد أحد أبرز تلاميذ ابن سعدي، وهو الذي تولى الخطابة بعده، له قدم راسخة في العلم، ودروسه في الجامع الكبير في عنيزة مضرب المثل في الحلقات العلمية الجادة الرصينة، تخرج على يديه مئات الطلاب، له إسهامات وافرة في شتى العلوم والمعارف، تخرج في كلية الشريعة، ثم درس في معهد عنيزة العلمي، ثم عين أستاذاً في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم فعضو هيئة كبار العلماء، له مشاركات إعلامية جادة، خصوصاً في برنامج نور على الدرب، له رسائل كثيرة جداً، وطُبع له مجموعة من الفتاوى والدروس التي ألقاها في الحرم وغيره، له نشاط ملموس في

الدعوة إلى الله، وذلك بإلقاء المحاضرات في كثير من الأحيان، وفي أنحاء المملكة في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ووسطها، حباه الله قوة في الاستدلال، ومهارة في النقاش، وقدرة على استحضار المسائل المتفرقة وجمعها، مما يستطيع به إقناع المقابل بكل يسر وسهولة، له مكانة عظيمة في نفوس طلابه ومحبيه، حتى إنك لا تكاد تجد جامعة أو هيئة علمية إلا وفيها أحد تلاميذه البارزين، له عناية خاصة يمتاز بها على غيره في الدروس، حيث يحرص على استمرارها وعدم قطعها مهما كانت الشواغل والعوائق، طبع له ما يزيد على عشرين ما بين كتاب ورسالة، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

٣٩ ـ محمد بن صالح الفضيلي:

عين قاضياً في تيماء.

٤٠ ـ محمد بن عبد الرحمٰن بن حنطي:

ولد في مدينة شقراء عام ١٣٣٨هـ، ونشأ نشأة صالحة تحت نظر والده وتوجيهه، وقد أكبَّ على كتاب الله منذ نعومة أظفاره في بلدة شقراء، ثم انتقلت الأسرة إلى عنيزة، فواصل تعلمه لكتاب الله وقراءته وحفظه وتجويده، ثم سافر إلى الرياض لطلب العلم، ووجد من والده تشجيعاً منقطع النظير، ومكث في الرياض ست سنوات من عام ١٣٥٤هـ حتى عام ١٣٦٠هـ، ولازم علماء الرياض على أئمة الدعوة في الأصول والفروع والحديث والفرائض، ثم رجع إلى عنيزة عام ١٣٦٠هـ، واتصل بشيخه ابن سعدي، فأعجب بطريقته في التدريس، ولازمه ملازمة تامة حتى عام ١٣٦٧هـ، ثم رجع إلى الرياض، وواصل طلب العلم، حتى التحق بمعهد الرياض العلمي عام ١٣٧٢هـ، ثم تخرج فيه، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرج فيها عام ١٣٨٠هـ.

وبعد تخرجه عين قاضياً في الدرعية مدة أربع سنوات، ثم رغب بالتحول إلى التدريس، فعين مدرساً بمعهد الرياض العلمي حتى عام ١٣٩٥هـ، حيث أحيل على التقاعد، وكانت له إسهامات مباركة في الدعوة والتوجيه وحلقات العلم.

٤١ ـ محمد بن عبد العزيز المطوع:

ولد في عنيزة عام ١٣١٧هـ، ونشأ فيها، وقرأ على علمائها، ثم قرأ على علماء بريدة حتى أدرك الشيء الكثير.

قال عنه صاحب كتاب: «علماء نجد»: «... وكان شغوفاً بمطالعة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكان أجود زملائه في علم التوحيد والعقائد وعلم النحو»(١).

ومن أبرز مشايخه الشيخ عبد الرحمٰن السعدي، حيث لازمه ملازمة تامة، واستفاد منه فائدة كبيرة في التوحيد والتفسير والحديث والفقه والنحو، مما جعل الشيخ ابن سعدي يكلفه بالجلوس لصغار الطلبة لتعليمهم مبادئ العلوم الشرعية، وكان موفقاً فيما أسند إليه، وقد تولى قضاء المجمعة، ثم عنيزة، ثم الخرج، حتى أصيب بمرض ضغط الدم، وسافر إلى لندن للعلاج، وتوفي فيها، ودفن فيها في ١٨/ ٧/ ١٣٨٧هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤٢ ـ محمد بن عبد الله المانع:

ولد في مدينة عنيزة عام ١٣٠٩هـ، وكان بيته بيت علم ودين وصلاح، فنشأ في هذا المحيط الطيب، وشب على الاستقامة والصلاح والرغبة في العلم، ولذا حفظ كثيراً من المتون في صغره، وكان يسردها كما يسرد الفاتحة، وكان ابن سعدي وعثمان القاضي ـ وهما عالمان جليلان من علماء عنيزة ـ من أترابه، فاستفاد منهما فائدة كبيرة، إذ كانت له معهما جلسات ومناقشات، وقد توفي وهو شاب في مقتبل عمره في الوباء الذي أصاب بلاد نجد عام ١٣٣٧هـ، وقد توفي في أيام وفاته زميلان آخران له، هما محمد العبدلي وعبد المحسن السلمان، والثلاثة من أصحاب الشيخ ابن سعدي، فرثاهم بقصيدة طويلة منها:

«ماتَ المحبُّ ومات الخِلُّ يتبعه ... ومَات ثالثُهُمْ والوَقتُ مُقتَربُ

---

(١) علماء نجد ٣/ ٨٣٩.

ماتُوا جَميعاً ومَا مَاتَ فضلُهُمُ بل كان فضلُهُمُ للناس يُكْتَسَبُ
كانوا نجوم دياجٍ يُستضاءُ بهم لهفي على فقدِهمْ من بعدِمَا ذهبوا»

إلى أن قال:

«ما ودعُوني غَداة البينِ إذ رَحَلُوا بَلْ أودعُوا قلبي الأحزانَ وانقَلبوا
شَيعتُهمْ ودُموعُ العَينِ ساكبةٌ لِفقدِهِم وفؤادِي حَشوُهُ لَهبُ»

٤٣ ـ محمد بن عثمان القاضي:

ولد في عنيزة عام ١٣٤٦هـ في بيت علم وشرف ودين، ونشأ نشأة حسنة، ودخل المدارس النظامية في سن مبكرة، وحفظ القرآن وجوَّده، وشرع في طلب العلم بهمة ونشاط، وقد وفق بعلماء أجلاء في عنيزة، ومن أبرزهم والده والشيخ ابن سعدي، حيث لازمه ملازمة تامة، وحصل منه الكثير، ثم لازم الشيخ ابن عثيمين، واستفاد من دروسه وحلقاته، له باع طويل في الأنساب، وله كتاب يعد من أفضل الكتب وأدقها وأشملها، وخصوصاً في قبائل نجد، ولعل من تمام نعمة الله عليه أن وفق في عمل يزيده علماً ويدفعه للقراءة والكتابة والبحث، حيث كان قيماً للمكتبة الصالحية بعنيزة، وإماماً وخطيباً في أحد جوامعها.

٤٤ ـ محمد بن منصور الزامل:

ولد في عنيزة عام ١٣٢٥هـ، ونشأ نشأة صالحة، وتعلم في الكتاب مبادئ القراءة والكتابة، وأقبل على تعلم كتاب الله وحفظه وتجويده، ثم كرس جهده لطلب العلم على الشيخ ابن سعدي، وتعلم على يديه علوم الشريعة من فقه وعقائد وحديث وتفسير، وكانت له عناية خاصة بعلوم العربية، وقد خصَّص جزءً من وقته لمطالعة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد حفظ بعض مؤلفاتهما، كما أنه تميز بعنايته الخاصة بكتب المذهب الحنبلي كـ«المنتهى» و«الإقناع» و«المغني».

وقد عمل مدرساً بمعهد عنيزة العلمي، حتى تقاعد وتفرغ للعلم والتعليم، وكان ابن سعدي إذا غاب عن عنيزة، أنابه في إمامة الجامع الكبير والخطابة فيه، وقد صدر له مؤلف في الخطب استفاد منه الخطباء والدعاة.

٤٥ ـ محمد بن ناصر الحناكي:

ولد في مدينة الرس عام ١٢٩٣هـ، وتربى على يد أبيه تربية حسنة، وقرأ القرآن في الرس حتى حفظه، وتعلم مبادئ الكتابة والحساب، ثم شرع في طلب العلم، وكان من أبرز مشايخه الشيخ ابن سعدي، حيث قرأ عليه في أصول الدين والفروع والحديث والتفسير، ثم رحل إلى الرياض، ولازم علماءها، ثم رجع إلى القصيم، واستزاد في طلب العلم.

وقد ولي قضاء الرس، ثم قضاء الشبيكية، ثم قضاء القويعية، وقد حصلت له عقبات في حياته، حيث وشى فيه بعض أترابه، ولكنه صبر واحتسب، وعوَّض ذلك في طلب العلم والتعليم، وقد أحيل على التقاعد عام ١٣٧٥هـ، ومع أعماله القضائية كان يتولى إمامة الجوامع والخطابة فيها في جميع المدن التي عمل فيها.

٤٦ ـ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل وابنه عبد الله:

ولد الشيخ يوسف في محرم من عام ١٣٠٩هـ، وكان يتدارس مع ابن سعدي القرآن بعد صلاة الفجر، كل يوم جزءان، فإذا طلعت الشمس؛ يتذاكروا في أمور فقهية، وبحثوا أي مسألة واجهتهم، ولعل تقارب السن بينه وبين الشيخ السعدي جعله يحظى بوقت ليس باليسير من وقت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

للشيخ يوسف حاشية على «الروض» هي خلاصة مدارسته الفقهية مع الشيخ السعدي، وفي رمضان من كل عام يتدارسون القرآن في الليل؛ كل ليلة ثلاثة أجزاء، ويحضر معهم هذه المدارسة مجموعة من طلاب العلم؛ منهم: سليمان العلي الزامل، وصالح اليحي السليم، ومحمد بن عبد العزيز المطوع، والأخير يحضر معهم يومي الثلاثاء والجمعة صباحاً لمدارسة القرآن.

وقد توفي الشيخ يوسف عام ١٣٧٣هـ، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة.

٤٧ ـ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل:

وممَّن درس على الشيخ السعدي الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل،

وذلك بين عامي ١٣٦٧هـ و١٣٦٨هـ، وكان ميلاد الدكتور عبد الله عام ١٣٥٥هـ، وقد التحق بالمعهد العلمي بعنيزة، وتخرج فيه، وكذا المعهد العلمي السعودي بعنيزة، ثم التحق بكلية الآداب قسم التاريخ في جامعة الملك سعود، وبعدها حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة الإسكندرية، ثم عمل أستاذاً في كلية العلوم الاجتماعية، ثم أميناً للجامعة، فوكيلاً لها، ولا يزال يعمل وكيلاً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وقت تسجيل هذه المعلومات.

أخذ إجازة في: «صحيح البخاري» من إبراهيم الغدير، وقد أخذ إبراهيم من علي بن ناصر أبو وادي، وكان قد أخذها نذير حسين الدهلوي من أئمة أهل الحديث.

هؤلاء هم بعض تلاميذ الشيخ السعدي، وقد ذكرهم وزاد عليهم الشيخ محمد القاضي في «روضة الناظرين»، فقال: «... والتف إلى حلقاته طلبة كثيرون؛ من أبرزهم: سليمان إبراهيم البسام، وعبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، ومحمد العبد العزيز المطوع، وعبد العزيز السبيل، وسليمان الصالح الخزيم، وعبد الرحمٰن المحمد المقوشي، ومحمد الصالح العثيمين، وعلي المحمد الزامل، ومحمد المنصور الزامل، وعبد الله المنصور الزامل، وحمد المحمد البسام، وعبد الله الحسن البريكان، وحمد الصغير، وعبد الله المحمد العوهلي، ومحرر هذه الأحرف محمد العثمان القاضي، وإبراهيم الغرير، وعبد الله العبد العزيز الخضيري، وعبد العزيز المحمد السليمان، ومحمد السليمان البسام، وحمد إبراهيم القاضي، وعبد الله المحمد الفهيد، وسليمان الصالح البسام، وعبد الله العبد الرحمٰن المحمد البسام، وعبد الله العبد الرحمٰن الصالح البسام، وعبد الله المحمد الصيخان، وعبد الرحمٰن العبد العزيز الزامل، وعبد العزيز المحمد البسام، وعبد الله العبد العزيز الشبيلي، وعبد العزيز العلي المساعد، وسليمان العبد الرحمٰن الدامغ، وابنه عبد الله بن عبد الرحمٰن السعدي، وعبد الله المحمد المطرودي، وسليمان السلمان، وابنه عبد الله السلمان، ويوسف الخرب، وعلي الحمد الصالحي،

وإبراهيم المحمد العمودي، ومحمد الناصر الحناكي، ومحمد العبد الرحمٰن العبدلي، وعبد المحسن السلمان، وسليمان المحمد الشبل، وحمد المحمد المرزوقي، وصالح الزغيبي، وعبد الرحمٰن المحمد السماعيل، ومحمد بن عبد الرحمٰن الحنطي، وأخوه، عبد الله الحنطي، وعبد الله السليمان القاضي، وإبراهيم الخويطر، وجعد العثمان الخويطر وعبد الله العمر العمري، وعبد العزيز إبراهيم الغرير، وعبد العزيز وعبد الله العلي النعيم في آخرين لا يحصرهم العد...»(١).



(١) روضة الناظرين ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
ويلاحظ أن بعض هؤلاء ابتعد عن العلم والتعليم، واشتغل بما هو دون ذلك، بل أصبح من غير المناسب أن ينسب إلى العلم وأهله، وصدق الشاعر إذ يقول:
ولكنَّ البلاد إذا اقشعرَّتْ وصُوِّحَ نبتُها رُعِيَ الهَشيمُ

المبحث السادس عشر

نظمه وشعره

برع في النظم والشعر منذ صغره، فكانت له مساجلات وقصائد في أغراض شرعية، حيث نظم الكثير من الفقه، وفي القواعد الفقهية، وفي الترغيب والترهيب، وفي شرح بعض الأحاديث، وفي الثناء على بعض العلماء والأعلام، وفي بعض الأغراض الاجتماعية والأمور الحادثة، وإليك أمثلة من نظمه وشعره:

* نظم معنى الحديث: «مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل غيث أصاب أرضاً...»، فقال:

قَدْ طالَ شَوقي إلى الأحْباب والفكرُ ... وقَدْ عَراني لذاك السهْمُ والسَّهرُ
انَهضْ إلى العِلم في جسدٍ بِلا كسَل ... نُهوض عبدٍ إلى الخيراتِ يبتدرُ
واصبرْ عِلى نيلِهِ صَبر المُجدِّ لهُ ... فليسَ يَدركُهُ من ليس يَصطبرُ
فكمْ نُصوصٍ أَتَت تثني وتمْدَحُهُ ... للطالبينَ بِها مَعنى ومُعتَبرُ
وفي الحَديثِ أنْ يُرِدْ ربُّ الورى كَرماً ... بِعَبدهِ الخير والمخلوقُ مفْتقِرُ
أعْطاهُ فقْهاً بدينِ اللهِ يَحملُهُ ... يا حَبَّذا نعماً تأتي وتنتصرا
أما سَمِعتَ مثالاً يُستضاءُ بهِ ... ويَستَفِزُّ ذَوي الألباب إن نَظَرُوا
بأنَّ عِلم الهُدى كالغيثِ يُنزلهُ ... على القُلوب فمنها الصفوُ والكدر
أمَّا الرياضُ التي طابت فَقَدْ حسُنَتْ ... مِنها الرُّبى بنباتٍ كُلُّهُ نضرُ
وبَعْضُها سبخ ليستْ بقابلةٍ ... إنْباتَ عُشبٍ بهِ نفعٌ ولا ضَرَرُ»

... إلخ القصيدة

* وقال رحمه الله يمدح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومؤلفاتهما:

«يا طالباً لعُلوم الشَّرع مُجتهداً يَبغي انكشافَ الحَقِّ والعرفانِ
احرصْ عِلى كتب الإمامَيْنِ اللذيْنـ ـن هُما المَحَكُّ لهذهِ الأزمانِ
العالِمَينِ العَامليْنِ الحافِظَيْـ ـن المُعْرضَينِ عَن الحُطامِ الفَاني
أَعْنِي بهِ شيخَ الوَرى وإمامَهُمْ يُعْزى إلى تَيميَّةَ الحَرَّاني
والآخرَ المَدْعُوَّ بابن القَيِّمِ بَحر العُلوم العالم الرَّبَّاني
فهُما اللَّذان قد أودعا في كُتْبهم غُررَ العُلوم كَثيرةَ الألوانِ
فيها الفوائدُ والمسائلُ جُمعَتْ مِن كُل فاكِهةٍ بها زَوجانِ»

. . . إلخ القصيدة.

* وقال يرثي ثلاثة من أصحابه ممَّن عاشوا معه ونهلوا من العلم وتدارسوه فتقاربت وفاة الثلاثة، فأوحشه الأمر، وعبَّر عن لوعته وحزنه بهذه القصيدة:

«مَاتَ المُحب ومَاتَ الخِلُّ يَتبعهُ ومَات ثالِثهُمْ والوَقتُ مُقْتَربُ
مَاتُوا جَميعاً وما مَاتَتْ فضائِلهُم بل كان فَضلُهُمْ للنَّاس يُكتسبُ
كانوا نُجوم دَياجٍ يستضاء بِهِم لهفي عَلى فقدهمْ مِنْ بَعْدِ ما ذَهَبوا»

. . . إلخ القصيدة.

* وقال أول ما ركب السيارة مسافراً إلى الحج:

«يا راحلينَ إلى الحِمىَ برواحِلٍ تَطوي الفَلا والبيدَ طَيَّ المُسْرعِ
ليسَتْ تَبولُ ولا تروثُ وما لَها رُوحٌ تَحِنُّ إلى الرَّبيع المُمْرعِ
ما استولدَتْ مِنْ نُوقنا بَل صُنْعُها مِن بَعضِ تَعْليمِ اللَّطيفِ المُبدعِ
كَم أَوصلت دَارَ الحَبيبِ وكَمْ سَرتْ بِحمولِها نَحوَ الدَّيار الشمعِ»

* ونظم بعض الأبيات في القواعد الفقهية، قال فيها:

«فاحرصْ عَلى فَهمِكَ للقَواعدِ جَامعَةِ المسائلِ الشَّواردِ
فَتَرتقي في العلمِ خَيْرَ مُرتقى وتقتفي سُبُلَ الذي قَدْ وفقا
وهذِهِ قواعدُ نَظمتُها من كُتب أَهل العِلم قد حَصَّلتُها
جَزاهمُ المولى عَظيمَ الأجرِ والعفو مع غُفرانِهِ والبرِّ»

... إلخ القصيدة.

* كما نظم بعض الأحكام الفقهية في رسالة خاصة، ومنها:

«وهـذه مـنـظـومـةٌ قَـصـدي بِـهـا   تـيـسِـرَ أحـكـام قَـدِ اعـتَـنَـوا بـهـا
في فقهِ أحكام تُفيدُ المُبتدي   مِن كُتب أصحاب الإمام أحمدِ
أرجُو مِنَ الرحمٰن تتميماً لَها   في اللفظ والمعنى خَلاصاً لها»

... إلخ المنظومة.

* وله منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة؛ قال فيها:

«سَعدَ الذينَ تَجَنَّبوا سُبُلَ الرَّدى   وتَـيَـمَّـمُـوا لِـمـنـازلِ الـرُّضـوانِ
فهُمُ الَّذين قَدَ اخلصوا في مشيهم   مُـتـشـرعـيـن بـشِـرعـةِ الإيـمـانِ
وهُمُ الَّذين بنوا منازِلَ سيرِهِمْ   بـيـنَ الـرَّجـا والـخَـوفِ لـلـدَّيـانِ»

... إلخ المنظومة[١].



(١) الفتاوى السعدية ص٦٤٧ وما بعدها، ورسالة في القواعد الفقهية ومنظومة في الفقه ومنظومة في السير إلى الله ص١٣ و٦١ و٦٢ و١٣٤ و١٣٥.

المبحث السابع عشر

مرضه ووفاته

أصيب عبد الرحمٰن بن سعدي في آخر حياته بمرض ضغط الدم، وهو مرض خطير، من أكثر أسبابه الإجهاد والتعب، وقد ضرب ابن سعدي في ذلك سهماً وافراً، حيث كان كثير التفكير وإجهاد النفس في المسائل المعضلة والمشكلات المعقدة والقضايا المتعددة؛ يفكر في هذه المسألة، ويكتب جواب تلك، ويبحث عن دليل ثالثة، ويناقش مع تلاميذه جوانب رابعة... وهكذا لا يهدأ له بال، ولا يرتاح له خاطر، بل حياته كلها حياة تعلُّم وتعليم.

ومن كانت هذه حاله في اهتمامه بأمور المسلمين وانصرافه عن الاهتمام بحاله وصحته؛ لا بد أن ينتابه ما ينتاب غيره، ولكن همم الرجال على قدر عقولهم.

ولذا أصيب الشيخ قبل وفاته بخمس سنوات بمرض ضغط الدم، وكان لا بد لعلاجه من السفر خارج عنيزة، فاهتمَّ الملك سعود رحمه الله بأمره، وأرسل له طائرة خاصة نقلته إلى بيروت، فعولج بها، وبقي هناك قرابة الشهرين حتى شفاه الله، وذلك عام ١٣٧٢هـ.

وبعد رجوعه إلى بلد عنيزة، عاود التدريس والإفتاء والتعليم والإمامة والخطابة، وزاول نشاطه العلمي السابق تماماً، رغم نهي الأطباء له عن الإجهاد، وتأكيدهم عليه أن يعطي جسمه قسطاً من الراحة، ولذا أخذ مرض ضغط الدم يعاوده بين الحين والآخر.

وفي سنة ١٣٧٦هـ عاوده المرض، لكنه أحس بالثقل، واستمر معه فترة وجيزة، وفي ليلة الأربعاء ١٣٧٦/٦/٢٢هـ بعد أن صلى العشاء في الجامع الكبير في عنيزة، وبعد أن أملى الدرس المعتاد على جماعة المسجد، أحسَّ

بثقل وضعف حركة، فأشار إلى أحد تلاميذه بأن يمسك بيده ويذهب به إلى بيته، ففعل، لكنه أغمي عليه حال وصوله البيت، ثم أفاق وحمد الله وأثنى عليه وتكلم مع أهله ومن حضرهم بكلام حسن طيب به قلوبهم، وقال لهم: إني طيب؛ فلا تنزعجوا من أجلي. ثم سكت، وعاد إليه الإغماء، فلم يتكلم بعدها حتى توفاه الله.

وفي صباح الأربعاء ١٣٧٦/٦/٢٢هـ دعوا له الطبيب، فقرَّر أنه أصيب بنزيف في المخ، وأشعرهم أنه على خطر، وحثهم على تدارك الأمر وفعل الأسباب، فأبرقوا لسمو ولي العهد آنذاك فيصل بن عبد عزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، فأصدر أمره بإسعافه بكل ما يلزم، فأقلعت طائرة خاصة من مطار الرياض إلى مطار عنيزة، وعلى متن الطائرة طبيب خاص بالمخ لإسعافه بما يحتاجه، لكن قدر الله نافذ، ولا رادَّ لقضائه سبحانه.

ولكِن إذا تم المَدى نَفذ القَضَا وما لامرئٍ عَمَّا قضى اللهُ مَهْرَبُ

فلما وصلت الطائرة مطار عنيزة، حال دون نزولها السحاب الكثيف والأمطار الغزيرة التي لم تشهدها بلدان نجد من قبل، حيث استمرت الأمطار ما يزيد على أربعين يوماً، لم ير الناس فيها الشمس، ولذا لم تستطع النزول في مطار عنيزة، فرجعت من حيث أتت، ثم عادت الطائرة صباح الخميس لعلها تتمكن من الهبوط، لكنها تلقت المكالمة وهي في الجو بنبأ وفاته، فرجعت إلى الرياض.

كانت وفاته قبيل الفجر الخميس الموافق ١٣٧٦/٦/٢٣هـ عن تسع وستين سنة قضاها في العلم والتعليم والتوجيه والتدريس والإمامة والخطابة والتأليف والإفتاء.

وقد أخرت الصلاة عليه إلى صلاة الظهر، لعل أحد أبنائه يدركه، فلم يتمكن منهم أحد؛ نظراً لبعد المسافة، ووجود الأجواء غير الطبيعية من الأمطار والسيول.

وقد صلى عليه خليفته عبد عزيز البسام في الجامع الكبير في حشد كبير لم تشهد له عنيزة مثيلاً من قبل، حيث اجتمع أهلها ومن جاورها من القرى

والهجر والبوادي ومن علم بخبر وفاته، وشيع جثمانه إلى مقابر الشهوانية شمال عنيزة، ودفن هناك، وصلي عليه في مناطق كثيرة صلاة الغائب.

وقد تركت وفاته فراغاً كبيراً، حيث كان المعلم والمرشد والمفتي والموجه والناصح والمشير، يستفيد منه الصغير والكبير، والرجال والنساء.

كانت له صدقات جارية على أسر فقيرة، لم يعلم عنها إلا بعد وفاته، ولقد دخلت أحاديثه كل بيت، فقلَّ أن يوجد بيت في عنيزة إلا ولابن السعدي آثار عليه من قريب أو بعيد، ولا يزال ذكره على الألسن ومحبته في القلوب وأحاديثه وإرشاداته وفتاويه هي حديث المجالس وأنس المحافل، وصدق الشاعر:

فَلَو كانَ يُفدَى بالنفوسِ وما غَلا ... لَطِبنا نُفوساً بالَّذي كَانَ يَطْلِبُ[1]



(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٩، وروضة الناظرين ١/ ٢٢٧.

المبحث الثامن عشر

ثناء العلماء عليه

كان ابن سعدي رحمه الله لا يحب الثناء من الآخرين عليه، ولذا كان ثناء طلابه ومحبيه عليه بعد وفاته، ذلك لما عرفوه من كريم خصاله وجميل فهاله وعظيم سجاياه، وحق لرجل جمع بين العلم والورع والزهد والصدق والإخلاص والحرص على نفع الناس أن يثني عليه العلماء والفضلاء.

ولست هنا بصدد حصر من أثنوا عليه وذكروه ببعض ما يستحق، لكنني أذكر طرفاً من أقوالهم؛ ليستدل بها على الباقي.

١ ـ سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز:

قال: «... كان رحمه الله كثير الفقه والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم، وكان يرجح ما قام عليه الدليل، وكان قليل الكلام؛ إلا فيما تترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً إلا في مسائل العلم، وكان متواضعاً، حسن الخلق، ومن قرأ كتبه؛ عرف فضله وعلمه وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمة واسعة».

٢ ـ الشيخ عبد الرزاق عفيفي:

قال: «... فإن من قرأ مصنفاته ـ ابن سعدي ـ؛ وتتبع مؤلفاته، وخالط وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة، وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شر أو يفضي إلى نزاع أو شقاق، فرحمه الله رحمة واسعة...).

٣ ـ الشيخ محمد بن صالح العثيمين:

قال: «. . . إن الرجل قلَّ أن يوجد مثله في عصره في عبادته وعلمه وأخلاقه، حيث كان يعامل كلاًّ من الصغير والكبير بحسب ما يليق بحاله، ويتفقد الفقراء، فيوصل إليهم ما يسدُّ حاجتهم بنفسه، وكان صبوراً على ما يلم به من أذى الناس، وكان يحب العذر ممَّن حصلت منه هفوة، حيث يوجهها توجيهاً يحصل به عذر من هفا. . .».

٤ ـ الشيخ محمد حامد الفقي:

قال: «. . . لقد عرفت عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المدقق المحقق الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء. .».

وقال: «. . . عرفت فيه العالم السلفي، الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القوية الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القوية الكريمة النقية. . .».

٥ ـ الشيخ عبد الله البسام:

قال: «. . . والقصد أنه صار مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشؤونهم؛ فهو مدرس الطلاب، وواعظ العامة، وإمام الجامع، وخطيبه، ومفتي البلاد وكاتب الوثائق، ومحرر الأوقاف والوصايا، وعاقد الأنكحة، ومستشارهم في كل ما يهمهم. . .».

٦ ـ محمد القاضي:

قال: «. . . وكان واسع الاطلاع في فنون عديدة، ففي كان فن يخوض فيه تقول: هذا فنه المختص به، وهذه مؤلفاته بين أيدي القراء أكبر شاهد على ما ذكرته. . .».

٧ ـ الشيخ عبد الله العقيل:

قال: «... كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ على جانب كبير من مكارم الأخلاق والتواضع، وكان يحترم جلساءه ويوقرهم، وكان كثير التسامح مع أصحابه وغيرهم، ويلتمس العذر لأحدهم مهما كان، وكان يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، ويجيب دعوة من دعاه، يتكلم مع كل أحد بما يناسب حاله، ويحرص على نشر العلم بينهم في مجالسهم، وكان حريصاً على نصح الناس من خلال خطبه المنبرية ومجالسه العلمية، حريصاً على إفتائهم وحل مشاكلهم الدينية والدنيوية، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء...».

٨ ـ الشيخ عبد الرحمٰن العدوي:

قال: «... لقد كان عبد الرحمٰن السعدي من الناحية الدينية هو كل شيء في عنيزة؛ فقد كان العالم والمعلم والإمام والخطيب والمفتي والواعظ والقاضي وصاحب مدرسة دينية له فيها تلاميذ منتظمون...».

٩ ـ الشيخ صالح بن عبد عزيز بن عثيمين:

قال: «... لقد كان الفقيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على جانب كبير من الأخلاق الحسنة، متواضعاً للصغير والكبير، ذا عبادة وزهد وورع، وكان فقيهاً محدثاً واعظاً خطيباً لغوياً أديباً جامعاً لفنون عديدة...».

١٠ ـ الشيخ عبد الرحمٰن الفوزان:

قال: «... أما إفادته العلمية، فيكفيك أنه قد جلس للتدريس والإفتاء وهو في عقده الثالث، حتى تخرج على يديه الكثير من القضاة والمدرسين، ولست بحاجة إلى شاهد؛ فمؤلفاته المنتشرة في جميع الآفاق أكبر دليل على اتساع مداركه وامتداد معارفه، إذ إنها لا تبحث في موضوع واحد وحسب، بل متعددة النواحي، مختلفة الأهداف...».

١١ ـ عبد الرحمٰن بن عبد العزيز بن زامل آل سليم:

قال:

«دَع عَنْكَ ذِكرَ الهوى واذْكُر أخا ثقةٍ ... يدعو إلى العِلمِ لَم يَقعُد بِهِ الضَّجَرُ
شَمْسُ العُلوم ومَن بالفَضْلِ مُتَّصفٌ ... مِفتاحُ خَيرٍ إلى الطَّاعاتِ مُبتكرُ
بَحرٌ مِنَ العِلمِ نَالَ العِلمَ في صغرٍ ... مَعَ التُّقى حيثُ ذاك الفَوزُ والظفرُ
نَالَ العُلا يافعاً تَعلو مَراتِبهُ ... ففَضْلُهُ عِنْد كُلِّ النَّاس مُشتَهرُ
بالفقهِ في الدِّينِ نالَ الخَيْرَ أجمَعَهُ ... والفقهُ في الدينِ غُصْنٌ كُلُّهُ ثَمَرُ»

وهي قصيدة طويلة، اقتصرنا منها على هذه الأبيات[1].



(١) انظر في ثناء العلماء عليه: علماء نجد ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٨، وروضة الناظرين ١/ ٢٢٢، وسيرة ابن سعدي ص٣ و٢٨ و٣٠ ومجلة الجامعة الإسلامية السنة ١١، العدد٤، ص٢٠٧، ومقدمة رسالة الدخان لابن سعدي ص١٠، والشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ص٥٩ ـ ٦٠.

المبحث التاسع عشر

رثاؤه

لقد كانت وفاة علامة القصيم عبد الرحمٰن السعدي خسارة كبيرة، لا لأهل بلده فحسب، ولكن للعالم الإسلامي الذي فقد واحداً من ألمع علمائه وأصدق دعاته، الذين نذروا أنفسهم لخدمة دينهم، وكرَّسوا حياتهم العلمية والعملية لنفع الناس، وقضاء حوائجهم، وغرس الفضائل، ونبذ الرذائل، ولذا بكاه الكثيرون، ورثاه آخرون، وكتب عنه علماء وأدباء، وسطروا شيئاً من صلتهم به ومعرفتهم له بالنثر والشعر:

وأقتصر هنا على قصيدتين لشاعرين كبيرين:

الأولى: للشاعر صالح بن عبد العزيز بن عثيمين؛ قال فيها:

«رُزءٌ عظيمٌ أثارَ الحُزْنَ والأسَفا ... فالدمْعُ فيهِ عَلى الخَدَّينِ قَد ذَرَفا
اليومَ حَقاً فقدنْا للهُدىَ عَلَماً ... اليومَ حَقّاً فقدْنا الزُّهْدَ والشَّرَفا
بقيتْ عُنيزَةُ دَهْراً وهي رافِعةٌ ... لِواءَ فَخرٍ لهُ كُلُّ الوَرى عَرَفا
ظَلتْ بِهِ العُربُ دَهراً وهي فاخِرةٌ ... واليومَ أضْحَتْ تُعزَّى فيه وا أسفا
فَذي تَصانيفُهُ قَدْ قامَ قائِمُها ... يدعو العِبادَ عليها الكلُّ قَدْ عَكَفا
لهفي بذا العام قَدْ حَقَّ العَزاءُ لنا ... في فادحٍ لو أصابَ الطَّودَ لارتَجَفا
مَات الذي إن يَخُض في النَّحْوِ لُجَّتُهُ ... قالَ ابنُ مَالكٍ مَا أبدَيتهُ طَرفا
فاللهُ يُلهمُنا صَبراً فَقَد عَظُمَت ... مُصيبة أثقَلتْ في حَمْلِها الكتفا»

والثانية: للشاعر الدكتور عبد الله بن صالح العثيمين، ومنها:

«مُهجٌ تذوبُ وأنفسٌ تَتَحَسَّرُ ... ولظىً على شَغَفِ القُلوبِ تَسَعَّرُ
الحُزنُ أُضرِمَ في الجَوانحِ والأسى ... يُصلي المشاعِرَ بالجَحيم ويصهَرُ
مَلأ الضَّمائر حَسرَةٍ وكَآبةً ... لا شيءَ يُبْرِئُها ولا هيَ تُجْبَرُ

اليومَ ودَّعنا أباً ومُهذِّباً ... والحُزنُ يَغلي في الدماءِ ويَزخرُ
كُتب الفَناءُ على النُّفوسِ فما يُرى ... حَيٌّ يَدومُ مُخلداً ويُعَمَّرُ
لكِنْ مَنِ اتَّخذَ الصَّلاحَ شِعارهُ ... تَفْنى الخليقةُ وهو حَيٌّ يُذكرُ
مَا ماتَ مَنْ نَشَرَ الفَضيلةَ والتُّقى ... وأقامَ صَرْحاً أُسُّهُ لا يُكْسَرُ
ماذا أقولُ عَنِ المُصابِ ومُهجتي ... ألماً تَغُصُّ وعبرتَي تتكسرُ»[1]



(١) روضة الناظرين ١/٢٢٨ ـ ٢٢٩.

كتاب

أثر علامة القصيم

الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله

على الحركة العلمية المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله القائل في محكم التنزيل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، والصلاة والسلام على المعلم الأول الذي علمه ربه وخاطبه في أول وحيه بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ إمام العلماء وسيد الأتقياء ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

فللعلماء في كل جيل دور متميز، يأخذون بأيدي الناس، ويوضحون لهم مخططات الأعداء، ويرسمون لهم طريق السلامة.

ولعل علّامة القصيم الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي واحد من هؤلاء، إذ كانت حياته جهاداً متواصلاً بالدعوة والكتابة والتأليف وقضاء حوائج الناس ونصرة المظلومين.

لقد منح هذا العالم حياته للعلم والتعليم، فكانت له آثار خالدة، وهي بين أيدينا الآن، نقرؤها فنستدل بها على عقلية وموهبة هذا الإمام.

وها هم تلاميذه يتولون قيادة المؤسسات العلمية والقضائية، ويتميزون بالتصدر للناس والفتوى والتأليف.

لقد كانت لابن سعدي آثار واسعة على الحركة العلمية المعاصرة، يتمثل ذلك فيما بين يدينا من مؤلفات زاخرة في فنون العلم والمعرفة في: التفسير، وعلوم القرآن، وفي الحديث، وفي الفقه، والعقيدة، واللغة، والثقافة العامة.

وسنوضح ذلك أتم إيضاح في هذه الرسالة إن شاء الله.

أسأل الله جل وعلا أن يجعلها خالصة لوجهه، وأن يجمعني بابن سعدي ومشايخه وتلاميذه وجميع المسلمين في جنات النعيم؛ إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب

أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار

ضحوة الخميس ١٠/٤/١٤١٢هـ

المبحث الأول

طريقته في التعليم

أقبل ابن سعدي ـ كما مر معنا ـ على العلم إقبالاً منقطع النظير، وصرف وقته كله للعلم، فظهرت عليه أمارات النبوغ، وحصَّل في زمن قصير ما لم يحصِّله غيره في زمن طويل، ولذا ذاع صيته، واشتهر أمره، وعظم قدره، وعلا ذكره، فاجتمع إليه الطلبة من بلده وغيرها، وأخذوا ينهلون من المعين الصافي والينبوع العذب والنهر المتدفق، وهو يعاملهم معاملة حسنة كريمة، ويتتبع أحوالهم، ويأخذ بأيديهم، ويجمع التربية والتوجيه.

وقد حدَّث عنه من درسوا عليه بأنه كان:

ـ يستشير طلابه في الكتاب الذي يقرؤون فيه.

ـ يعقد المناظرات بينهم لكي يدفعهم للمنافسة والمثابرة في التحصيل.

ـ يخصص لهم المكافآت تشجيعاً لهم وإعانة لهم على ظروف الحياة القاسية.

ـ يطرح المسائل على طلابه، ويستظهر منهم الإجابة، وأحياناً يجيب هو، لكنه يتعمد تغليط نفسه؛ ليتبين المدرك منهم والمستوعب، ثم يصحح لهم، وفي هذا الأسلوب تثبيت للمعلومات في أذهان الطلاب.

ـ عند ذكر المسائل الخلافيَّة يصوِّرها للطلاب بين اثنين منهم، ثم يستدل لكل فريق ويناقش، ثم بعد عرضها ـ بكل أمانة ونزاهة ـ يتوسط حكماً بينهما، ويرجح ما يعضده الدليل.

ـ كثيراً ما يطلب من تلاميذه إعادة ما فهموه من الدروس؛ ليثبت المعلومات في أذهانهم.

ـ في اليوم اللاحق يناقشهم عمَّا أخذوه في اليوم السابق، وهذا يدفعهم للمذاكرة والمراجعة.

وبهذا الأسلوب الفريد في عصره كسب الطلاب، وتوافدوا لطلب العلم عليه، وتخرَّج على يديه أعداد غفيرة كانوا ولا يزال بعضهم له الأثر الكبير على الحركة العلمية المباركة التي تشهدها بلادنا الحبيبة(١).

أما عن تنظيمه لوقته؛ فقد كان يجلس أربع جلسات في اليوم، حيث كان يصلي الفجر بالناس، ثم يجلس لأداء الدرس حتى تطلع الشمس، ويذهب بعد ذلك إلى بيته حتى الضحوة الكبرى، فيعود إلى المسجد؛ يعلم أبنائه الفقه والتفسير والحديث والعقيدة والنحو والصرف في دروس منتظمة وكتب اختارها لطلابه، ويستمر معهم حتى صلاة الظهر، فيصلي بالناس، ويعود إلى بيته؛ يستريح فيه إلى صلاة العصر، ثم يذهب إلى المسجد، فيصلي العصر بالناس، ويعطيهم عقب الصلاة وهم جلوس بعض الأحكام الفقهية في دقائق لا تؤخِّرهم عن الانصراف سعياً وراء أرزاقهم، وعندما تغرب الشمس؛ يصلي بالناس صلاة المغرب، ويجلس للدرس حتى يصلي العشاء. . . . ويتكرر ذلك في كل يوم(٢).



---

(١) روضة الناظرين ١/ ٢٢٣، سيرة ابن سعدي ص١٢.

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية السنة ١١، العدد ٤ ص٢٠٨.

المبحث الثاني

طريقته في التأليف

اعتنى الشيخ ابن سعدي عناية فائقة بالتأليف على غير عادة كثير من علماء عصره، حيث كانوا يهتمون بالتعليم عن طريق الحلقات، ولا يلقون بالاً للتأليف؛ لأنه يأخذ وقتاً طويلاً منهم هم بأمس الحاجة إليه لتعليم الناس وقضاء حوائجهم.

أما ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فقد وفقه الله ﷻ، وسار سيراً متوازياً في طريقين هامين:

أحدهما: التعليم وقضاء حوائج الناس.

والثاني: التأليف وكتابة الرسائل والردود والإجابة على الأسئلة التي ترد إليه من داخل المملكة وخارجها.

وقد ترك مؤلفات كثيرة تشهد بغزارة علمه وسعة اطلاعه وقدرته على التأليف.

وقد ترك مختلف العلوم، فألف في: التفسير، والحديث، والفقه، وأصوله، والعقائد، والوعظ، والخطب، واللغة العربية، ومؤلفاته التي بين أيدينا خير شاهد على ما نقول.

لقد كان للشيخ ابن سعدي اليد الطولى في علم التفسير، حيث ألف تفسيره العظيم «تيسير الكريم الرحمٰن»، وكان يمليه إملاء من غير أن يكون معه وقتئذ كتاب في التفسير ولا غيره، بل كان يقرأ مع طلابه القرآن الكريم، وفي أثناء القراءة؛ يفسره لهم، ويبين لهم معانيه، ووجوه إعجازه، ويستنبط لهم منه فرائد الفوائد، حتى إن من يستمع إليه؛ يودُّ لو أنه استمر في تفسير الآيات، وذلك بفضل ما آتاه الله؛ من فصاحة لسان، وجزالة لفظ، وقوة بيان، وتوسُّع

في عرض القصص، ودقَّة في استنباط الحكم التشريعية التي تخاطب العقل وتلجمه بلجام الإقناع السريع.

كما كانت له مهارة فائقة في التأليف في ميدان الفقه، حيث طرق أكثر من مسلك في إقناع القارئ وإيصال المعلومات إليه؛ فتارة عن طريق السؤال والجواب، وتارة عن طريق المناظرة، وثالثة عن طريق الاختصار، ورابعة عن طريق ذكر الحكم بدليله، وخامسة عن طريق عرض المسألة الواحدة في رسالة مستقلة، ولذا أشبع الموضوعات التي تطرق لها، واستطاع أن يصل إلى قلب وعقل قارئه بأيسر السبل وأسهل الطرق.

وقد كانت الكتابة سهلة عليه، حيث كان في المجلس الواحد يملي رسالة مستقلة.

كما وردت إليه الأسئلة العديدة، فأجاب عليها بالأجوبة السديدة، وكان حاضر الجواب، سريع الكتابة، بديع التحرر، سديد البحث.

وقد بارك الله في أوقاته، فألَّف وخطب ونصح وساهم في حلِّ مشاكل الناس، وكان لا ينقطع عن زيارتهم في بيوتهم، ومشاركتهم في مجتمعاتهم، فأعطى كل ذي حق حقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[(١)].

وللشيخ ابن سعدي باع طويل في الشعر، إذ سخر قريحته لخدمة العلم، فألف المتون الطويلة، وتولى شرحها بنفسه؛ ليقرِّبها للقارئ، فخرجت بصورة متكاملة؛ ترضي مشارب الناس وأذواقهم.

كما حرص رَحِمَهُ ٱللَّهُ على جمع القواعد والضوابط، ثم التفريع عليها، وذلك مما يسهِّل فهم المسائل، ويقرِّبها لذهن القارئ، حيث يجمعها ضابط شرعي أو قاعدة واضحة، ويعدُّ كتابه «طريق الوصول» من أفضل الكتب في هذا الباب، حيث ضمَّنه خلاصة ما ذكره الإمامان الجليلان شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في كتبهما من ضوابط وقواعد شرعية متناثرة، وزاد عليها ما رآه نافعاً للقارئ فخرج الكتاب بصورة فريدة؛ ينفع المبتدئ، ويعين المنتهي، ويأخذ بيد الراغب لنيل العلم بأقصر الطرق وأسهل السبل.

---

(١) علماء نجد ٢/ ٤٢٤.

المبحث الثالث

أسلوبه في كتابة الفقه

كان ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا عناية فائقة في الفقه، ولذا زادت مؤلفاته فيه على عشرة كتب، وقد كان في بداية أمره ملتزماً بمذهب الإمام أحمد، ثم أخذ يميل إلى ترجيح بعض المسائل، ولذا أفرد مؤلَّفاً لاختياراته التي خالف فيها المذهب، وبنى قوله على ما ظهر له من الأدلة، وقد حرص رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تيسير الفقه للطالبين، وبذل في ذلك غاية وسعه، فألَّف فيه عن طريق السؤال والجواب وعن طريق المناظرة وعن طريق ذكر المسألة الراجحة بدليلها.

كما طرق باب النظم، فأفرد منظومة طويلة في الفقه، وقام بشرحها بنفسه؛ ليسهل الانتفاع بها.

ولكي نقف على رأيه واضحاً في كتابته في الفقه؛ نعرض ما قاله في تقديمه لكتابين من كتبه الفقهية:

قال في مقدمة: «المناظرات الفقهية»: «. . . . لهذا أحببت أن أضع في هذا التعليق عدة مسائل من مسائل الفقه المختلف فيها بين العلماء مما اشتهر به الخلاف وكان الخلاف فيها له أهمية، وأجعلها على صورة مناظرة بين المستعين بالله والمتوكل على الله؛ لأن في جعلها على هذه الصورة فوائد كثيرة:

ـ منها تيسير مأخذ القولين ووجودهما في محل واحد، وذلك من مقرِّبات العلم.

ـ ومنها التمرن على المناظرة والمباحثة التي هي من أكبر الوسائل لإدراك العلم وثبوته وتنوعه.

ـ ومنها التمرن على الاستدلال، والرجوع إلى أصول المسائل؛ ليصير للعبد ملكة تامَّة يحسن معها الاستدلال والمناظرة والنظر.

ـ ومنها أن يعوِّد الإنسان نفسه سرعة قبول الحق؛ إذا اتَّضح له صوابه، وبان له رجحانه.

ـ ومنها أن يعلم أن الخلاف في مثل هذه المسائل بين أهل العلم لا يوجب القدح والعيب والذم....»[1].

وقال في مقدمة كتاب: «إرشاد أولي البصائر»: «... أما بعد؛ فهذا تصنيف بديع المأخذ، سهل المنزع، يمهد لطالب العلم من طرق التعلم والتعليم وحصول الفهم والتفهيم ما يوصله إلى خير كثير وعلم غزير؛ لأني اجتهدت في تحرير أسئلة جوامع لمهمات مسائل الدين؛ تاركاً ما لا تدعوا الحاجة إليه غالباً؛ معمعاً للسؤال أو مطلقاً له؛ ليكون جوابه يحتوي على تفصيلات وتقسيمات تقرب أشتات المسائل، وتضم متفرقاتها، وتنوع أحكامها، وتفاوت بين أقسامها؛ بحسب تباين أسبابها وعللها، حتى ربما كان جواب بعض الأسئلة يتناول عدة أبواب، ومن أنفع ما في هذه الأجوبة ما فيها من الأصول والضوابط التي تُبنى عليها تلك الأسئلة وغيرها...»[2].



(١) المختارات الجلية ص١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) مقدمة إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب بطريق مرتب على السؤال والجواب ص٢.

المبحث الرابع

ردُّه على مخالفيه

كان ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ متمثلاً قول الحق ﷻ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. هذا في حق المخالفين في الأصول؛ فضلاً عن المخالفين في الفروع؛ فهم مأجورون على كل حال؛ فإن أصابوا؛ فلهم أجران، وإن أخطأوا؛ فلهم أجر واحد؛ شريطة سلامة النية وصحة المقصد، وهذا متوفر بمشيئة الله تعالى.

ولكي نتبيَّن منهج ابن سعدي في ردِّه على مخالفيه نشير إلى رسالتيه المشهورتين:

الأولى: «ردِّه على القصيمي».

الثانية: «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين».

قال في مقدمة: «ردِّه على القصيمي»: «.. أما بعد؛ فإني قد وقفت على كتاب صنفه عبد الله بن علي القصيمي، سمَّاه: «هذه هي الأغلال»؛ فإذا هو محتو على نبذ الدين، والدعاية إلى نبذه والانحلال عنه من كل وجه، وكان هذا الرجل قبل كتابته وإظهاره لهذا الكتاب معروف بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعه حسنة، فلم يرع الناس في هذا العام حتى فاجأهم بما في هذا الكتاب الذي نسخ به وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سابقاً..»[1].

هكذا بيَّن ابن سعدي ما لهذا الرجل من حسنات، ولم يغمطه حقَّه، بل

---

(١) مقدمة رده على القصيمي ص٣.

ذكر أنه من جملة أنصار الشرع قبل هذا الكتاب، وهذا من العدل في الأحكام، الذي أمرنا به، وهو أسلوب من أساليب المجادلة بالتي هي أحسن، أما السباب والشتم وتنقُّص الناس وازدراؤهم وهدم ماضيهم؛ فليس من الإنصاف؛ فبغض الآخرين وكراهيتهم وعداوتهم لا يسوغ لنا أن ننكر ما لهم من الفضائل، وإلا؛ وقعنا في الظلم المنهي عنه شرعاً.

أما رسالته الثانية في الرد على الملحدين؛ فقال في مقدمتها: «.. وقد أصَّلوا لباطلهم أصولاً يقلد فيها بعضهم بعضاً، وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرَّد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها؛ لكونها مناقضة للعقل والنقل، ولكنهم زخرفوها وروجوها، فانخدع بها أكثر الخلق...»[1].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أوجهاً كثيرة، نازل فيها جميع طوائف الملحدين، وتحدَّاهم، وأبطل أصولهم، وفنَّد مآخذهم، وهدم قواعدهم، وزلزل بنيانهم، وبين مخالفتهم للعقل والفطرة والحكمة كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة.

وبهذا الأسلوب الفريد يصل القارئ إلى القناعة التامَّة، فمن ينفع معه أسلوب؛ قد لا يجدي معه آخر، ولذا؛ لا بدَّ من مراعاة الظروف والأحوال والأشخاص، واختيار ما يناسب عند إقناع الآخرين، وهذا ما اتبعه ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ مع مخالفيه؛ على اختلاف مشاربهم، وتنوع ثقافاتهم، وقربهم وبعدهم من الحق.



---

(١) مقدمة الأدلة القواطع ص٦.

المبحث الخامس

أثره في الفقه

كان ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ مدرسة في الفقه؛ فقد كان ذا معرفة تامَّة فيه أصوله وفروعه، وقد مَّر بأطوار في حياته، حيث كان أول أمره متقيداً بالمذهب الحنبلي تبعاً لمشايخه، وقد حفظ بعض المتون في ذلك، وصنف في الفقه نظماً على بحر الرجز، وشرحه شرحاً مختصراً، وقد تقيد فيه بالمذهب.

وبعد أن تقدَّمت به السن، وارتقى في طلب العلم؛ اعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحصل له بذلك خير كثير وانتفاع عظيم، وأصبح يبحث عن الدليل، ويرجح ما يراه راجحاً؛ بغضِّ النظر عن رجحانه عند الأصحاب، لكنه فيما لم يظهر له فيه دليل راجح يتبع الإمام أحمد.

ولذا؛ خلف ثروة عظيمة من كتب الفقه التي تجمع بين التقيُّد بالمذهب وما رجحه الدليل، وهذا ما ينبغي للعالم سلوكه، أما أن يتعصب طالب العلم للمذهب، ولو كان الدليل خلافه؛ فهذا مسلك غير حميد، أو أن يتعجَّل بالترجيح دون اطلاع على آراء الأئمة والعلماء؛ فهذا هو الآخر مسلك غير حميد.

وبهذا تعلم إثراء ابن سعدي للفقه الحنبلي، بل وللفقه المبني على الدليل والمؤيَّد بالتعليل.

ومن أبرز كتب الشيخ ابن سعدي التي كان لها كبير الأثر على الفقه في الوقت الحاضر:

١ ـ «المختارات الجلية من المسائل الفقهية»:

وهي مختارات من المسائل الفقهية التي اختارها الشيخ السعدي لصحَّة دليلها، ولو كانت مخالفة لمذهب الإمام أحمد.

٢ ـ «المناظرات الفقهية»:

وهي مسائل فقهية جرى في تأليفها على طريقة المناظرة بين شخصين: أحدهما المستعين بالله، والثاني المتوكل على الله، ضمَّن هذه المناظرات عشرين مثالاً، كل مثال يحتوي على مسألة فقهية، يورد فيها على لسان المتناظرين الأدلة والمناقشة وأقوال أهل العلم، ثم ينتهي إلى الترجيح، وقد سلك هذا المسلك؛ تقريباً للأذهان، وتعويداً على المناقشة والاستدلال، وقد أثبتت التربية الحديثة أن هذا الأسلوب من أفضل الأساليب في تعليم الناشئة.

٣ ـ «إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب بطريق مرتب على السؤال والجواب»:

وضع المؤلف رَحِمَهُ الله مجموعة من الأسئلة الهامَّة، وأجاب عليها، وضمَّن الإجابة شيئاً من القواعد والضوابط التي تعين طالب العلم، وتجعله يجمع شتات المسائل المتفرقة التي يجمعها ضابط واحد أو قاعدة واحدة، وهكذا...

٤ ـ «الفتاوى السعدية»:

مجموعة من الفتاوى والأجوبة التي كان الشيخ ابن سعدي يسأل عنها في حياته، جمعت بعد وفاته؛ ليتيسَّر الانتفاع بها.

ورد في مقدمة الكتاب: «.. وبعد وفاته اطلعنا على فتاوى وكتابات وأسئلة وأجوبة كتبها بيده، ونعتقد أنها نافعة في بابها، وملائمة لوقتنا الحاضر...»[1].

٥ ـ «منظومة في أحكام الفقه»:

مطلعها:

«الحَمْدُ للهِ الَّذِي قَدْ فَقَّهَا   في دِينِهِ الأَبْرَارَ أَصْحَابَ النُّهى»

(١) مقدمة الفتاوى السعدية ص٤.

٦ ـ «الجهاد في سبيل الله»:

٧ ـ «وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني وبيان كليات من براهين الدين»:

٨ ـ «منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين»:

قال في مقدمته: «. . . فهذا كتاب مختصر في الفقه، جمعت فيه بين المسائل والدلائل؛ لأن العلم معرفة الحق بدليله. . .»[١].

٩ ـ «حاشية على الفقه»:

وهي استدراكات على كتب أصحاب الإمام أحمد، وقد ذكرها ابنه عبد الله، وأشار أنها لم تطبع.

١٠ ـ «الجمع بين الإنصاف ونظم ابن عبد القوي»:

وهذا الكتاب جمع فيه بين «نظم» ابن عبد القوي في الفقه وبين «الإنصاف» للمرداوي، وقد وصل فيه إلى كتاب الحج، ولم يطبع بعد.

١١ ـ «حكم شرب الدخان»:

عرض فيه لهذا الداء العضال وبيَّن مضارَّه على الدين والعقل والعرض والمال، واستدل على حرمته من الكتاب والسنة والمعقول، وقد شفى وكفى رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبهذه المؤلفات الزاخرة يظهر أثر الشيخ الواضح على الفقه، وعنايته التامة فيه، بالإضافة إلى عشرات التلاميذ الذين انتشروا في مختلف المناطق والمدن؛ يعلمون الناس، ويرشدونهم، ويتولون أقضيتهم وشؤونهم الدينية.

يقول الشيخ العدوي: «. . وطلاب الشيخ الذين علَّمهم في المسجد هم الذين تولوا التدريس في المدارس والمعاهد التي فتحتها الدولة في بلدانهم، فكان الشيخ يكتب بيده شهادة يقول فيها: إن فلاناً درس علوم كذا وكذا في كتب كذا وكذا، وهو يصلح لتدريس هذه المواد في المستوى الابتدائي أو

---

(١) مقدمة منهج السالكين ص٧.

الإعدادي أو الثانوي، وتأخذ الدولة بشهادات الشيخ التي أثبتت التجربة فيما بعد أنها معبِّرة عن الحقيقة أصدق تعبير...»[1].

وقد أكد رَحِمَهُ اللَّهُ على عنايته واهتمامه بالفقه في كثير من مقدمات كتبه الفقهية.

من ذلك قوله في مقدمة المناظرات الفقهية: «... واعلم أن من أجلِّ العلوم وأفرضها وأعظمها نفعاً عليَّ الفقه، الذي هو معرفة الأحكام الشرعية الفروعية بأدلتها التفصيلية؛ لأنه مأخوذ عن كتاب الله وسنة رسول الله؛ نصّاً، أو ظاهراً، أو استنباطاً، أو تنبيهاً، أو قياساً، أو اعتباراً...»[2].



(١) مجلة الجامعة الإسلامية السنة ١١، العدد ٤، ص٢٠٨.

(٢) المختارات الجلية ص١٧٦.

المبحث السادس

آثاره الأصولية

نظراً لاستفادة ابن سعدي من ابن تيمية وابن القيم كثيراً؛ فقد امتاز فقهه بأنه مؤصَّل، قلَّ أن يذكر حكماً شرعياً؛ إلا ويربطه بضابط أو قاعدة، ولذا امتزج عنده الفقه بالأصول، وربط الفروع بالقواعد، وهذا مسلك مقنع إلى حد كبير.

ومن آثار الشيخ الأصولية:

١ ـ «رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة»:

هذه الرسالة الصغيرة الحجم غزيرة الفائدة؛ عرَّف فيها المؤلف أصول الفقه، وبيَّن الأحكام الشرعية، وأوضح الأدلة التي يستمد منها الفقه، وهي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، ثم ذكر مجموعة من القواعد التي تُبنى عليها الأحكام الشرعية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة هذه الرسالة: «... أما بعد، فهذه رسالة لطيفة في أصول الفقه؛ سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، معينة على تعلم الأحكام لكل متأمِّل معاني...»[1].

٢ ـ «رسالة في القواعد الفقهية» (منظومة وشرحها):

قال في مقدمتها: «... أما بعد؛ فإني وضعت لي ولإخواني منظومة مشتملة على أمهات قواعد الدين، وهي؛ وإن كانت قليلة الألفاظ؛ فهي كثيرة المعاني لمن تأمَّلها، ولكنها تحتاج إلى تعليق يوضحها ويكشف بعض معانيها،

---

(١) «رسالة مختصرة في أصول الفقه ص١٢٢، طبعت مع منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين».

وأمثلتها تنبِّه اللبيب الفطن على ما وراء ذلك، فوضعت عليها هذا الشرح اللطيف؛ تيسيراً لفهمها...»[1].

مطلع هذه الرسالة:

«الحَمْدُ لله العَلِيِّ الأرْفَقِ وجَامِعِ الأشْياءِ والمُفَرِّقِ»

... إلى أن قال:

«وهذِهِ قَواعِدُ نَظَمتُها مِنْ كُتْبِ أهْلِ العِلْم قَدْ حَصَّلتُها»[2]

ولابن سعدي مجموعة من الكتب، خصصها لجمع القواعد والأصول والضوابط التي تُبنى عليها الأحكام، لكنها لا تختص بأصول الفقه، ولعل من أوفاها وأغناها:

١ ـ كتابه الجامع الفريد في بابه «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول»:

قال في مقدمته: «... وهي قواعد وأصول منوَّعة في أصول الدين وفي أصول الفقه والتفسير والحديث...»[3].

٢ ـ وكتابه: «القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة»:

الذي ضمَّنه كثيراً من القواعد والضوابط التي يستعين بها طالب العلم على جمع المتَّفق وتفريق المختلف.

وقد قال الشيخ في مقدمة كتابه: «... أما بعد؛ فإن معرفة جوامع الأحكام وفوارقها من أهم العلوم وأكثرها فائدة وأعظمها نفعاً، لهذا جمعتُ في رسالتي هذه ما تيسَّر من جوامع الأحكام وأصولها، ومما تفترق فيه الأحكام لافتراق حكمها وعللها...»[4].

---

(١) رسالة في القواعد الفقهية ص٥.

(٢) رسالة في القواعد الفقهية ص٧ ـ ١٣.

(٣) طريق الوصول ص٤.

(٤) القواعد والأصول الجامعة ص٣.

المبحث السابع

كتب الشيخ ابن سعدي ورسائله

اعتنى الشيخ ابن سعدي عناية فائقة بالتأليف، وكانت الكتابة سهلة عليه جداً، ولذا كتب معظم مؤلفاته بخط يده، وطبعها فور انتهائه منها، وقد ترك ثروة كبيرة من المؤلفات، تربو على أربعين مؤلَّفاً، في مختلف فنون الشريعة؛ في التفسير، وعلوم القرآن، والحديث، والعقائد، والفقه، وأصوله، والخطب، والفتاوى، والرسائل الصغيرة.

وقد تميَّزت مؤلفاته تجمع بين الأصالة والمعاصرة، حيث كان يطبق النصوص على النوازل، وذلك يحتاج إلى ملكة قوية وموهبة فذة، وكان يصدر في أحكامه وفتاويه ورسائله عن اجتهاد في النظر، واستقلالية في الترجيح؛ إلا أنه قلَّما يخرج عن رأي الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

وسأذكر هنا مؤلفاته ورسائله مرتباً لها في ستة مطالب حسب موضوعاتها، فأذكر في المطلب الأول ما يتعلَّق بالقرآن وعلومه، وفي الثاني ما يتعلَّق بالحديث، وفي الثالث العقيدة، وفي الرابع الفقه وأصوله، وفي الخامس الخطب، وفي السادس اللغة العربية؛ معرفاً بكل منها تعريفاً موجزاً؛ مشيراً إلى ما لم يطبع منها؛ ناصاً على غرض المؤلف من تأليفها قدر المستطاع.

وإليك بيان مؤلَّفاته:

المطلب الأول

القرآن وعلومه

١ ـ «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنَّان»:

وهو تفسير عظيم، لا يستغني عنه طالب علم، لأنه سهل العبارة، يجمع

بين بيان المعنى المقصود والغوص في أسرار التشريع بعيداً عن تعقيدات الألفاظ والإسهاب في بيان الأحكام.

وقد أوضح ابن سعدي غرضه من تأليفه، فقال: «. . . وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوَّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يُجعَل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه؛ خصوصاً إذا انضمَّ إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها. . .».

«ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز؛ بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب ما تيسَّر وما منَّ الله به علينا؛ ليكون تذكرة للمصلحين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيده خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود؛ للمعنى الذي ذكرت؛ لأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً. . .».

وقد نبَّه رحمه الله على طريقته في «تفسيره»، فقال: «. . .اعلم أن طريقتي في هذا التفسير: أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكري ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه ﴿مَّثَانِيَ﴾ تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضع النافعة؛ لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها. . .»[1].

وقد فرغ رحمه الله من تأليفه في ٧ شعبان ١٣٥٤هـ.

---

(١) مقدمة التفسير ص٢ ـ ٤.

٢ ـ «تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن»:

وهذا الكتاب خلاصة للتفسير المتقدم، ألَّفه بعد تفسيره بأربع عشرة سنة.

وقد أوضح سبب تألفه في مقدمته، فقال: «.. أما بعد؛ فقد كنتُ كتبت كتاباً في تفسير القرآن مبسوطاً مطولاً؛ يمنع القراء من الاستمرار بقراءته، ويفتر العزم عن نشره، فأشار عليَّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطوَّل؛ يحتوي على خلاصة ذلك التفسير، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضع علوم القرآن ومقاصده، فاستعنت الله على العمل على هذا الرأي الميمون؛ لأمور كثيرة:

ـ منها: أنه بذلك يكون متيسراً على المشتغلين معيناً للقارئين.

ـ ومنها: أن القرآن العظيم ليس كغيره من الكتب في الترتيب والتبويب، لأنه بلغ في البلاغة نهايتها، وفي الحسن غايته، وفي الأسلوب البديع والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد، فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد، وبين الدليل والمدلول، وبين الترغيب، وبين العلوم الأصولية والفروعية، وبين العلوم الدينية والدنيوية والأخروية، وبين الأغراض المتعدِّدة والمقاصد النافعة، ويعيد المعاني النافعة على العباد؛ ليتم علمهم، وتكمل هدايتهم، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم؛ علماً وعملاً...»[1].

وقد فرغ من هذا الكتاب في ٣ شوال ١٣٦٨هـ.

٣ ـ «القواعد الحسان لتفسير القرآن»:

ضمنه الشيخ ابن سعدي سبعين قاعدة جليلة؛ تعين على فهم كتاب الله، قلَّ أن توجد في أمهات التفسير؛ فضلاً عمَّا سواها، وقد اجتهد الشيخ في تحريرها وتنسيقها وعرضها؛ لتكون عوناً لقارئ القرآن على فهمه.

---

(١) مقدمة تيسير اللطيف المنان ص٦.

يقول في مقدمة كتابه: «... أما بعد، فهذه؛ أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومنهاج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة...»(١).

وقد فرغ المؤلف من تأليفها في ٦ شوال ١٣٦٥هـ.

٤ ـ «المواهب الربانية من الآيات القرآنية»:

رسالة صغيرة، سجل فيها الشيخ ابن سعدي ما فتح الله به عليه أثناء قراءته لكتاب الله في شهر رمضان من عام ١٣٤٧هـ.

يقول الشيخ في مقدمتها: «... هذه فوائد فتح الله عليَّ بها في هذا الشهر المبارك، نسأله المزيد من كرمه...».

ويقول في آخرها: «...فإن جنس هذه الفوائد المذكورة في هذه الرسالة قد كانت تعرض لي كثيراً أثناء القراءة لكتاب الله، فأتهاون بها، ولم أقيدها، فيضيع شيء كثير، فلما كان أول يوم من هذا الشهر المبارك؛ أوقع في قلبي أن أقيِّد ما يمر عليَّ من الفوائد والمعاني المتَّضحة التي لا أعلم أنها وقعت لي قبل ذلك، فعملت على هذا النمط...»(٢).

وقد فرغ المؤلف رحمه الله في ٢٨ رمضان ١٣٤٧هـ.

٥ ـ «فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام»:

رسالة لطيفة، استنبط فيها المؤلف رحمه الله جملة من الفوائد؛ امتثالاً لقول الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

يقول ابن سعدي في مقدمتها: «.. أما بعد؛ فهذه فوائد مستنبطة من قصة يوسف رحمه الله وعلى جميع الأنبياء والمرسلين؛ فإن الله تعالى قصَّها علينا مبسوطة، وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]،

(١) مقدمة القواعد الحسان ص٣.

(٢) المواهب الربانية ص٣ ـ ٧٨.

والعبرة ما يُعتَبَرُ به ويُعبر منه إلى معان وأحكام نافعة وتوجيهات إلى الخيرات وتحذير من الهلكات، وقصص الأنبياء كلها كذلك، ولكن هذه القصة خصَّها الله بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧]؛ ففيها آيات وعبر منوعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد...»[(١)].

وقد فرغ منها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شهر صفر من عام ١٣٧٥هـ.

٦ ـ «الدلائل القرآنية في أن العلوم النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي»:

رسالة لطيفة صغيرة، بيَّن فيها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الدين الإسلامي وعلومه ومعارفه جمعت كل خير، وأن العلوم العصرية النافعة داخلة في ضمن علوم الدين.

يقول ابن سعدي في مقدمتها: «... أما بعد، فهذه رسالة تتضمَّن البراهين القواطع الدالَّة على أن الدين الإسلامي وعلومه وأعماله وتوجيهاته جمعت كل خير ورحمة وهداية وصلاح وإصلاح مطلق لجميع الأحوال، وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة في ضمن علوم الدين وأعماله، ليست منافية لها... وبيان أن الفنون العصرية إذا لم تبن على الدين وتربط به، فضررها أكثر من نفعها، وشرها أكبر من خيرها...».

وجاء في آخرها: «... من كمال الدين الإسلامي صلاحه لكل زمان ومكان... ومن كماله أنه صالح لكل زمان ومكان وحال لجميع المشاكل الاجتماعية والشخصية، ومن كماله أن جميع الحقائق العقلية والحسيَّة والتجارب الصادقة كلها داخلة فيه وفي ضمنه، ومن كماله أن النظريات المتباينة والاختلافات المتضادة يبين صحيحها من سقيمها، وصالحها من فاسدها، وعدلها من ظلمها، وحقها من باطلها...»[(٢)].

وقد فرغ منها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العاشر من محرم سنة ١٣٧٥هـ، ويلاحظ

---

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ص٢.

(٢) انظر: المجموعة الكاملة لمؤلفات ابن سعدي الثقافة ١/ ٢٧١ و٣٠٤.

أنها من آخر كتبه، حيث سبق تأليف هذه الرسالة وفاته بسنة وأشهر فقط، فرحمه الله، وأسكنه فسيح جنانه.

المطلب الثاني

الحديث

لم أقف له إلا على كتاب واحد في الحديث، وإن كانت له دروس كثيرة في الحديث، علَّق فيها على «بلوغ المرام» وغيره من كتب الحديث، وكتابه في الحديث:

٧ ـ «بهجة قلوب الأبرار وقرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار»:

وهو مجلَّد لطيف، اشتمل على شرح تسع وتسعين حديثاً من الأحاديث النبويَّة الجوامع في أصناف العلوم والمواضيع النافعة والعقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والفقه والآداب والإصلاحات الشاملة والفوائد العامة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمته: «... وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديث الجوامع في المواضيع الكلِّية والجوامع في جنس أو نوع أو باب من أبواب العلم مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه على وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار، إذ المقام لا يقتضي البسط...»[١].

وقد فرغ المؤلف من تأليف هذا الكتاب في ١٠ شعبان ١٣٧١هـ.

المطلب الثالث

العقيدة والآداب والمواعظ

٨ ـ «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول»:

هذا الكتاب من أنفس كتب الشيخ ابن سعدي، حيث اعتنى فيه، وجمع جملة كبيرة من القواعد والضوابط والأصول التي تُبنى عليها الأحكام، ويحتاج

(١) مقدمة بهجة قلوب الأبرار ص٥.

إليها طالب العلم؛ ليجمع من خلالها بين المتفق ويفرق بين المختلف، وقد انتقاها ابن سعدي من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

يقول في مقدمة هذا الكتاب: «... أما بعد، فإنه لما كانت كتب الإمام الكبير شيخ الإسلام والمسلمين تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية قدس الله روحه جمعت فأوعت... وقد يسر الله الوقوف على كتبه الموجودة، فتتَّبعت ما وجدته في كتب هذا الإمام من الأصول والقواعد والضوابط النافعة، وأثبتها في هذا المجموع...».

وقال في موضع آخر: «... ولما كان شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية قد سلك مسلك شيخه المذكور بالتحقيق للعلوم الأصولية والفروعية والظاهرة والباطنة، وكان أعظم من انتفع بشيخ الإسلام وأقومهم بعلومه وأوسعهم في العلوم العقلية والنقلية؛ أحببت أن أنقل من كتبه من الأصول والقواعد والضوابط والفوائد الجليلة، وأتبعها لهذا الكتاب...»[(١)].

وقال في آخره: «... وقد فاقت ولله الحمد على الألف؛ ما بين أصل وقاعدة، وضابط جامع، وتعريف مهم، وفائدة ضرورية، وترغيب من كمال، وتحذير من نقص، وتوجيه إلى المنافع الظاهرة والباطنة، وترهيب من المضار الدينية والدنيوية، ومَخبره يغني عن وصفه.

وجملة ذلك أن هذا المجموع قد انتقيته بعد التروِّي الكثير، وكثرة التأمل والتفكير، من جميع الكتب الموجودة من كتب الشيخين، فتضمن صفوتها، واحتوى على جواهرها وغررها، والحمد لله، والفضل لله...»[(٢)].

وقد بلغت هذه الضوابط والقواعد ١٠١٥، انتقاها من أكثر من ستين كتاباً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد فرغ من اختيارها وجمعها في ١٧ شعبان ١٣٧٠هـ.

---

(١) طريق الوصول ص٣ و٤ و٢٣٥.

(٢) طريق الوصول ص٣١٨.

٩ ـ «القول السديد في مقاصد التوحيد»:

رسالة مختصرة، علَّق فيها ابن سعدي على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ركز فيها على ذكر مناسبة الأبواب للترجمة، وقد طبع المختصر بحاشية كتاب التوحيد.

وقد بدأه ابن سعدي بمقدمة تشمل على صفوة معتقد أهل السنة والجماعة، وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة، جاء فيها: «... أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود المتفرد بكل كمال، فيعبدونه وحده؛ مخلصين له الدين...».

وقال في آخره: «... وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد، وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها»[(١)].

١٠ ـ «الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة»:

هذا الكتاب وافق اسمه مسمَّاه، ولفظه طابق معناه، حيث تنقَّل المؤلف بالقارئ من بستان على بستان، وأخذ يقطف أنواع الثمار عبر اثنين وثلاثين فصلاً عقدها في آداب وأخلاق ومعاملات وسلوك.

جاء في مقدمة هذا الكتاب: «... أما بعد، فهذه كلمات طيبات نافعات، ومقالات متنوعة في المهم من أصول الدين وأخلاقه وآدابه، وهاك فصولاً منشورة في مواضيع متعددة نافعة...»[(٢)].

وجاء في آخرها: «... تم والحمد لله رب العالمين بخط عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان، نقله من خط مؤلفه في ٢٠ رجب ١٣٧٠هـ...»[(٣)].

(١) مقدمة وآخر القول السديد ص٦ و٥٣.
(٢) مقدمة الرياض الناضرة ص١.
(٣) آخر الرياض الناضرة ص٢٧٥.

١١ ـ «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»:

نازل فيه العلامة ابن سعدي جميع طوائف الملحدين، وتحداهم، وأبطل أصولهم، وفنَّد مآخذهم، وهدم قواعدهم، وزلزل بنيانهم، وبيَّن مخالفتهم للعقل والفطرة والحكمة كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة، وقد ذكر في ثلاثة وثمانين وجهاً أبطل فيها أصول الملحدين وسدَّ عليهم الطريق من كل وجه.

قال في مقدمته: «. . . وقد بيَّن الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم ـ الملحدين ـ، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء، ومن أبلغ من تكلَّم عليها وأبطلها شرعاً وعقلاً شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فإنه بين عدَّة وجوه في فسادها وبطلانها، كل وجه منها كاف في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت؟! فنقل كلامه عليها، ثم نتمِّم ذلك بما يسَّره الله. . .»[١].

وقد فرغ من تأليفها في ١٤ رجب ١٣٧٢هـ.

١٢ ـ «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»:

رسالة صغيرة، ردَّ فيها العلامة ابن سعدي على المنتكس عبد الله بن علي القصيمي، الذي ألحد في آخر حياته، وارتكس في الكفر والإلحاد، فأصبح يعادي الإسلام، ويكيد له، ويتَّهمه بالرجعية والجمود، ويصف شرائعه وتعاليمه وفرائضه بالأغلال والقيود، وسمَّى كتابه الشنيع الذي كشف فيه عن كفره وزيفه وضلاله «هذي هي الأغلال»، وقد خدم أعداء الملة خدمة عظيمة، إذ لم يتجرأ أحد من الكفار أن يقول ما قاله القصيمي، حيث دعا إلى الإلحاد وإنكار وجود الله والسخرية من الرسل والرسالات والاستهزاء بأصحاب رسول الله ﷺ وعلماء الإسلام، وأنكر أشياء معلومة من الدين بالضرورة، وأوغل في الزيغ والضلال، نسأل الله السلامة والعافية، وقد تصدَّى له السعدي، وفنَّد مزاعمه، وردَّ كيده وضلاله، ودافع عن الدين وأهله دفاعاً صادقاً.

(١) الأدلة القواطع ص٧.

قال في مقدمة رسالته: «... أما بعد، فإني قد وقفت على كتاب صنَّفه عبد الله بن علي القصيمي، سماه «هذي هي الأغلال»؛ فإذا هو محتو على نبذ الدين والدعاية إلى نبذه والانحلال عنه من كل وجه، وكان هذا الرجل قبل كتابته وإظهاره لهذا الكتاب معروفاً بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح... ولكن لما كتب هذا الكتاب وطبعه ونشره بين الناس وجعله دعاية بليغة لنبذ دين الإسلام بله غيره من الديانات والمبادئ الخلقية، فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين؛ وجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوي عليه كتابه من العظائم؛ خشية اغترار من ليس له بصيرة بكلامه، حيث كان معروفاً قبل ذلك من علماء المسلمين...»[١].

وقد فرغ منه مؤلفه في ٣ ربيع الآخر ١٣٦٦هـ.

١٣ ـ «الدرة المختصرة في محاسن دين الإسلام»:

رسالة مختصرة ذكر فيها طرفاً من محاسن الدين الإسلامي ومزاياه، وقد ذكر فيها واحداً وعشرين مثلاً تنبأ عن محاسن الشريعة الإسلامية ومزاياها.

جاء في مقدمة الرسالة قوله: «... وغرضي من هذا التعليق إبداء ما وصل إليه علمي من بيان أصول محاسن هذا الدين العظيم...».

«... وفي معرفة هذا العلم فوائد متعددة:

ـ منها: أن الاشتغال في هذا الموضوع الذي هو أشرف المواضيع وأجلها من أفضل الأعمال الصالحة...

ـ ومنها: أن معرفة النعم والتحدث بها قد أمر الله به ورسوله، وهو من أكبر الأعمال الصالحة...

ـ ومنها: أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتاً عظيماً، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشد تعظيماً له وسروراً به وابتهاجاً؛ كان أكمل إيماناً وأصح يقيناً...

(١) تنزيه الدين وحملته ص٣.

ـ ومنها: أن من أكبر الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه من المحاسن التي يقبلها ويتقبلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة...

واعلم أن محاسن الدين الإسلامي عامَّة في جميع مسائله ودلائله، وفي أصوله وفروعه، وفيما دلَّ عليه من علوم الشرع والأحكام، وما دلَّ عليه من علوم الكون والاجتماع...»(١).

وقد فرغ من تأليفها في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٦٤هـ.

١٤ ـ «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية»:

هذا الكتاب اختصار لشرح موسع لتوحيد الأنبياء والمرسلين الذي أفاض فيه العلامة ابن القيم في «نونيته» الرائعة، رأى ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ أن يختصر شرحه الموسع؛ ليكون ذلك أدعى لقراءته والانتفاع به.

وقد وضح ذلك في مقدمة هذا المختصر، فقال: «... أما بعد؛ فقد كنت وضعت شرحاً على توحيد الأنبياء والمرسلين من «الكافية الشافية» للمحقق شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، أطلت فيه، وأكثرت فيه من النقول عن كتب المؤلف، فبدا لي أن ألخصه بشرح متوسط، يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده...»(٢).

فرغ منه مؤلفه في ٣ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ.

١٥ ـ «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»:

بيَّن فيه أن شجرة الإيمان أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها، وأن عروقها وأصولها وقواعدها الإيمان وعلومه ومعارفه، وساقها وأفنانها شرائع الإسلام والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ، وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر السَّمت الحسن والهدي الصالح والخلق الحسن واللهج بذكر الله وشكره والثناء عليه والنفع لعباد الله.

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات ابن سعدي، الثقافة ١/٣٠٩ ـ ٣١١، بتصرف.

(٢) مقدمة الحق الواضح المبين ص٣.

قال المؤلف في مقدمة هذه الرسالة معرفاً بها: «... أما بعد؛ فهذا الكتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين وأعظم أصول الحق واليقين، مستمداً ذلك من كتاب الله الكريم الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقاً لا مزيد عليه، ومن سنة نبيه محمد ﷺ التي توافق الكتاب وتفسره وتعبر عن كثير من مجملاته وتفصل كثيراً من مطلقاته؛ مبتدئاً بتفسيره؛ مثنياً بذكر أصوله ومقوماته ومن أي شيء يستمد؛ مثلِّثاً بفوائده وثمراته وما يتبع هذه الأصول...»[(١)].

١٦ ـ «توضيح الكافية الشافية»:

أوضح فيه ابن سعدي «نونية ابن القيم»، وشرحها شرحاً إضافياً لا تعقيد فيه ولا التواء، فقربها للراغبين بعبارة سهلة ميسرة.

قال في مقدمة هذا الكتاب النفيس: «... أما بعد؛ فهذا توضيح لمعاني «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» لشمس الدين ابن القيم قدس الله روحه؛ لكون هذا الكتاب عديم النظير في استيفائه لأصول الدين والرد على الجهمية والمعطلة والملحدين بالنقول الصحيحة والأصول السلفية والقواعد والعقول الصريحة، وفيه من الفوائد الفرائد وما تصح وتكمل به العقائد ما لا يوجد في كتاب سواه، ولما كان النظم بعيد المنال، ودلالته على المعنى المراد يكثر فيها الاشتباه والإشكال؛ أحببت أن أقربه للقارئين؛ بحله إلى معناه المنثور فقط...»[(٢)].

وقد فرغ منه مؤلفه في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ.

١٧ ـ «الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية»:

«المنظومة التائية في القدر» لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة لطيفة، فيها من التحقيق والتدقيق والغوص في بعض القضايا العقدية الكبيرة الشيء الكثير، وقد نظمها ابن تيمية جواباً لسؤال أورده عليه من قال: إنه ذمي؛ ليشبه على المسلمين، وليشككهم في أصول الدين.

---

(١) مقدمة التوضيح والبيان ص٥.

(٢) مقدمة توضيح الكافية الشافية ص٣.

ولما رأى ابن سعدي الحاجة ماسَّة إلى شرحها، وكثر عليه طلب محبِّيه وطلابه أن يتولى شرحها؛ أجابهم لطلبهم.

يقول في مقدمة هذه الرسالة: «. . .أما بعد؛ فقد طلب مني بعض الإخوان أن أشرح المنظومة التائية في القدر لشيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية؛ لما فيها من التحقيق العظيم في مسألة القضاء والقدر، ولمتانتها، وصعوبة فهمها، واحتياجها إلى شرح متوسط يوضحها ويكشف عن معانيها، ولكون المقام الموضوع مقاماً مهماً جداً، والحاجة ـ بل الضرورة ـ داعية إلى علمه والتحقيق به معرفة واعتقاداً. . . لذلك أجبت السائل لما طلبه. . .»(١).

وقد أتمها مؤلفها في ٣٠ ربيع الثاني ١٣٧٦هـ، ويلاحظ أنها قبيل وفاته بأقل من شهرين، فهي من آخر مؤلفاته رحمه الله تعالى.

١٨ ـ «سؤال وجواب في أهم المهمات»:

رسالة لطيفة، ضمنها المؤلف اثنين وعشرين سؤالاً مهماً في أمر العقيدة، وأجاب عليها؛ تقريباً لذهن القارئ، وتيسيراً عليه، وتتميماً لحصول الفائدة منها.

قال في مقدمتها: «. . . أما بعد؛ فهذه رسالة مختصرة، احتوت على أهم المهمات من أمور الدين وأصول الإيمان، تدعو الحاجة والضرورة إلى معرفتها، جعلتها على وجه السؤال والجواب؛ لأنه أقرب على الفهم والتفهيم، وأوضح في التعلم والتعليم. . .»(٢).

١٩ ـ «انتصار الحق» (محاورة دينية اجتماعية):

رسالة صغيرة، وهي صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين يدينان بالدين الحق ويشتغلان في طلب العلم جميعاً، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة، ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله، وتبدلت

---

(١) مقدمة الدرة البهية ص١١. انظر: مقدمة انتصار الحق ص٤.

(٢) مقدمة سؤال وجواب ص٤.

أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك، فإذا هو قد تغلب عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون... ثم دارت بينهما المحاورة، واستطاع الناصح إقناع صاحبه، فأعاده إلى رشده، وأخذ بيده بعد الضياع والبعد عن الله.

وكانت هذه الرسالة في بدايتها عبارة عن مقالات نشرت في «مجلة المنهل» عام ١٣٦٧هـ[(١)].

وهذا اللون من الكتابة يوضح بجلاء قدرة العلامة ابن سعدي على إقناع القارئ والوصول إلى قلبه وعقله بأقصر الطرق وأيسر السبل.

٢٠ ـ «الدين الصحيح يحل جميع المشاكل»:

رسالة لطيفة، بين فيها المؤلف رحمه الله أن الدين الإسلامي أوجد الحلول الجذرية لكل ما جد وما يوجد في المجتمع من المشاكل والمصاعب، وأن كل ما يحار الناس في حكمه؛ عليهم أن يفيئوا إلى الإسلام؛ ليجدوا فيه الحل الشافي الكافي.

يقول في مقدمتها: «... أما بعد؛ فهذه كلمات تتعلق بموضوع الدين الإسلامي، وأنه يهدي للتي هي أقوم وأصلح، ويرشد العباد في عقائده وأخلاقه ومعاملاته وتوجيهاته وتأسيساته إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم...

لهذا؛ ينبغي أن نذكر بعض مشاكل الحياة المهمة؛ مثل مشكلة الدين، ومشكلة العلم، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحرب والسلم، والاجتماع والافتراق، والمحاب والمكاره، وغير ذلك مما اختلف فيها أنظار الناس وتوجيهاتهم، وما سلكه الدين الإسلامي فيها من المسالك الصالحة السديدة، وما أولاه نحوها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى...»[(٢)].

وقد فرغ منها المؤلف في الخامس من ربيع الآخر من عام ١٣٧٥هـ.

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات ابن سعدي الثقافة ١/٣٣٣ و٣٣٤.

(٢) سيرة ابن سعدي ص٢٣، المختارات الجليلة ص٤١٣، مشاهير علماء نجد ص٣٩٥.

٢١ ـ «فتح الرب الحميد في أصول العقائد والتوحيد»:

لم أعثر عليه مطبوعاً، وقد أشار له بعض من ترجموا للشيخ ابن سعدي، وذكر ابنه عبد الله أن الكتاب لم يطبع[(١)].

٢٢ ـ «مجموعة الفوائد واقتناص الأوابد»:

ذكره ابنه عبد الله في ترجمته لأبيه، وأشار إلى أنه لم يطبع[(٢)].

٢٣ ـ «التنبيهات اللطيفة احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة»:

رسالة صغيرة الحجم، عظيمة القدر، علق فيها المؤلف رحمه الله تعليقاً مختصراً مفيداً على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

جاء في مقدمة الرسالة: «... أما بعد؛ فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ«الواسطية»، التي جمعت ـ على اختصارها ووضوحها ـ جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة، وهي، وإن كانت واضحة المعاني، محكمة المباني، تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتبيين وجه دلالتها على المقصود، وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد، والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه...»[(٣)].

وفرغ من تأليفها في الثامن من جمادى الأولى من عام ١٣٦٩هـ.

٢٤ ـ «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة»:

رسالة صغيرة، ذكر فيها المؤلف الأسباب العامة والخاصة للحياة الكريمة الهادئة المطمئنة، ولقد أبدع رحمه الله، وكتب بعقل العالم وقلم المفكر.

جاء في مقدمتها: «... أما بعد؛ فإن راحة القلب وطمأنينته وسروره وزوال همومه وغمومه هو المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة ويتم

(١) سيرة ابن سعدي ص٢٣.
(٢) التنبيهات اللطيفة.
(٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات ابن سعدي الثقافة ٢/ ٤٨١.

السرور والابتهاج، لذلك أسباب دينية وأسباب طبيعية وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين... ولكني سأذكر برسالتي هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلى الذي يسعى له كل أحد...»[(١)].

٢٥ ـ «منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة»:

هذه المنظومة تبلغ ثمانية عشر بيتاً، نظمها في الحث على الاستقامة والإقبال على اله والاستعداد للآخرة، ثم علق عليها تعليقاً موجزاً مفيداً.

قال في مقدمته: «.. هذا تعليق لطيف على منظومتي في السير إلى الله والدار الآخرة؛ يحل معانيها، ويوضح مبانيها...»[(٢)].

ومطلع منظومته قوله:

«سعد الذين تجنَّبوا سُبُل الرَّدَى ... وتَيَمَّمُوا لِمنازِلَ الرُّضْوانِ»

٢٦ ـ «رسالة عن يأجوج ومأجوج»:

رسالة صغيرة، ذكر فيها حال يأجوج ومأجوج، وذكر أنهم موجودون الآن.

جاء في مقدمتها: «... اعلم أن من تأمل ما ذكره الله في كتابه عن يأجوج ومأجوج، وما ثبت بسنة النبي ﷺ عنهم، وما اشتمل عليه الوحي من صفاتهم، وعلم ما ذكره المؤرخون في قصة ذي القرنين، وعرف الواقع والمحسوس، وما على وجه الأرض من أصناف بني آدم، فمن عرف ذلك؛ تيقن يقيناً لا شك فيه أنهم هم الأمم الذين كانوا وراء البحار؛ كالترك،

---

(١) مقدمة شرح منظومة السير إلى الله ص١٣٣.

(٢) انظر: رسالة عن يأجوج ومأجوج ص١ و٣٢ ـ مخطوط.

وهنا أحب أن أؤكد أن الشيخ ابن سعدي مرجوح، فالواقع والمحسوس الذي استدل به أثبت أنهم غير يأجوج ومأجوج، إذ اختلط العالم بعضه ببعض وأصبح بينهم علاقات وتعامل في شتى المجالات، والنصوص تقتضي أن يأجوج ومأجوج لا سلطان لهم ولا حول ولا قوة؛ إلا إذا أذن الله بذلك في آخر الزمان، ثم أين السد على رأي الشيخ؟ وأين خوارق العادات التي يجربها الله على أيديهم؟ كل هذا يقتضي بأن كلامه غير مسلَّم به، والعلم عند الله تعالى.

واليونان، ودول البلقان، والفرنسيين، والألمان، والطليان، والروس، واليابان، والأسبان، ومن تبعهم من أنواع الأمم، والأمريكان، وتوابعهم. . .».

والرسالة في اثنين وثلاثين صفحة، وخطها جميل، وهي مخطوطة فرغ المؤلف منها في التاسع من شهر ذي القعدة عام ١٣٦٢هـ[1].

المطلب الرابع

الفقه وأصوله

٢٧ ـ «المختارات الجلية في المسائل الفقهية»:

هذا أحد الكتب التي تعبر عن اجتهاد وترجيح الشيخ السعدي، حيث رغَّب إليه بعض محبيه أن يضع استدراكاً على كتب الأصحاب الحنابلة، لكنه لم يتيسر له الوقت الكافي، فرأى أن يضع مختصراً بمثابة الاستدراك على أحد الكتب، وهو «الروض المربع شرح زاد المستنقع في اختصار المقنع»؛ لأنه رأى أنه أكثر كتب الأصحاب انتشاراً، وهو المتداول بين طلاب العلم.

لكن المتأمل لهذه الاجتهادات والترجيحات؛ يرى أن ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ وافق فيها كثيراً ابن تيمية وابن القيم، وقلما ينفرد بترجيح مستقل.

يقول في مقدمة هذا الكتاب: «. . . أما بعد؛ فإنه قد تكرر السؤال من بعض الأصحاب على وضع كتاب في فقه أصحابنا من الحنابلة على وجه يتضح به ما نختاره ونصححه من المسائل الفقهية ونشير إلى شيء من مآخذها وأدلتها، فلم تمكني فرصة لأداء هذا الطلب. . . ويوجد في كثير من الأبواب بعض مسائل قد يكون الراجح غيرها، وقد تكرر مرورها أو مرور بعضها في المباحثة والتعلم والتعليم، فكان من المصلحة المهمة جداً تقييد مثل هذه المسائل؛ فلذلك أحببت تقييد ما تيسَّر منها، ورأيت «شرح مختصر المقنع» للشيخ منصور البهوتي أكثرها استعمالاً وأنفعها للطلبة في هذه الأوقات،

(١) المختارات الجلية ص٦.

فأحببت أن أجعل هذا التعليق كالاستدراك عليه والتنبيه على ما ذكره خصوصاً، ليكون تنبيهاً على غيره من كتب الأصحاب عموماً. . .»[(١)].

وقد فرغ من تأليفه في ٣ صفر ١٣٥٥هـ.

٢٨ ـ «المناظرات الفقهية»:

هذا نوع فريد من التأليف، أبدع فيه ابن سعدي، وهذا يؤكد منهجه المتميز في التعليم، حيث سلك طرقاً شتى لإيصال المعلومات إلى طلابه، وقد وفق إلى حد كبير، وقد اختار في هذا الكتاب مجموعة من المسائل الهامة التي كثر فيها الخلاف، فعرضها على شكل مناظرة بين اثنين، سمى أحدهما المتوكل على الله، والثاني المستعين بالله، ثم يدور الحوار بينهما، ويتم الاستدلال والمناقشة، حتى ينتهي إلى ترجيح أحد الرأيين؛ لقوة مأخذه.

يقول في مقدمة هذا الكتاب: «. . .لهذا؛ أحببت أن أضع في هذا التعليق عدة مسائل من مسائل الفقه المختلف فيها بين العلماء مما اشتهر به الخلاف، وكان الخلاف فيها له أهمية، وأجعلها على صورة مناظرة بين مستعين بالله ومتوكل على الله؛ لأن في جعلها على هذه الصورة فوائد كثيرة:

ـ منها: تيسير مأخذ القولين ووجودهما في محل واحد، وذلك من مقربات العلم.

ـ ومنها: التمرن على المناظرة والمباحثة التي هي من أكبر الوسائل لإدراك العلم وثبوته وتنوعه.

ـ ومنها: التمرن على الاستدلال والرجوع إلى أصول المسائل، ليصير للعبد ملكة تامة يحسن معها الاستدلال والمناظرة والنظر.

ـ ومنها: أن يعود الإنسان نفسه سرعة قبول الحق إذا اتضح له صوابه وبان له رجحانه.

ـ ومنها: أن يعلم أن الخلاف في مثل هذه المسائل بين أهل العلم لا

---

(١) المناظرات الفقهية ص١٧٧ ـ ١٧٨.

يوجب القدح والعيب والذم...»[١].

وقد فرغ المؤلف من تأليفه في ٨ جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ.

٢٩ ـ «الفتاوى السعدية»:

مجموعة من الفتاوى والكتابات وإجابات لأسئلة كثيرة جمعت في مجلد بهذا الاسم، ومن تصفحها؛ لمس مكانة الشيخ العلمية وعبقريَّته الفذَّة وقدرته على تطبيق النصوص على النوازل، وذلك يتضح جلياً في فتاواه في بعض المستجدات والحوادث، وهذا ما يميز العلماء عن بعضهم.

جاء في مقدمة الكتاب: «... وبعد وفاته اطلعنا على فتاوى وكتابات وأسئلة وأجوبة كتبها بيده، ونعتقد أنها نافعة في بابها، وملائمة لوقتنا الحاضر، ولكثرة المتشوقين من إخواننا إلى مراجعتها والانتفاع بها؛ قيدناها مرتبة على حسب عادة مصنفي فقهائنا الحنابلة رحمهم الله، ولم نعتمد في كتاباتنا هذه من فتاواه إلا ما رأيناه بخط يده، ليكون ذلك أوثق وأبلغ طمأنينة...»[٢].

لقد كان الشيخ ابن سعدي يجيب سائليه مشافهة وكتابة، حيث كانت الأسئلة ترد إليه من داخل المملكة وخارجها، وهو يجيب عليها حسب ما يقتضيه الحال والسؤال، وقد أشار إلى ذلك بعض طلابه في ترجمتهم له كما مر معنا[٣].

٣٠ ـ «إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطريق وأيسر الأسباب بطريق مرتب على السؤال والجواب»:

هذا الكتاب سلك فيه ابن سعدي طريقة من الطرق العلمية في إيصال المعلومات إلى ذهن القارئ، ذلك أنه وضع أسئلة كثيرة، وتولى بنفسه الإجابة عليها؛ شحذاً لهمة القارئ، وتيسيراً عليه، وحرصاً على إيصال المعلومات له بأقصر الطرق.

---

(١) مقدمة الفتاوى السعدية ص٤.

(٢) علماء نجد ٢/ ٤٢٤. وانظر: طريقته في التأليف.

(٣) مقدمة إرشاد أولي الأبصار ص٢.

يقول في مقدمة هذا الكتاب: «... أما بعد؛ فهذا تصنيف بديع المأخذ، سهل المنزع، يمهِّد لطالب العلم من طرق التعلم والتعليم وحصول الفهم والتفهيم ما يوصله إلى خير كثير وعلم غزير؛ لأني اجتهدت في تحرير أسئلة جوامع لمهمات مسائل الدين، تاركاً ما لا تدعوا الحاجة إليه غالباً؛ معمماً للسؤال أو مطلقاً له؛ ليكون جوابه يحتوي على تفصيلات وتقسيمات؛ تقرب أشتات المسائل، وتضم متفرقاتها، وتنوع أحكامها، وتفاوت بين أقسامها؛ بحسب تباين أسبابها وعللها...»[(١)].

وقد فرغ منه مؤلفه في ١٧ رمضان ١٣٥٨هـ.

٣١ ـ «حكم شرب الدخان»:

رسالة لطيفة، ذكر فيها حرمة الدخان شرباً وبيعاً وشراء وإعانة على ذلك.

يقول في مقدمتها: «...أما الدخان؛ شربه والاتجار به والإعانة على ذلك؛ فهو حرام، لا يحل لمسلم تعاطيه شرباً واستعمالاً واتجاراً...

وذلك أنه داخل في عموم النصوص الدالة على التحريم، داخل في لفظها العام وفي معناها، وذلك لمضارِّه الدينيَّة والبدنيَّة والماليَّة، التي يكفي بعضها في الحكم بتحريمه؛ فكيف إذا اجتمعت؟!...»[(٢)].

وقد فرغ منها المؤلف في شهر ربيع الأول من عام ١٣٧٦هـ، ويلاحظ أنها من آخر مؤلفاته، حيث توفي بعد هذا التاريخ بثلاثة أشهر تقريباً.

٣٢ ـ «الجهاد في سبيل الله»:

رسالة لطيفة، تحث على الألفة والتعاون بين أفراد المسلمين وحكوماتهم؛ كما تحث على الإعداد والجهاد لمنازلة الأعداء.

جاء في تقديم هذه الرسالة: «... أيها القارئ! بين يديك هذه الرسالة النيرة التي تدعو إلى الوحدة الإسلامية بين حكومات المسلمين وأفرادهم،

---

(١) حكم شرب الدخان ص١٦.

(٢) تقديم رسالة الجهاد بقلم الشيخ علي الحمد الصالحي ص٥.

وتخطط لهم المخططات التي توصلهم إلى ساحل النجاة والسعادة. . .»[١].

وهي رسالة غير مؤرخة، وجدها أبناء الشيخ ابن سعدي بعد وفاته ضمن أوراقه.

يقول في مقدماتها: «. . . وقد أوجب الله على المؤمنين الجهاد في سبيله والاعتصام بدينه الذي هو حبله، والدعوة إلى ذلك، والألفة، والاجتماع، والتعاون على الخير والبر والتقوى، والاستعانة بالله في جميع أمورهم. . .».

٣٣ ـ «وجوه التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني وبيان كليات من براهين الدين»:

وهذه الرسالة قريبة في عنوانها ومحتواها من الرسالة السابقة، ولكنها في الواقع مختلفة عنها، حيث ضمنها مجموعة من الضوابط الكلية والبراهين على أن دين الإسلام هو الدين الحق، مع ذكر براهين من الواقع المحسوس، وقد كتبها الشيخ ابن سعدي بأسلوب سهل ميسر، فجاءت جليلة النفع، عظيمة القدر، وافية بالمقصود.

يقول الشيخ معرفاً بهذه الرسالة: «. . . أما بعد؛ فهذه الرسالة تتضمن التنبيه على واجب المسلمين نحو دينهم، ووجوب التعاون بينهم في جميع المصالح والمنافع الكلية الدينية والدنيوية، وعلى موضوع الجهاد الشرعي، وعلى تفصيل الضوابط الكلية في هذه المواضيع النافعة الضرورية، وعلى البراهين اليقينية في أن الدين عند الله هو دين الإسلام. . .»[٢].

فرغ منها المؤلف في ٢٠ رمضان ١٣٦٧هـ.

٣٤ ـ «حاشية على الفقه» (غير مطبوع):

هذا الكتاب ذكره ابنه عبد الله في ترجمته، وأشار إلى أنه استدراك على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي، لكنني بعد طول عناء لم أعثر عليه، ولم أجد من يعرف عنه شيئاً، وقد يكون هناك خلط بينه وبين

---

(١) رسالة الجهاد في سبيل الله ص٧.

(٢) مقدمة وجوب التعاون بين المسلمين ص٣.

المختارات الجلية السابقة التي هي بمثابة استدراك على «شرح مختصر المقنع» للبهوتي، وفوق كل ذي علم عليم.

٣٥ ـ «الجمع بين الإنصاف ونظم ابن عبد القوي»:

كتاب مخطوط، وصل فيه ابن سعدي إلى كتاب الحج فقط، يظهر أن الشيخ كان حريصاً على شرح «المنظومة»، لكن لم يسعفه الوقت، فجمع معها «الإنصاف» للمرداوي بمثابة الشرح لها، ويوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الجامع في عنيزة، ولعل الله ييسر أمر إخراجها عاجلاً، إذ لدي الرغبة والعزيمة على ذلك إن شاء الله.

٣٦ ـ «منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين»:

رسالة لطيفة، اقتصر فيها المؤلف رحمه الله على ذكر القول الراجح بدليله.

جاء في مقدمتها: «... أما بعد؛ فهذا كتاب مختصر في الفقه، جمعت فيه بين المسائل والدلائل؛ لأن العلم معرفة الحق بدليله، والفقه معرفة الأحكام الشرعية الفرعية بأدلتها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح، واقتصرت على الأدلة المشهورة؛ خوفاً من التطويل، وإذا كانت المسألة خلافية؛ اقتصرت على القول الذي ترجح عندي تبعاً للأدلة الشرعية...»[1].

وجاء في نهاية الرسالة: «علقه العلامة الفهَّامة الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، وتم نقله في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣هـ، بقلم الفقير إلى الله الغني عبد الله بن سليمان السلمان غفر الله له ولوالديه ولكافة المسلمين»[2].

٣٧ ـ «منظومة في أحكام الفقه»:

منظومة طويلة، تربو على أربع مئة بيت، تعرض فيها لكثير من الأحكام الفقهية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد نظمها وهو في مقتبل عمره،

(١) مقدمة منهج السالكين ص٧.

(٢) منهج السالكين ص١٢٠.

لم يصل الثلاثين، فجاءت قوية في مبناها ومعناها، يقول في مطلعها:

«وهذه منظومة قصدي بها تيسير أحكام قد اعتنوا بها
في فقه أحكام تفيد المبتدي من كتب أصحاب الإمام أحمد
أرجو من الرحمٰن تتميماً لها في اللفظ والمعنى خلاصاً لها»[1]

فرغ منها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في ٢٦ شوال ١٣٣٣هـ.

٣٨ ـ «القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة»:

كتاب بديع، ذكر فيه المؤلف ستين قاعدة من القواعد التي تُبنى عليها الأحكام، ثم أردفه بفروق وتقاسيم بين المسائل المتشابهة المختلفة.

قال في مقدمته: «. . . أما بعد؛ فإن معرفة جوامع الأحكام وفوارقها من أهم العلوم وأكثر فائدة وأعظمها نفعاً؛ لهذا جمعت في رسالتي هذه ما تيسَّر من جوامع الأحكام وأصولها، ومما تفترق فيه الأحكام لافتراق حكمها وعللها، وقسمتها إلى قسمين: القسم الأول: في ذكر ما تجتمع فيه الأحكام من الأصول والقواعد. . . القسم الثاني: في ذكر الفوارق بين المسائل المشتبهة والأحكام المتقاربة. . .»[2].

وقد فرغ منها المؤلف في ٢ ربيع الآخر ١٣٧٥هـ.

٣٩ ـ «رسالة في القواعد الفقهية»:

منظومة لطيفة، تبلغ سبعة وأربعين بيتاً، نظمها في أمهات قواعد الدين ومسائله، وقد ذكر فيها معظم القواعد الفقهية التي تنتظم الأحكام الشرعية.

ومطلعها:

«الحمد لله العلي الأرفق وجامع الأشياء والمُفرق»

إلى أن قال:

«وهذه قواعد نظمتها من كتب أهل العلم قد حصلتها»

---

(١) منظومة في أحكام الفقه ص٦٢، ضمن مجموعة رسائل أخرى.

(٢) مقدمة القواعد والأصول الجامعة ص٣ ـ ٤.

قال المؤلف في مقدمته لها: «... أما بعد؛ فإني وضعت لي ولإخواني منظومة مشتملة على أمهات قواعد الدين، وهي؛ وإن كانت قليلة الألفاظ؛ فهي كثيرة المعاني لمن تأملها، ولكنها تحتاج إلى تعليق يوضحها ويكشف بعض معانيها، وأمثلتها تنبه اللبيب الفطن على ما وراء ذلك، فوضعت عليها هذا الشرح اللطيف؛ تيسيراً لفهمها...»(١).

وقد فرغ منها المؤلف في ١٨ ذو القعدة ١٣٣١هـ، وعمره إذ ذاك لم يتجاوز الرابعة والعشرين، فعليه الرحمة والرضوان.

٤٠ ـ «رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة»:

رسالة صغيرة جداً، لا تتجاوز عشرين صفحة، من الحجم الصغير، ذكر فيها: تعريف أصول الفقه، والأحكام التي يدور الفقه عليها، والأدلة التي يستمدُّ الفقه منها، والمتفق عليها، والمختلف فيها، ثم ذكر طرفاً من القواعد التي يحتاج إليها طالب العلم.

جاء في مقدمة هذه الرسالة: «... أما بعد؛ فهذه رسالة لطيفة في أصول الفقه، سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، معينة على تعلُّم الأحكام لكل متأمل معاني...»(٢).

جاء في آخرها: «وتم نقلها بعون الله تعالى وتيسيره في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ بقلم الفقير إلى ربه عبد الله السليمان السلمان غفر الله له ولوالديه والمسلمين»(٣).

المطلب الخامس
الخُطب

٤١ ـ «الخطب المنبرية على المناسبات»:

جمع فيه ثلاثين خطبة تقريباً، تشمل مناسبات العام بأسلوب رائع

(١) مقدمة رسالة في القواعد الفقهية ص٥، ٧، ١٣.
(٢) مقدمة رسالة في أصول الفقه ص١٢٢ ـ مع رسالة في الفقه.
(٣) خاتمة رسالة في أصول الفقه ص ـ ١٣٨ ـ مع رسالة في الفقه.

ومعالجة عصرية فريدة، والخطبة الأولى في الاعتصام بالله من الشيطان، والثانية بعد نزول الغيث، والأخيرة في بعثة النبي الكريم[١].

٤٢ ـ «مجموع الخطب في المواضيع النافعة»:

جاء في مقدمته: «... أما بعد؛ فقد كان النبي ﷺ يخطب الناس خطباً عامة وخطباً خاصة وخطباً راتبة في الجمع والأعياد ونحوها، وخطباً عارضة بحسب الأسباب والدواعي، وكانت خطبه كلها دعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم، وتوضيحاً للأصول النافعة والأعمال الصالحة، وترغيباً في أصناف الخيرات والإحسان إلى المخلوقات... ولما كنت في الخطابة؛ كنت أنشئ جهد طاقتي خطباً على هذه الطريقة؛ مراعياً لأحوال الناس والوقت، فأحببت أن أقيدها هنا؛ خوف الضياع، ورجاء الانتفاع...».

وجاءت في حدود الستين خطبة، جاء في آخرها: «... تمَّ ما قصدنا جمعه من الخطب النافعة، المحتوية على أهم المواضيع الجامعة للعقائد والأخلاق والآداب الدينية والدنيوية، بأوضح أسلوب، وأبين العبارات المناسبة للوقت».

فرغ المؤلف رحمه الله في الثاني والعشرين من شهر رجب من عام ١٣٦٥هـ رحمه الله رحمة واسعة[٢].

٤٣ ـ «الفواكه الشهية في الخطب المنبرية»:

مجموعة من الخطب بلغت إحدى وسبعين خطبة في مواضيع متفرقة ولمناسبات متعددة.

جاء في مقدمتها: «... وبعد؛ فهذه خطب استجدت بعدما جمعنا الخطب السابقة ونشرناها، أحببنا جمعها ونشرها؛ لتعم الفائدة، ولو كانت في موضوع واحد أو مواضيع متقاربة؛ اكتفينا بالخطب الأول، لما فيها ـ ولله الحمد ـ من حصول المقصود، ولكن هذه الخطب كالأول، جمعت بين الوعظ

---

(١) انظر: المجموعة الكاملة الخطب ص٥.

(٢) المجموعة الكاملة، الخطب ص١٨٧ و٢٩٤.

والتعليم والتوجيهات للمنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية بأساليب متنوعة. . . »[١].

وجاء في آخرها: «تم نقل هذه المجموعة من خطب الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي سنة ١٣٧٢هـ، غفر الله له ولوالديه، في ١٢ من شهر ربيع الأول من خط المؤلف، بقلم الفقير إلى الله في كل أحواله عبد الله بن سليمان بن عبد الله السلمان، غفر الله له ووالديه»[٢].

وبهذا يتبين أن للشيخ ابن سعدي ثلاثة كتب في الخطب؛ هي:

- «الخطب المنبرية على المناسبات».
- «مجموع الخطب في المواضيع النافعة».
- «الفواكه الشهية في الخطب المنبرية».

تضاف إلى ما خلفه المؤلف رَحِمَهُ الله من علم غزير فيما يتعلق بشؤون الناس في دينهم ودنياهم.

وليت شعري، فالمطلع على هذه الخطب يحسُّ أنها تخاطب القلوب قبل العقول، وهذا سرُّ تأثير الشيخ العجيب على مستمعيه في دروسه وخطبه ولقاءاته، فرحمه الله، وأسكنه فسيح جنانه.

المطلب السادس

اللغة العربية

وقفت على كتاب واحد له في اللغة لا يزال مخطوطاً عنوانه:

٤٤ ـ «التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب»:

عدد صفحات الرسالة (٢٢صفحة)، شرح ابن سعدي في هذه الرسالة منظومة قواعد الإعراب لابن هشام.

جاء في مقدمة هذه الرسالة: «أما بعد؛ فهذا تعليق على نظم قواعد

---

(١) مقدمة الفواكه الشهية ص٤.

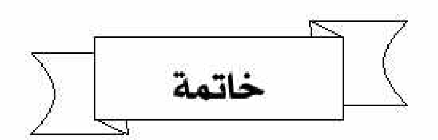
(٢) آخر الفواكه الشهية ص١٨٩.

الإعراب، نقلته من شرح الشيخ خالد الأزهري على أصله، ذكرت منه ما يتعلق بهذا النظم، وحذفت منه ما يستغني عنه، ونقلت عباراته؛ إلا في شيء يسير، وأسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم...».

وفرغ الشيخ ابن سعدي من هذه الرسالة في سنة ١٣٣٤هـ، ويوجد منها أصل مخطوط عند الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام حفظه الله تعالى[١].



(١) الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ص٤٥.



خاتمة

هذا ما وقفت عليه من مؤلفات العلامة ابن سعدي، ولعل هناك شيئاً مخطوطاً لم نقف عليه.

كما أنني أؤكد على أن هناك فتاوى كثيرة له لا تزال حبيسة عند بعض طلابه ومحبيه، وقد عثرت على مجموعة لا بأس بها بخط المؤلف، وسوف أضمنها فتاواه بمشيئة الله، وهي ترى النور لأول مرة، ولله الحمد والمنة.

وأثناء إعداد هذا البحث، تكرم القائمون على مركز ابن صالح في الجمعية الصالحية بعنيزة بإهدائي نسخة من «المجموعة الكاملة لابن سعدي»، وهي خطوة مباركة، قام بها المركز وفاءً لهذا العالم الجليل، وقد رتبها المركز حسب الآتي:

أولاً: التفسير: ويقع في ثمانية مجلدات:

ـ سبعة منها في تفسير الشيخ ابن سعدي المسمى: «تيسير الكريم المنان».

ـ والمجلد الثامن تضمن كتابين عظيمين للمؤلف، أولهما: «القواعد الحسان لتفسير القرآن».

ـ والثاني: «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن».

ثانياً: الحديث: ويقع في جزء واحد صغير، وتضمن كتاب الشيخ الوحيد في الحديث «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار».

ثالثاً: العقيدة الإسلامية: ويقع في مجلد واحد، وقد تضمَّن الكتب التالية:

- «القول السديد في مقاصد التوحيد».
- «سؤال وجواب في أهم المهمات».
- «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان».
- «الدرة البهية شرح العقيدة التائية في حل المشكلة القدرية».
- «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية».
- «توضيح الكافية الشافية»..

رابعاً: الفقه: ويقع في مجلدين، يضمان الكتب التالية:

- «منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين».
- «المختارات الجلية من المسائل الفقهية».
- «الإرشاد إلى معرفة الأحكام».
- «المناظرات الفقهية».
- «مختارات من الفتاوى».
- «رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة».
- «القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة».
- «رسالة في القواعد الفقهية».

خامساً: الثقافة الإسلامية: ويقع في مجلدين يضمان الكتب التالية:

- «المواهب الربانية من الآيات القرآنية».
- «فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام».
- «الجهاد في سبيل الله».
- «وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني».
- «الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي».
- «الدرة المختصرة في محاسن الإسلام».

ـ «الدين الصحيح يحل جميع المشاكل».

ـ «الرياض الناضرة والحدائق الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة».

ـ «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول».

ـ «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين».

ـ «انتصار الحق».

ـ «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله».

ـ «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».

سادساً: الخطب: ويضم الكتب التالية:

ـ «الخطب المنبرية على المناسبات».

ـ «الفواكه الشهية في الخطب المنبرية»،

ـ «مجموع الخطب في المواضيع العامة».

سابعاً: الفتاوى: في مجلد واحد، ويضم الكتب التالية:

ـ «الفتاوى السعدية».

ـ «حكم شرب الدخان»(١).



(١) انظر: المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ ابن سعدي في ١٦ مجلداً.

المبحث الثامن

جهوده في خدمة كتاب الله

* **أولاً**: اعتنى العلامة ابن سعدي عناية فائقة في كتاب الله، وله اليد الطولى في التفسير، حيث أتم تفسيره العظيم الذي سجله من خلاله مراجعته لكتاب الله مع طلابه، حتى لقد حدّث بعضهم أنه كان يمليه إملاء من الذاكرة، وليس بين يديه كتاب تفسير فضلاً عن غيره، وهذا يدل على مكانة هذا الشيخ العلميَّة، وغزارة معلوماته في التفسير.

وقد ذكر سبب تأليفه له، وطريقته في التأليف، فقال: «...وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوِّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه.. ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسَّر وما منَّ به الله علينا؛ ليكون تذكرة للمحصِّلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيده خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم...».

وأوضح رحمه الله طريقته في تفسيره، فقال: «... اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكري ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه ﴿مَّثَانِيَ﴾ تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة

العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها...»[(١)].

وقد ذكر بعد المقدمة جملة تتعلق بتفسير القرآن الكريم، أخذها من كتاب: «بدائع الفوائد» لابن القيم رحمه الله، في حدود عشر صفحات، والناظر في تفسير السعدي الموسوم بـ«تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»؛ يجده تميَّز بميزات عديدة، من أهمها:

١ ـ اختصاره واقتصار على تفسير الآيات وبيان معانيها بأسلوب سهل واضح لا تعقيد فيه ولا التواء.

٢ ـ بعده عن الإغراق في المباحث اللغوية والتعقيدات النحوية التي تذهب بجمال التفسير وبهائه.

٣ ـ خلوه من الإسرائيليات التي امتلاء فيها كثير من التفاسير، بل إن المؤلِّف حذَّر منها في مواضع كثيرة، وأشار إلى هذا غير مرة عند تفسيره لبعض الآيات التي هي مظنة نقل الإسرائيليات عند تفسيره.

ومن ذلك قوله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآيات: «... اعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفسيرها من قصص بني إسرائيل، ونزّلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله...».

إلى أن قال: «...فلا يجوز أن تُجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة ـ التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها ـ معاني لكتاب الله مقطوعاً بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل...»[(٢)].

٤ ـ اعتنى الشيخ ابن سعدي في تفسيره بأمر العقيدة عناية فائقة، حتى جاء تفسيره بحمد الله من أفضل التفاسير السلفية التي بحثت أمور العقيدة على مذهب أهل السنة والجماعة.

---

(١) انظر: مقدمة التفسير ١/٢ ـ ٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ١/٤٦.

ولقد أفاض الشيخ في بعض الأمور التي خالف فيها طوائف من أهل الضلال، وناقش أدلتهم، وانتهى إلى ترجيح الحق، فجاء كتابه ليسدّ ثغرة في المكتبة الإسلامية كانت بأمس الحاجة إليها.

وكانت مباحثه العقديَّة تتميز بوضوح العبارة وسهولتها، وبناء دليل المخالف ثم هدمه من أساسه؛ لتتضح الصورة في ذهن القارئ، ويتحقق من رجحان الرأي الراجح دون أدنى شك.

٥ ـ امتاز تفسير العلامة السعدي بعدم الإسهاب في ذكر الأحكام، فجاء كتابه ليعرض الحكم الراجح بدليله، وهذا ما يحتاجه كثير من المسلمين، وأما طلاب العلم والباحثون؛ فعندهم تفاسير الأحكام التي أسهبت في عرض القضايا الخلافية، وتوسعت في ذكر المذاهب وأدلتها، وكل ينزع على قدر ما عنده.

٦ ـ أبدع ابن سعدي في عرض قصص الأنبياء واستنباط الفوائد منها، حيث ركَّز على هذا المنهج في تفسيره، فبعد قصة كل نبي من الأنبياء ﷺ يذكر الفوائد المستنبطة وما يحتاجه المسلم مما يقوي إيمانه ويربطه بخالقه، وهذا المسلك قلَّ من اعتنى به من المفسرين السابقين، وقد ألمح ابن سعدي إلى هذا في مقدمته.

٧ ـ كثيراً ما كان يذكر بعض الضوابط والقواعد والأصول التي ينبغي أن يعتني بها من يفسر القرآن، وكان يوجز فيها أحياناً ويسهب أحياناً أخرى[(١)].

٨ ـ اعتنى ابن سعدي بأسماء الله الحسنى، ومناسبة التذييل بها، وكان يشير إلى ذلك كثيراً، ويربط الآية بما ختمت به من أسماء الله.

٩ ـ حرص رحمه الله على بيان المعنى العام الإجمالي للآيات بأسلوب واضح سهل مأخوذ من الآيات نفسها.

١٠ ـ سجل في تفسيره ما ظهر له من ترجيحات في تطبيق بعض النصوص القرآنية على النوازل، وهذا الأمر يحتاج إلى عالم فذّ يدرك أبعاد

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ٥/ ٢٩٢.

النصوص ومراميها، ويربط بعضها ببعض، ثم يحكمها في النازلة؛ عكس أولئك الذين يلوون عنق النصوص، لتساير رغبات وأهواء الآخرين من حكام ومحكومين.

١١ ـ اعتنى ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأمر الدعوة وأساليبها، وبيَّن ما ينبغي أن يكون عليه الداعية، وركز رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الدعوة بالأسلوب المناسب والحال المناسبة؛ أخذاً من قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد طبَّق ابن سعدي هذا المنهج في حياته الواقعية، حيث كان يدعو إلى الله بكل لطف ولين، ولذا أحبَّه كل من عرفه وتعامل معه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

١٢ ـ اعتنى بمباحث علوم القرآن، وبيَّنها أتم بيان، بأسلوب واضح، بعيداً عن الخلافات الجانبية، فجاءت متممة لتفسيره ومكملة له.

هذه الأمور أبرز ما لاح لي من ميزات في هذا التفسير العظيم.

* **ثانياً**: ومن جهوده في خدمة كتاب الله كتابه الرائع: «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن».

ألَّف العلامة ابن سعدي هذا الكتاب ملخَّصاً لتفسيره المطوَّل، تبلغ صفحاته أربعاً ومئتين من القطع الكبير، اشتمل على أكثر من ستين فصلاً، قدم لها بمقدمة في ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة، ثم ذكر فصلاً في خلاصة الآيات المتعلقة بعلوم التوحيد والعقائد والأصول، ثم الآيات الكونية التي تدل على وحدانية الله، ثم الآيات المتعلقة بحقوق الله وحقوق الناس، ثم الآيات المتعلقة بفروع الشريعة من الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والجهاد والحج والبيوع... إلى غير ذلك من المباحث الفقهية المعروفة، ثم ذكر قصص الأنبياء، ثم عرَّج على تفسير كلمات جاءت في القرآن لعدة معاني؛ مثل: الأمة، والسلطان، واللسان.

وقد أشار الشيخ ابن سعدي إلى سبب تأليفه لهذا الكتاب، فقال في

مقدمته: «... أما بعد؛ فقد كنت كتبت كتاباً في تفسير القرآن مبسوطاً مطوَّلاً يمنع القراء من الاستمرار بقراءته، ويفتر العزم عن نشره، فأشار عليَّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطوَّل، يحتوي على خلاصة ذلك التفسير، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضيع علوم القرآن ومقاصده، فاستعنت بالله على العمل على هذا الرأي الميمون...»[(١)].

وجاء في آخره: «... وقد يسَّر الله تتميم هذا التعليق المبارك في ثالث شوال من شهور سنة ثمان وستين بعد الثلاث مئة والألف من الهجرة النبوية، فكان على اختصاره وإيجازه ووضوحه فيه معونة عظيمة على فهم كلام رب العالمين، وأن كلام الله كفيل ببيان كل شيء ينتفع به العباد في معاشهم ومعادهم وإرشادهم إلى كل ما فيه مصالحهم المتنوعة ومنافعهم المتعددة، وأنه يتعذر الصلاح والإصلاح للأحوال كلها، إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها هذا القرآن في أصول الدين وفروعه، وفي الأخلاق والآداب، وفي الأمور الداخلية والخارجية...»[(٢)].

* **ثالثاً**: ومن جهوده في خدمة كتاب الله كتابه: «القواعد الحسان لتفسير القرآن».

كتاب بديع، يقع في ثمان ومئتين من الصفحات، من الحجم الصغير، ضمَّنها سبعين قاعدة في تفسير القرآن، لا يستغني عنها من أراد فهم كتاب الله وتأمله.

يقول السعدي في مقدمتها: «... أما بعد؛ فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأمِّلها على فهم كلام الله والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومنهاج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من

---

(١) مقدمة خلاصة تفسير القرآن ص٦.

(٢) آخر خلاصة تفسير القرآن ص٢٠٣.

هذه البحوث النافعة. . .»[١].

وطريقة ابن سعدي في هذا الكتاب أنه يذكر القاعدة التي تعين على فهم كتاب الله، ويستدل لها، ثم يذكر أمثلة عليها، توضح المراد منها.

وقد أشار إلى هذا المسلك في مقدمته، فقال: «. . . فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود؛ لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرَّب منها بعدة أمثلة توضحها وتبيِّن طريقها ومنهجها؛ لم يحتج إلى زيادة البسط، وكثرة التفاصيل. . .»[٢].

ومن أمثلة تلك القواعد:

«**القاعدة الأولى**: في كيفية تلقي التفسير: كل من سلك طريقاً وعمل عملاً وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه؛ فلا بدَّ أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته. . .»[٣].

«**القاعدة الثانية**: العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب: وهذه القاعدة نافعة جداً، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع في الغلط والارتباك الخطير. . .»[٤].

فرغ منها مؤلفها في ٦ شوال ١٣٦٥هـ.

* **رابعاً**: ومن جهوده في خدمة كتاب الله كتابه: «المواهب الربانية من الآيات القرآنية»:

جاء هذا الكتاب الفريد في بابه في ثمان وسبعين صفحة من الحجم المتوسط، ضمنها السعدي رَحِمَهُ اللهُ مجموعة من الفوائد النفيسة التي قد لا توجد في غير هذه الرسالة، وقد كان ذلك أثناء تأمله لكتاب الله ومدارسته مع بعض طلابه في شهر رمضان عام ١٣٤٧هـ.

---

(١) مقدمة القواعد الحسان ص٣.
(٢) مقدمة القواعد الحسان ص٤.
(٣) القواعد الحسان ص٥.
(٤) القواعد الحسان ص٧.

وقد جاء في آخرها قوله: «. . . فإن جنس هذه الفوائد المذكورة في هذه الرسالة قد كانت تعرض لي كثيراً أثناء القراءة لكتاب الله، فأتهاون بها، ولم أقيدها، فيضيع شيء كثير، فلما كان أول يوم من هذا الشهر المبارك؛ أوقع في قلبي أن أقيد ما يمر عليَّ من الفوائد والمعاني المتضحة التي لا أعلم أنها وقعت لي قبل ذلك، فعملت على هذا النمط. . .»[١].

لقد سلك ابن سعدي في هذا الكتاب منهجاً خاصاً، حيث لم يلتزم بترتيب السور القرآنية، بل لم يلتزم بترتيب الآيات في السورة الواحدة، بل كان يسجل الفوائد حسب تيسُّرها له، وحسب قراءته للآيات، إذ قد يقرأ الآية فلا يلوح له فيها شيء، ثم يمر عليها مرة ثانية فتظهر له فيها فوائد قد خفيت عليه سابقاً، وقد ركَّز في هذه الرسالة على ذكر حكم التشريع وأسراره، ومدلولات الأسماء الحسنى، والاستدلال لكل فائدة تظهر له.

وقد سلك كل سبيل لإيصال هذه الفوائد إلى ذهن القارئ، فتراه تارة يعرضها عرض تشويق من خلال عنوانها، وتارة يفترض سؤالاً ويجيب عليه، وتارة يطيل الفصل، وأخرى يقصره.

والكتاب عظم النفع جليل القدر، لكنه بحاجة ماسَّة إلى تغيير ترتيبه، إذ يحسن أن يرتّب حسب سور القرآن، ثم حسب الآيات في السورة الواحدة، ولو تم عنونته حسب الموضوعات؛ لكان أجدى وأنفع؛ مثل: فوائد في العقيدة، فوائد في التفسير، فوائد في قصص الأنبياء. . . وهكذا، وأخيراً؛ فالكتاب بحاجة ماسَّة إلى فهرس مفصَّل للموضوعات؛ ليهتدي القارئ إلى الموضوع الذي يريده بكل يسر وسهولة.

ولعل الله يجعل في العمر بقية، إذ أنوي بمشيئة الله خدمة كتب هذا الشيخ كلها قدر استطاعتي، وما توفيقي إلا بالله.

وقد فرغ المؤلف رحمه الله من هذه الرسالة في ٢٨ رمضان ١٣٤٧هـ.

---

(١) المواهب الربانية ص٧٨.

* **خامساً**: ومن جهوده في خدمة كتاب الله كتابه: «فوائد مستنبطة من قصة يوسف».

رسالة لطيفة، خصصها الشيخ السعدي للفوائد التي لاحت له في هذه السورة، والرسالة جاءت في أربعين صفحة من الحجم المتوسط، ضمَّنها أحد عشر فصلاً في فوائد هذه السورة العظيمة.

جاء في مقدمة هذه الرسالة: «. . . ولكن هذه القصة خصها الله بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧]؛ ففيها آيات وعبر منوعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد؛ لما فيها من التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذلة ورق إلى عزة وملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح. . . ومن فوائد هذه السورة أن فيها أصولاً لعلم تعبير الرؤيا؛ فإن علم تعبير الرؤيا علم عظيم مهمٌّ، مبناه على حسن الفهم والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات. . .»[(١)].

وقد سلك ابن سعدي في هذه الرسالة مسلكاً جيداً، حيث قسم السورة إلى مجموعات، تضم كل مجموعه عدد من الآيات، جعلها تحت فصل واحد أو أكثر؛ مثل: أصول تعبير الرؤيا، ووجوب العدل بين الأولاد، والإخلاص أكبر الأسباب لحصول المقصود. . . وهكذا.

وقد استنبط الشيخ أثناء تتبعه لهذه القصة كثيراً من الأحكام الشرعية، واستدل لها، وبيَّن مأخذها.

وقد طهَّر هذه الفوائد من الإسرائيليات التي حُشيت فيها كثير من التفاسير، وإذا كانت قصة يوسف ارتبط فيها الكثير من الإسرائيليات ـ نظراً لذكرها في كتب التفسير؛ فإن ابن سعدي خلَّص هذه السورة منها كما وعد في تفسيرها سابقاً، ولذا يحسن بالمسلم الذي يريد معرفة القصة كما وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن يقف على هذه الفوائد ويتأملها، ففيها علم غزير، وفوائد بديعة، قد لا توجد في غيرها.

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف ص٣.

والرسالة بحاجة ماسة إلى ترقيم الآيات ووضع بعض العناوين المناسبة التي تلفت نظر القارئ إلى المضمون؛ كما أنها بحاجة إلى فهرس تفصيلي للموضوعات؛ لان القارئ يجد صعوبة في العثور على ما يريد، إذ هذه الرسالة خالية من فهرس الموضوعات نهائياً.

وقد فرغ المؤلف في شهر صفر من عام ١٣٧٥هـ.

* **سادساً**: ومن جهوده في خدمة كتاب الله كتابه: «الدلائل القرآنية في أن العلوم النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي».

بيَّن فيه المؤلف رحمه الله أن الدين الإسلامي وعلومه وأعماله وتوجيهاته جمعت كل خير، وأن العلوم العصرية النافعة داخلة في الدين الإسلامي، لكنها تحتاج إلى فهم ثاقب، وتنزيل لها على النصوص الشرعية.

وقد فرغ منها المؤلف رحمه الله في العاشر من محرم سنة ١٣٧٥هـ[(١)].

هذا ما وقفت عليه من جهود مباركة للعلامة ابن سعدي في خدمة كتاب الله، ومن أراد التوسع والاستفادة؛ فليراجع الرسالة الرائعة لفضيلة شيخنا الشيخ عبد الله بن سابح الطيار، حيث أبرز فيها الكثير من جهود الشيخ، وقام بدراسة مستفيضة لتفسير الشيخ ابن سعدي وبقية كتبه التي اعتنت بكتاب الله، وقد جاءت هذه الرسالة في ثلاث وعشرين وست مئة صفحة من الحجم الكبير، وسماها مؤلفها: «الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي مفسراً»، وقد نال بها درجة الماجستير من كلية أصول الدين بالرياض التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٧هـ.



(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات ابن سعدي الثقافية ص٣٠٤.

المبحث التاسع

جهوده في خدمة السنة

لم أقف له إلا على كتاب واحد خاص في خدمة السنة، لكن كتبه الأخرى وتفسيره الكبير مليئة بالإشارة إلى الأحاديث والكلام عن فوائدها ومراميها، أما كتابه الخاص بالسنة؛ فهو: «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار».

ومن تأمل هذا الكتاب ـ على اختصاره ووضوحه ـ رآه مشتملاً على جميع العلوم النافعة؛ على علم التوحيد، والأصول، والعقائد، وعلم السير والسلوك إلى الله، وعلم الأخلاق والآداب الدينية والدنيوية والطبية، وعلم الفقه والأحكام في كل أبواب الفقه من عبادات ومعاملات وأنكحة وغيرها، وكلها مأخوذة ومستقاة من كلماته صلوات الله وسلامه عليه، حيث اختير فيه شرح تسعة وتسعين حديثاً من جوامع كلام المصطفى ﷺ في سبع وخمسين ومئتين من الصفحات من الحجم المتوسط.

جاء في مقدمتها: «. . . وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه الجوامع في المواضيع الكلية والجوامع في جنس أو نوع أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه على وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار، إذ المقام لا يقتضي البسط. . .»[1].

وقد اعتنى المؤلف بتخريج الأحاديث من كتب السنة، وحرص على الحكم عليها، ومعظم ما ذكره في: «الصحيحين» أو أحدهما أو في؛ «السنن».

---

(١) بهجة قلوب الأبرار ص٥.

وأول الأحاديث التي ذكرها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور: «**إنما الأعمال بالنيات...**» الحديث.

وآخر الأحاديث التي ذكرها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «يأتي على الناس زمان؛ القابض على دينه كالقابض على الجمر...».

وجاء في آخر هذا الكتاب: «... تمت هذه الرسالة المشتملة على شرح تسع وتسعين حديثاً من الأحاديث النبوية الجوامع في أصناف العلوم والمواضيع النافعة والعقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والفقه والآداب والإصلاحات الشاملة والفوائد العامة...»[1].

وقد فرغ منه المؤلف رحمه الله في ١٠ شعبان ١٣٧١هـ.



(١) بهجة قلوب الأبرار ص٢٥٣.

المبحث العاشر

جهوده في توضيح العقيدة

اعتنى الشيخ ابن سعدي بالعقيدة الإسلامية عناية خاصة، إذ كانت معظم مؤلفاته فيها. وكانت عنايته فيها تأخذ مسارات متعددة:

ـ ففي جانب التدريس أولاها عناية خاصة، وكانت تستحوذ على الكثير من وقته مع طلابه.

ـ وفي جانب التأليف أخرج عدة من المؤلفات ناقش فيها قضايا العقيدة، ورد المخالفين، وأوضح جهود السابقين، خصوصاً المحققين منهم؛ كابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى.

وهو في كل ذلك ينطلق من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة التي تقرِّر العقيدة الصافية الخالية من البدع والشركيات والتي تؤصل شعب العقيدة الثلاث، وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء الصفات.

وقد أكثر ابن سعدي من بيان هذه الأنواع وإيضاحها، وقلَّ أن تجد صفحة أو صفحتين من مؤلَّفاته إلا وتعالج هذه الأنواع أو أحدها.

ومن أجمع ما قاله عن هذه الأنواع في موضع واحد قوله جواباً على سؤال مفاده: «س: ما حدُّ التوحيد وما أقسامه؟ ج: حد التوحيد الجامع لكل أنواعه هو علم العبد واعتقاده واعترافه وإيمانه بتفرُّد الرب بكل صفة كمال وتوحده في ذلك واعتقاده أنه لا شريك له ولا مثيل له في كماله وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، ثم إفراده بأنواع العبادة، فدخل في هذا التعريف أقسام التوحيد الثلاثة:

أحدها: «توحيد الربوبية»، وهو الاعتراف بانفراد الرب بالخلق والرزق والتدبير والتربية.

الثاني: «توحيد الأسماء والصفات»، وهو إثبات جميع ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله محمد ﷺ من الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات، من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

الثالث: «توحيد العبادة»، وهو إفراد الله وحده بأجناس العبادات وأنواعها وإفرادها وإخلاصها لله من غير إشراك به في شيء منها.

فهذه أقسام التوحيد التي لا يكون العبد موحداً حتى يلتزم بها كلها ويقوم بها...»(١).

وقد خلَّف السعدي مؤلفات كثيرة، دلَّت على غزارة علمه، وقدرته على إيضاح أمور العقيدة، وقوة حجته، ووقوفه في وجه المعاندين والملحدين؛ كما اعتنى عناية بكتب السلف الذين أثروا جوانب العقيدة بحثاً وتأليفاً ورداً على الخصوم والمبتدعين.

ومن مؤلفاته(٢) في العقيدة ما يأتي:

١ ـ «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد، والضوابط والأصول».

٢ ـ «القول السديد في مقاصد التوحيد»، وهو شرح لكتاب: «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» لمجدد الدعوة محمد بن عبد الوهاب.

٣ ـ «الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة».

٤ ـ «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين».

٥ ـ «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله».

٦ ـ «الدرة المختصرة في محاسن الإسلام».

٧ ـ «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية لابن القيم».

---

(١) سؤال وجواب في أهم المهمات ص٧. وانظر: التفسير ١/٢٦، وشجرة الإيمان ص٤١.

(٢) سبق التعريف بها كلها، ولذا سنذكرها بإيجاز.

٨ ـ «توضيح الكافية الشافية»، شرح لـ «نونية ابن القيم» رحمه الله.

٩ ـ «سؤال وجواب بأهم المهمات».

١٠ ـ «الدرة البهية شرح العقيدة التائية في حل المشكلة القدرية لشيخ الإسلام ابن تيمية».

١١ ـ «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان».

١٢ ـ «فتح الرب الحميد في أصول العقائد والتوحيد».

١٣ ـ «التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة».

١٤ ـ «منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة مع شرحها للمؤلف رحمه الله».

هذه ملامح عن جهوده في توضيح العقيدة، ومن أراد الاستزادة والتوسع؛ فليراجع الرسالة المتميزة «الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة»، التي أعدها أخونا الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد، وتقدم بها لنيل درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عام ١٤٠٧هـ.

وقد جاء في مقدمة الرسالة المذكورة قول مؤلفها زاده الله علماً وتوفيقاً وصلاحاً: «. . . وقد كان له رحمه الله ـ أي: ابن سعدي ـ عناية بالغة بالعقيدة الإسلامية، كشأن علماء أهل السنة والجماعة، وقد خصَّها بمؤلفات عديدة، أفردها لبيان العقيدة وتوضيحها وللرد على من خالفها، ومؤلفاته التي أفردها في العقيدة تربو على عشرة مؤلفات، ثم إنه يُعنى في العقيدة في سائر مؤلفاته، وكتابه: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان» يعد مرجعاً هاماً في بيان العقيدة وتوضيحها والرد على من خالفها، وكذلك خلاصة هذا التفسير المسمَّى: «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن»، وغيرهما من مؤلفاته، فكان رحمه الله يُعنى بأمر العقيدة، ويرى أنه أعظم المسائل وأكبرها وأهمها وأجدرها بالتوضيح والبيان. . .»[1].

(١) مقدمة الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ص٧.

المبحث الحادي عشر

جهوده في الدعوة إلى الله

للشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ قدم راسخة في الدعوة إلى الله، ويتمثل ذلك في دروسه ومواعظه وخطبه الكثيرة التي كان يوجِّه بها الناس كل يوم، وتتَّضح آثاره في الدعوة إلى الله من خلال أمرين واضحين:

أحدهما: انتشار طلابه الكثيرين الذين أصبحوا مشاعل يضيئون الطريق في المواقع التي عملوا فيها.

والثاني: مؤلفاته الكثيرة التي اعتنت بالدعوة إلى الله وذكرت أفضل السبل في ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

وإذا كان لابن سعدي ميزة على أقرانه ومعاصريه في قضايا الدعوة إلى الله؛ فهي أنه فهم النصوص الشرعية وفهم الواقع الذي يعيشه، فجمع بين فقه النص وفقه الواقع، وهذا ما جعل قدمه راسخة في هذا المجال.

ولكي تتَّضح الصورة أكثر؛ نتقل طرفاً من كلامه حول الدعوة وأساليبها وطرقها والبصيرة بحال المدعو وواقعه.

يقول رحمه الله تعالى: «إن دعوة الخلق ـ سواء المسلم والكافر ـ إلى سبيل الله المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح بالحكمة أولاً كما أمر الله بذلك، والحكمة أي: كل أحد حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهم فالأهم، فالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فبالدرجة الثانية، وهي الدعوة بالموعظة الحسنة، والموعظة الحسنة هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب... ثم إذا كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى ضلال؛ فبالدرجة

الثالثة، وهي المجادلة بالتي هي أحسن، وهي الطريق التي تكون أدعى للاستجابة عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي يعتقدها؛ فإنه أقرب إلى حصول المقصود. . . .»(١).

ويقول في موضع آخر يربط فيه بين الجهاد والدعوة وأنهما متلازمان: «. . .فإن من أعظم الجهاد: السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية، في جمع أفرادهم وشعوبهم، وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة. . .»(٢).

ويقول في موضع آخر محذِّراً من المنافقين المندسين في صفوف الأمة وكأنه يعيش معنا رَحِمَهُ اللهُ خلال هذه الأحداث الجسيمة التي تعيشها الأمة المسلمة وهناك الكثير من الخونة والمأجورين الذين يعملون لحساب الشيطان وحزبه، وهم من بني جلدتنا، ويتكلَّمون بلغتنا، ويعيشون فوق أرضنا وتحت سمائنا، ويتسمون بأسمائنا.

يقول عنهم رَحِمَهُ اللهُ: «. . .فعلى المسلمين الحذر من هؤلاء المفسدين؛ فإن ضررهم كبير، وشرَّهم خطير، وما أكثرهم في هذه الأوقات التي اضطرَّ فيها المسلمون إلى التعلُّق بكل صلاح وإصلاح، وإلى من يعينهم وينشطهم؛ فهؤلاء المفسدون يثبطون عن الجهاد في سبيل الله ومقاومة الأعداء، ويخدِّرون أعصاب المسلمين، ويوئيسونهم من مجاراة الأمم في أسباب الرقي، ويوهمونهم أن كل عمل يعملونه لا يفيد شيئاً ولا يجدي نفعاً. . .»(٣).

ويقول رَحِمَهُ اللهُ في تقرير مبدأ الشورى بين الأفراد والجماعات والقيادات: «. . .فعلى المسلمين أن يتشاوروا في تقرير المصالح والمنافع، وفي كيفية الوصول إليها، وفي تقرير الخطط التي يتعين سلوكها في صلاح أحوالهم

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ٤/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥.
(٢) وجوب التعاون بين المسلمين ص٥.
(٣) وجوب التعاون بين المسلمين ص٧.

الداخلية وإصلاحها بحسب الإمكان، وفي الحذر من أعدائهم...»[١].

ويقول رحمه الله راسماً الخطة المثلى لإصلاح التعليم ـ وهذا من أبرز الأدلة على فقه ابن سعدي لواقعه، فضلاً عن فقهه للنصوص الشرعية ـ: «ومن أعظم التربية العامة النافعة: إصلاح التعليم، والاعتناء بالمدارس العلمية، وأن يختار لها الأكفاء من المعلمين والأساتذة الصالحين، الذين يتعلَّم التلاميذ من أخلاقهم الفاضلة قبل ما يتلقَّونه من معلوماتهم العالية، ويختار لها من فنون العلم الأهم فالأهم من العلوم النافعة الدينية والدنيوية المؤيدة للدين...»[٢].

وقد أبدع ابن سعدي في عرض قضايا الدعوة، فتعرَّض لإصلاح مناهج التعليم، وتعرَّض لتصحيح بعض المفاهيم، وتعرَّض للردِّ على الملحدين ودعواهم حول الحرية من تعاليم الإسلام، وأكد على أهمِّية أن يتولى المناصب القيادية في أي مصلحة خاصة أو عامة أهل الخير والصلاح والإصلاح من الدعاة والمعلِّمين والموجهين، وشنع على أولئك النفعيِّين الذين يهتمُّون بمصالحهم الذاتية وينسون أو يتناسون قضايا الأمة ومصالحها العليا.

لقد كان ابن سعدي موفقاً في معالجته لقضايا الدعوة، وذلك أنه داعية من الرعيل الأول، إذ نزل الميدان، وجرَّب، ومارس، وتعامل مع الناس، فأخذ يكتب عن تجارب واقعية صادقة.

ومن أبرز مؤلفاته في الدعوة والوعظ والخطابة[٣]:

١ ـ «الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة».

٢ ـ «الدرة المختصرة في محاسن الإسلام».

٣ ـ «انتصار الحق».

٤ ـ «الدين الصحيح يحل جميع المشاكل».

---

(١) وجوب التعاون بين المسلمين ص٨.

(٢) وجوب التعاون بين المسلمين ص١٧.

(٣) سأسردها بإيجاز، حيث سبق التعريف بها ضمن مؤلفاته رحمه الله.

٥ ـ «الوسائل المفيدة في الحياة السعيدة».

٦ ـ «منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة».

٧ ـ «وجوب التعاون بين المسلمين».

٨ ـ «الجهاد في سبيل الله».

٩ ـ «الخطب العصرية».

١٠ ـ «الفواكه الشهية في الخطب المنبرية».

١١ ـ «الخطب المنبرية على المناسبات».

. . . إلى غير ذلك من كتبه التي عالج فيها الكثير من قضايا الدعوة، وأهمها تفسيره العظيم الذي أشار فيه في كثير من المناسبات عند كلامه على الآيات القرآنية إلى قضايا الدعوة والدعاة، وما ينبغي أن يكونوا عليه؛ علماً، وفهماً، وعقلاً، وإدراكاً، ووعياً، ودربة، وتشاوراً؛ كل ذلك بأسلوب سهل واضح، يفهمه كل مطَّلع على تفسيره، فرحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في مقعد صدق عند مليك مقتدر.



المبحث الثاني عشر

جهوده في خدمة كتب السلف

المطلب الأول

جهوده في خدمة كتب السلف عموماً

سبق أن أوضحنا تأثر العلامة ابن سعدي بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأيَّدنا ذلك بالنقول الصريحة عن ابن سعدي، ومرادنا هنا جهود ابن سعدي في خدمة كتب السلف عموماً وكتب هذين الإمامين خصوصاً.

فنقول ـ وبالله التوفيق ـ: أولى ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ كتب السلف عناية خاصة منذ نعومة أظفاره، حيث كان يتعلم منها ويتلقَّى في حلقات العلم من هذه الكتب عن طريق مشايخه الذين مرَّ ذكرهم، وبعد أن تأهل للتدريس؛ أخذ يعتني بكتب السلف، ويحث الطلاب على مطالعتها، وكان يقرِّر الكثير منها في دروسه في العقيدة والتفسير والفقه والحديث واللغة العربية.

وبعد أن بدأ التأليف؛ استفاد من الكثير من كتب السلف، لكنه أولى بعضها عناية خاصة، ومن هذه الكتب ما يأتي:

١ ـ «الجمع بين الإنصاف ونظم ابن عبد القوي»:

كان المؤلف حريصاً على شرح «نظم ابن عبد القوي»، فلما رأى عدم تمكُّنه؛ جمع بين الإنصاف وبين النظم؛ ليكون الإنصاف بمثابة الشرح للنظم، ولكنَّ المنيَّة عاجلته قبل إتمامه، إذ وصل فيه إلى كتاب الحج، والكتاب ما زال مخطوطاً، قيَّض الله له من يتولَّى أمر إخراجه، ويوجد منه نسخة في مكتبة الجامع بعنيزة.

٢ ـ «القول السديد في مقاصد التوحيد»:

شرح مختصر لكتاب: «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» لمجدِّد الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، حرص العلَّامة ابن سعدي على ربط الأبواب بالترجمة؛ مبيناً المناسبة بينهما.

بدأه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بمقدمة إضافية مشتملة على خلاصة وصفوة عقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الكتاب والسنة، جاء فيها: «... أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود المتفرِّد بكل كمال، فيعبدونه وحده مخلصين له الدين، فيقولون: إن الله هو الخالق البارئ المصوِّر الرازق المعطي المانع المدبِّر لجميع الأمور...»(١).

وجاء في آخره: «.. وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد، وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها..»(٢).

٣ ـ «المختارات الجلية من المسائل الفقهية»:

حرص الشيخ ابن سعدي على خدمة كتب الأصحاب من الحنابلة، وكان يقرِّر عليها في دروسه، ولما ألَحَّ عليه بعض طلابه بالتعليق على بعضها وبيان الراجح لدى الشيخ؛ أقدم على التعليق على أحدها، وهو: «شرح مختصر المقنع»؛ لأنه رأى أنه أكثر كتب الأصحاب استعمالاً، وأنفعها للطلاب.

يقول موضحاً ذلك في مقدمة كتابه: «.. فلذلك أحببت تقييد ما تيسر منها، ورأيت شرح «مختصر المقنع» للشيخ منصور البهوتي أكثرها استعمالاً وأنفعها للطلبة في هذه الأوقات، فأحببت أن أجعل هذا التعليق كالاستدراك

---

(١) مقدمة القول السديد ص٦.

(٢) المجموعة الكاملة العقيدة ص٥٣.

عليه والتنبيه على ما ذكره خصوصاً؛ ليكون تنبيهاً على غيره من كتب الأصحاب عموماً...»[١].

٤ ـ **«التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب»:**

رسالة صغيرة الحجم، عظيمة الفائدة، تتكون من ٢٢ صفحة، شرح فيها منظومة في قواعد الإعراب لأبي محمد عبد الله بن يوسف الشهير بابن هشام النحوي.

جاء في مقدمة شرح الشيخ السعدي: «... أما بعد، فهذا تعليق على نظم قواعد الإعراب، نلقته من شرح الشيخ خالد الأزهري على أصله، ذكرت منه ما يتعلَّق بهذا النظم، وحذفت منه ما يستغنى عنه، ونقلت عباراته؛ إلا في شيء يسير، وأسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم...».

والرسالة لم تطبع بعد، ويوجد منها أصل مخطوط عند الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن البسام، أحد تلاميذ المؤلف.

فرغ الشيخ السعدي من هذه الرسالة في سنة ١٣٣٤هـ[٢].

المطلب الثاني

عنايته بكتب ابن تيمية وابن القيم

اعتنى الشيخ ابن سعدي بكتب هذين الإمامين عناية خاصَّة، ولذا أكثر في كتبه من الحث عليهما، والترغيب في إكثار المطالعة فيهما، وكان يؤكد في دروسه على طلابه أن يحرصوا على هذه الكتب، ويتزوَّدوا منها، وحين بدأ التأليف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ اعتنى بكتب هذين الإمامين؛ شرحاً وبياناً، وتأليفاً على منوالهما، واختصاراً لبعضهما.

ومن أبرز ما قام به من جهود لخدمة كتب هذين الإمامين ما يأتي:

(١) مقدمة المختارات الجلية ص٦.

(٢) ابن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة ص٤٥.

١ ـ «التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة»:

علق فيه الشيخ السعدي على كتاب: «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ قرب فيه بعض المسائل، وجمع أطرافها، ولمَّ شتاتها، وشرح بعض الآيات شرحاً يوضح معناها وصلتها بمباحث الكتاب، وربط بعض المسائل ببعض بأسلوب علمي رصين كمّل هذه الرسالة العظيمة وجعلها سهلة التناول لطلاب العلم، وقد فرغ منها المؤلف رحمه الله في الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩هـ[١].

٢ ـ «طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول»:

هذا الكتاب من أبرز كتب ابن سعدي التي تدل على عنايته بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، إذ انتقاه من أكثر من ستين كتاباً من كتبه وكتب تلميذه ابن القيم رحمه الله التي وقعت بين يديه، وقد سهَّل ابن سعدي بهذا الكتاب الاستفادة من كتب الشيخين، فأبرز زبدتها، ووضعها بين يدي القارئ بهذا الجزء المختصر.

وقد أوضح ابن سعدي بجلاء أهمية هذا الكتاب وفائدته، وذلك بالنظر لما أخذ منه، فقال في مقدمة الكتاب: «. . . أما بعد؛ فإنه لما كانت كتب الإمام الكبير شيخ الإسلام والمسلمين تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية قدس الله روحه جمعت فأوعت؛ جمعت جميع الفنون النافعة، والعلوم الصحيحة، جمعت علوم الأصول والفروع، وعلوم النقل والعقل، وعلوم الأخلاق والآداب الظاهرة والباطنة، وجمعت بين المقاصد والوسائل، وبين المسائل والدلائل، وبين الأحكام وبيان حكمها وأسرارها، وبين تقرير مذاهب الحق والرد على جميع المبطلين، وامتازت على جميع الكتب المصنفة بغزارة علمها وكثرته وقوته وجودته وتحقيقه، بحيث يجزم من له اطلاع عليها وعلى غيرها أنه لا يوجد لها نظير يساويها أو يقاربها. . .».

---

(١) هذه الرسالة لم تذكر ضمن المجموعة الكاملة.

«... ومن أعظم ما فاقت به غيرها وأهمه وتفرَّدت على سواها: أن مؤلفها رحمه الله يعتني غاية الاعتناء بالتنبيه على القواعد الكلية والأصول الجامعة والضوابط المحيطة في كل فن من الفنون التي تكلَّم بها، ومعلوم أن الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان والأصول للأشجار...».

«... وقد يسر الله الوقوف على كتبه الموجودة، فتتبَّعت ما وجدته في كتب هذا الإمام من الأصول والقواعد والضوابط النافعة، وأثبتها في هذا المجموع...».

«... وقد ألحقتها بعدما أكملتها بقواعد وأصول أخر من كتب شمس الدين ابن القيم، فبلغ الجميع ما يزيد على الألف؛ ما بين أصل وقاعدة، وضابط وكلام جامع...»(١).

وقال آخر هذا الكتاب: «... وقد نافت ولله الحمد على الألف(٢)؛ ما بين أصل، وقاعدة وضابط جامع، وتعريف مهم، وفائدة ضرورية، وترغيب في كمال، وتحذير من نقص، وتوجيه إلى المنافع الظاهرة والباطنة، وترهيب من المضار الدينية والدنيوية، ومَخْبَرُه يغني عن وصفه».

«وجملة ذلك أن هذا المجموع قد انتقيته بعد التروِّي الكثير وكثرة التأمل والتفكير في جميع الكتب الموجودة من كتب الشيخين، فتضمّن صفوتها، واحتوى على جواهرها وغررها، والحمد لله، والفضل لله...»(٣).

٣ ـ «الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية»:

هذا أحد الكتب الهامة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكل كتبه هامَّة ونافعة، حيث عالج فيه المشكلة القدريَّة عن طريق النظم الجميل، فأجاب على سؤال من شخص يزعم أنه ذميٌّ، وقصده دونما شكٍّ التشكيك والتلبيس على الناس، فأجابه ابن تيمية بجواب مفحم يدلُّ على سعة علمه وطول باعه في شتى العلوم.

(١) مقدمة طريق الوصول ص٣ ـ ٥.
(٢) عددها بالتحديد ١٠١٥ ما بين قاعدة وأصل وضابط.
(٣) طريق الوصول ص٣١٨.

وقد رأى علامة القصيم السعدي شرح هذه القصيدة تلبية لبعض المحبين من طلابه وأحبابه، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الرسالة، فقال: «. . . أما بعد؛ فقد طلب مني بعض الإخوان أن أشرح «المنظومة التائية في القدر» لشيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية؛ لما فيها من التحقيق العظيم في مسألة القضاء والقدر؛ لمتانتها، وصعوبة فهمها، واحتياجها إلى شرح متوسط يوضحها ويكشف عن معانيها، ولكون المقام والموضوع مقاماً مهماً جداً، والحاجة ـ بل الضرورة ـ داعية إلى علمه والتحقُّق به معرفة واعتقاداً، وهذا النظم قد أتى فيه الشيخ بالعجب العجاب، وبيَّن الحق الصريح، وكشف الشكوك والشبهات التي طالما خالطت قلوب أذكياء العلماء وحيَّرت كثيراً من أهل العلم الفضلاء؛ لذلك أجبت السائل لما طلبه، وأرجوا الله وأسأله أن يعين على تحقيقه وتوضيحه. . .».

«. . . والشيخ رحمه الله وقدَّس روحه نظمها جواباً لسؤال أورده عليه من قال: إنه ذمي؛ ليشبه على المسلمين، وليشككهم في أصول الدين؛ فإن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أصول الإسلام ومبانيه.

وهذا نص السؤال:

«أيا عُلَماءَ الدِّين ذِمِّيُّ دِينِكُمْ ... تَحَيَّرَ دُلُّوهُ بأَوْضَحِ حُجَّةِ
إذا مَا قَضى رَبِّي بِكُفْرِي بِزَعْمِكُمْ ... ولَمْ يَرْضَهُ مِنِّي فَما وَجْهُ حِيلَتِي
دَعانِي وسَدَّ البابَ دُونِي فَهَلْ إلى ... دُخُولي سَبيلٌ بَيِّنُوا لِي قَضِيَّتي
قَضى بِضلالِي ثمَّ قالَ ارْضَ بالقَضَا ... فَهْلَ أَنا رَاضٍ بالَّذي فيهِ شِقْوتِي
فإِنْ كُنْتُ بالمَقْضِيِّ يَا قَوْمِ رَاضِياً ... فَرَبِّيَ لَا يَرْضَى بِشُؤمِ بَلِيَّتِي
وهَلْ لِي رِضَى ما ليسَ يَرْضاهُ سَيِّدي ... فَقَدْ حِرْتُ دُلُّونِي على كَشْفِ حِيرَتي
إذا شاءَ رَبِّي الكُفْرَ مِنِّي مشيئةً ... فهَلْ أَنا عَاصٍ باتِّباع المَشيئَةِ
وهَلْ لي اختِيارٌ أنْ أُخالِفَ حُكْمَهُ ... فباللهِ فاشْفُوا بالبَراهينِ غَلَّتي»

هذا آخر السؤال المذكور، وحاصله أنه إيرادٌ على مذهب الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله، وإنه لا قدرة له على شيء منها، بل هي عندهم واقعة بغير اختياره.

وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس؛ كما سيأتي بيانه إن شاء الله[1].

وقد ختم السعدي هذه الرسالة في ذكر أمثلة متنوعة تكشف للقارئ مسألة القضاء والقدر.

وقد فرغ منها رَحِمَهُ اللهُ في ٣٠ ربيع الثاني ١٣٧٦هـ، وهي من آخر مؤلفاته رَحِمَهُ اللهُ، إذ فرغ منها قبل وفاته بأقل من شهرين.

٤ ـ «توضيح الكافية الشافية»:

«الكافية الشافية» لشمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ نونية رائعة، ناقش فيها الجهمية والمعطلة والملحدين بالنقول الصحيحة والأصول السلفية والقواعد والعقول الصريحة، واستوفى فيها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أصول الدين على نحو لم يُسْبَق إليه، وكانت هذه النونية بحاجة ماسة إلى مَن يتولَّى شرحها ويوضحها للقراء بأسلوب سهل واضح، حتى قيض الله لها العلامة السعدي الذي تولى شرحها وبين مراميها وحل ألفاظها وقربها للقراء.

قال في مقدمة شرحه لها: «... أما بعد؛ فهذا توضيح لمعاني «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» لشمس الدين ابن القيم قدس الله روحه؛ لكون هذا الكتاب عديم النظير في استيفائه لأصول الدين والرد على الجهمية والمعطلة والملحدين بالنقول الصحيحة والأصول السلفية والقواعد والعقول الصريحة، وفيه من الفوائد الفرائد وما تصح وتكمل به العقائد ما لا يوجد في كتاب سواه، ولما كان النظم معناه بعيد المنال، ودلالته على المعنى المراد يكثر فيها الاشتباه والإشكال؛ أحببت أن أقربه للقارئين؛ بحله إلى معناه المنشور فقط؛ من غير زيادة على ما دل عليه؛ إلا إذا اقتضت الحال الزيادة، أو كان المعنى يتوقف عليها، ولم أشتغل بشرح لها كالشروح المعتادة؛ لتيسر حل ألفاظها على الراغب من كتب اللغة العربية؛ لكون الشرح العادي يقتضي بسطاً وتطويلاً.

---

(١) الدرة البهية ص١١ ـ ١٢.

واعلم أن هذا التوضيح والتعليق على اختصاره قد حوى جميع المقاصد والعقائد الدينية، وحصل به التوضيح التام لـ«الكافية الشافية»...».

«... واقتديت في عملي هذا بابن هشام في توضيحه لـ«ألفية ابن مالك» رحمهم الله...»[(١)].

ومقصود «الكافية الشافية» هو معرفة الله بإثبات ما له سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال، وتنزيهه عن كل نقص وعيب ومشابهة للمخلوقات، وكذا التنبيه على أصول العقائد، وبيان أدلتها من الكتاب والسنة والعقل والفطرة، وذكر مذهب أهل السنة والجماعة، والرد على مخالفيهم؛ كل ذلك تعرَّضت له «الكافية الشافية» وتولَّى شرحها العلامة السعدي بأسلوب واضح لا غموض فيه ولا تعقيد، فرحم الله الجميع، وأسكنهم فسيح جناته.

وقد فرغ المؤلف من هذا الشرح في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ.

٥ ـ «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية»:

اعتنى ابن سعدي بشرح «الكافية الشافية» كما مر معنا، وشرحها شرحاً وافياً؛ لتكون سهلة التناول للقراء، لكن ذلك لم يثنه عن مزيد من العناية بها، فاستخرج منها توحيد الأنبياء والمرسلين، وشرحه شرحاً خاصّاً؛ مورداً الأبيات، ثم التعليق عليها بأسلوبه السهل الواضح.

وقد أشار ابن سعدي إلى أن له كتاباً مطولاً أكثر فيه من النقول عن مؤلف: «الكافية»، لكنه بدا له أن يختصره بهذا الكتاب.

جاء في مقدمة هذا الكتاب: «... أما بعد؛ فقد كنت وضعت شرحاً على توحيد الأنبياء والمرسلين من «الكافية الشافية» للمحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرت فيه من النقول عن كتب المؤلف، فبدا لي ان ألخصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده...».

---

(١) توضيح الكافية الشافية ص٣ ـ ٤.

وبدأه ابن سعدي بقول ابن القيم:

«فاسْمَعْ إِذاً تَوْحِيدَ رُسْلِ اللهِ ثُـ ـم اجْعَلْهُ دَاخِلَ كِفَّةِ المِيزانِ
مَعْ هَذِهِ الأنْواعِ وانْظُرْ أَيَّها أَوْلى لَدَى المِيزانِ بالرُّجْحانِ»[1]

وجاء في آخره:

«ليسَ العِبادَةُ غَيْرَ تَوْحيدِ المَحَبـ ـةِ مَعْ خُضوعِ القَلْبِ والأرْكانِ

يعني أن العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله؛ فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما؛ فليست عبادة؛ فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها...»[2].

وقد فرغ المؤلف من هذا الشرح في ٣ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ.

---

(١) الحق الواضح المبين ص٣ ـ ٤.

(٢) الحق الواضح المبين ص٦٠.

كتاب

صفحات من حياة الفقيد
العالِم الزاهد
الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

وبعد:

فقد ندب الله للعلم أقواماً علموا أن لذات الدنيا مجموعة في طلب العلم فأيقنوا أن اقتناص الفوائد عندهم أبهى من زهر الربيع وأحلى من الصوت الجميل وأنفس من ذخائر العقيان فتابعوا الدروس داخل الدروس التي عركتهم في ذواتهم عركاً وصقلتهم في أنفسهم صقلاً وعرّفتهم بغلاء العلم وعزته وحلاوة التحصيل ولذته، فانغمروا في تحصيل العلم واشتغلوا به ليلاً ونهاراً وقطعوا فضول العلاقات فأصبحوا أئمة يقتدى بهم ويلتف الناس حولهم فهم لهم كالغيث للأرض يحييها بعد موات. هؤلاء العلماء العاملون الربانيون الذين سخروا ما وهبهم الله من علم للدعوة إليه وبث الخير في نفوس الناس

وتعليمهم ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم وهم جند الحق وحراس العقيدة.

وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس وهم لسان الأمة وقلبها وعقلها ورأيها وضميرها ووجدانها ولعل شيخنا الشيخ محمد بن صالح العثيمين واحد من هؤلاء العلماء الذين تنطبق عليهم هذه المواصفات، فقد كانت حياته جهاداً متواصلاً في مختلف ميادين العلم والمعرفة فتوى وتأليفاً وقضاء لحوائج الناس وكفاحاً مستمراً في مجال الدعوة والتوجيه مما سنراه موجزاً خلال الصفحات القادمة بمشيئة الله تعالى، حيث سألقي الضوء على حياة الشيخ الشخصية والعلمية والعملية وذكر جوانب مشرقة من سيرته وجهاده خلال نصف قرن من الزمان. وإن من حسن حظي أن قويت صلتي بالشيخ وتوثقت خلال عشرين سنة ماضية وقد عرفته ـ كما عرفه الآخرون ـ غزير العلم قوي الحجة ظاهر المحجة ينساب العلم منه دون تكلف يبسط نفسه للناس للصغير والكبير على حد سواء ظاهر الزهد، جاءته الدنيا طائعة مختارة فرغب عنها وطمع فيما عند الله، رقيق القلب نقي السريرة لا يحسد ولا يحقد بل كثيراً ما يدعو لمن حصل منهم أذى له ويقول: إن كانوا على حق فهذا أمر عجِّل لي في الدنيا وأحمد الله عليه وإن كانت الأخرى فسأجد ذخرها في العقبى.

هذه بعض صفات شيخنا رَحِمَهُ الله ولعل ما كتب عنه من مشاعر وأحاسيس كانت صادقة التعبير عن مكانته في نفوس الناس فرحمه الله رحمة واسعة وجمعنا به في جنات النعيم وأعلى درجاته في المهديين وجعل الخير والبركة في عقبه وتلاميذه... آمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه
عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار
ضحوة الأحد ١٠/١١/١٤٢١هـ
الزلفي

إيضاحات حول عصر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

ولد الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٣٤٧هـ وهذه السنة هي التي وقعت فيها ـ معركة السبلة ـ في الزلفي وهي بداية تهدئة الأوضاع والاستقرار في الجزيرة حيث تم توحيد المملكة بعدها بأربع سنوات وعاش الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بداية التوحيد والاستقرار والعناية بالعلم والعلماء والقضاة لكن التدريس كان مقتصراً على المساجد وحلقات المشايخ.

وقد وفق شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في ربيع العمر في تحقيق التوازن المطلوب بين متطلبات الحياة وبين الانخراط في مجال العلم، وقد عزم على أن يقف حياته على طلب العلم ويعطي نفسه أمناً وطمأنينة، لقد ارتضى العلم خديناً وأليفاً فلازم العلماء الذين في بلده وتردد عليهم وثنى ركبته أمامهم وقد لاحظوا عليه أمارات النبوغ والذكاء والفطنة واعتنوا به عناية خاصة أسهمت في تهيئته وإعداده للمهمة العظيمة والطريق الطويل.



اسمه ونسبه

هو شيخنا الإمام العلامة المفسر الفقيه المحدث الفرضي أحد مجددي القرن الخامس عشر أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين ينحدر نسبه إلى قبيلة بني تميم المشهورة.



ولادته ونشأته

ولد سماحة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محافظة عنيزة أكبر محافظات منطقة القصيم في السابع والعشرين من شهر رمضان من عام ١٣٤٧هـ ونشأ في أسرة محافظة معروفة بالاستقامة والتدين وقد بدأ بقراءة القرآن حتى أتم حفظه وقد قرأه على جده لأمه عبد الرحمٰن بن سليمان آل دامغ ثم بعد ذلك اتجه لطلب العلم وبدأ بتعلم الخط والحساب وبعض فنون الآداب، وقد ظهرت عليه أمارات النبوغ والذكاء وصاحب ذلك همة وحرص وجد واجتهاد جعله يحصل أضعاف ما يحصل أترابه وزملاؤه في مثل سنه.

وقد اعتنى به شيخه العلامة ابن سعدي عناية خاصة حيث عهد إلى اثنين من كبار تلاميذه وهما الشيخ علي الصالحي والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع لتعليم صغار التلاميذ، فقرأ شيخنا ـ محمد ـ عليهما بعض المختصرات من كتب الشيخ ابن سعدي وغيره وقد نوّع مقروءاته من العقيدة والفقه والنحو وغيرها من العلوم.

وهكذا نشأ شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين أحضان العلماء ولازم حلقاتهم وأسند ركبتيه إلى ركبهم فأدرك وهو في سن مبكرة الشيء الكثير.



أسرته

للشيخ رحمه الله زوجة واحدة وله من الأولاد عبد الله وعبد الرحمٰن وإبراهيم وعبد العزيز وعبد الرحيم.

وللشيخ أخوان هما الدكتور عبد الله بن صالح بن عثيمين عضو مجلس الشورى الأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية، وأخوه الشيخ عبد الرحمٰن.



أعماله

درس شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في معهد الرياض العلمي وبعد تخرجه درس في كلية الشريعة بالرياض منتسباً وعاد إلى عنيزة ليدرس في المعهد العلمي الذي افتتح فيها، ثم لما فتح فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم انتقل الشيخ ـ العثيمين ـ للتدريس فيه في كلية الشريعة وأصول الدين وأصبح عضواً في مجلس الكلية ما يزيد على عشرين عاماً، ثم عيّن عضواً في هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يشغل هذا المنصب بالإضافة إلى التدريس في فرع الجامعة وخطابة المسجد الجامع الكبير في عنيزة، وكان للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إسهام متميز في جمعيات تحفيظ القرآن الكريم في عنيزة حيث تابع نشاطها ورسم منهجها وتفاعل مع العاملين فيها والطلاب فجزاه الله عن الجميع خيراً.

والجدير بالذكر أن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان قد عرض بل ألح على الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ليتولى القضاء، بل أصدر قراراً بتعيينه رئيساً للمحكمة الشرعية بالأحساء لكن شيخنا ابن عثيمين طلب الإعفاء، وبعد مراجعات واتصال شخصي سمح الشيخ بإعفائه من منصب القضاء وتولى التدريس في معهد عنيزة العلمي.



زهده

كان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ مثالاً يحتذى في الزهد والورع رغبوا عن الدنيا وطلقوها ورغبوا فيما عند الله وقد كان لشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصب السبق في هذا الميدان حيث ظهرت أمارات زهده للقريب والبعيد في ملبسه ومركبه وتعامله مع الخلق، يكره الإطراء والمديح ولو كان صادقاً وفي محله، جاءته الدنيا منقادة تخطب ودّه فتركها ورغب في الدار الآخرة، كم كان يمنع بعض المقدمين لمحاضراته إذا أثنوا عليه وذكروا بعض أوصافه التي هو أهل لها، بل قد حضرت ذات مرة وقال المقَدِّم فيها للشيخ: ومحاضرنا هذه الليلة غني عن التعريف فقاطعه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغضب وقال له: اتق الله، فالله جل وعلا هو الغني عن التعريف. . وهكذا القمم من الرجال يتواضعون فيرفعهم الله عند الخلق.



مرضه

جثم المرض على الشيخ ولم يكتشف إلا في مرحلة متأخرة ـ كما يقول أخوه الدكتور عبد الله: ولعل مشاغل الشيخ وكثرة عطائه وانهماكه في تعليم الناس وتوجيههم أسهم في نسيان الشيخ نفسه وهكذا العظماء ينيرون للأجيال الطريق وهم يقاسون الأخطار والأضرار.

وبعد اكتشاف المرض أسرع ولاة أمر هذه البلاد ـ أعزهم الله بطاعته ـ إلى العناية بالشيخ والحرص عليه وتهيئة الأجواء العلاجية في كل اتجاه وسافر الشيخ صيف هذا العام ١٤٢١هـ لأول مرة إلى أمريكا وكانت له مواقف دعوية مشهودة هناك ورجع ليستكمل علاجه داخل هذه البلاد واستمر على عطائه وبذله ونفعه للناس وحرص رحمه الله على استمرار درسه في المسجد الحرام.. وهكذا كان يعظ الناس ويذكرهم ويرشدهم ويجيب عن أسئلتهم حتى آخر ليلة من رمضان وكانت كلماته تشعر بالتوديع وقلوب المسلمين وأفئدتهم تلهج بالتضرع لله جل وعلا دعاء ووفاء.. ومحبة للشيخ ولكن قدر الله نافذ.

ولكن إذا تم المدى نفذ القضا   وما لامرىء عما قضى الله مهرب

ودخل الشيخ المستشفى التخصصي بجدة حتى وافه الأجل المحتوم يوم الأربعاء ١٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وعوض الأمة خيراً.



جنازة الشيخ

صلى المسلمون على فقيد الأمة في المسجد الحرام عصر يوم الخميس ١٦/ ١٠/ ١٤٢١هـ وكانت الجنازة مهيبة والمشهد مؤثراً حيث توافد مئات الآلاف للصلاة عليه وشهود جنازته وقد رثاه محبوه وتلاميذه وأظهروا شيئاً من مشاعرهم تجاه فقيدهم، وقد ذكر لي أحد الإخوة المهتمين بالشعر أنه جمع ما يزيد على ثلاثمائة قصيدة رثاء قيلت في الشيخ رحمه الله.



حياته العلمية

عاش شيخنا رحمه الله حياة حافلة بالعلم والتعليم وقد سافر من عنيزة بعد أن جلس على علمائها وأخذ عنهم. يقول الشيخ عن نفسه: «بعد أن فتحت المعاهد العلمية دخلت المعهد العلمي من السنة الثانية والتحقت به بمشورة من الشيخ علي الصالحي وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين: خاص وعام، فكنت في القسم الخاص وكان في ذلك الوقت من شاء أن يقفز بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلة له في أثناء الإجازة ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها وبهذا اختصر الزمن ثم التحقت بكلية الشريعة في الرياض انتساباً وتخرجت منها».



طريقته في التعلم

بدأ الشيخ حياته بالجد والتحصيل وكان يستغل معظم وقته في طلب العلم لا سيما وقد يسر الله له فرصة عظيمة وهي وجود المشايخ في بلده عنيزة وعلى رأسهم شيخه الذي تأثر به وهو العلامة ابن سعدي صاحب المدرسة العلمية الجادة والذي أثرى الحياة العلمية[1] في منطقة القصيم عامة. وقد صاحب هذا الجد همة عالية تعانق الجبال وصبر عجيب على التحصيل أدرك من خلاله الشيخ ما لم يدركه الكثيرون في زمن طويل. قال لي ذات مرة في أحد اللقاءات الخاصة: «كان شيخنا العلامة ابن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدربنا على الإلقاء والمناقشة وفهم المسائل بدقة وذلك بوضع مناقشة بيننا، يجعل طالباً يتبنى قولاً لأهل العلم وآخر يتبنى القول الآخر ثم يناقش كل منهما صاحبه بحضور بقية الطلاب ليتبين القول الراجح من عدمه مع الاستفادة من ذكاء وقدرة بعض الطلاب على إيراد الاعتراضات والمناقشة وحصر الأدلة، وذلك تحت توجيه وتسديد شيخنا وقد استفدت من ذلك كثيراً.

ولم يرحل شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لطلب العلم إلا إلى الرياض حينما كان يدرس في المعهد العلمي وهناك طلب العلم على بعض المشايخ وكانوا علماء أجلاء أمثال: العلامة الشنقيطي والعلامة ابن باز كما سيأتي بيان مشايخه الذين تلقى على أيديهم العلم.



(١) انظر رسالة المؤلف (العلامة ابن سعدي وأثره في الحركة العلمية المعاصرة).

شيوخه

أخذ شيخنا ابن عثيمين العلم على يد مشايخ أجلاء في مدينتي عنيزة والرياض ومنهم:

١ ـ **علامة القصيم الشيخ عبد الرحمٰن بن السعدي** رحمه الله أحد العلماء الكبار كانت حياته جهاداً متواصلاً بالدعوة والكتابة والتأليف، تتلمذ على يديه مئات الطلاب وهم من أقطاب الحركة العلمية المعاصرة بل إن بعضهم من كبار علماء المملكة في هذا الوقت منهم من أفنى حياته بالعلم والتعليم ومضى إلى دار الآخرة ومنهم من لا يزال يعطي بقوة ـ متعهم الله بالصحة والعافية ـ وقد تعلم على يديه شيخنا ابن عثيمين ولازمه مدة طويلة ينهل من علمه ويتدرب على يديه. يقول شيخنا ابن عثيمين: «إنني تأثرت به كثيراً في طريقة التدريس وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني وكذلك أيضاً تأثرت به من ناحية الأخلاق الفاضلة وكان رحمه الله على قدره في العلم والعبادة يمازح الصغير ويضحك إلى الكبير، وهو ما شاء الله من أحسن من رأيت أخلاقاً»، وقد قرأ شيخنا العثيمين على شيخه ـ ابن السعدي ـ التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف ولازمه ملازمة قوية، وكانت للعثيمين منزلة عظيمة عند شيخه ظهرت آثارها في إعداده وتهيئته لتحمل مسؤولية شيخه من بعده، وكانت فراسة شيخه فيه صائبة حيث خلفه في إمامة الجامع والقيام على المكتبة والتدريس، فرحم الله الجميع رحمة واسعة.

٢ ـ **سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز** رحمه الله المفتي العام للمملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء، درس عليه حينما انتقل ابن عثيمين إلى الرياض للدراسة النظامية،

حيث درس على ابن باز وهو شيخه الثاني بعد ابن السعدي وقد قرأ عليه صحيح البخاري وبعض كتب الفقه وكان الشيخ محمد يثني على شيخه ـ ابن باز ـ خيراً في حياته وبعد وفاته وكثيراً ما يقول في دروسه، وهذا رأي شيخنا الشيخ عبد العزيز وكان يقول عنه: «لقد تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز من جهة العناية بالحديث وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضاً وبسط نفسه للناس».

٣ ـ **الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي** المتوفى في عام (١٣٩٣هـ) إمام المفسرين في هذا العصر اللغوي المشهور صاحب: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن».

درس عليه الشيخ في المعهد العلمي بالرياض وكان من أبرز علماء العصر واستفاد منه الشيخ العثيمين فائدة عظيمة في دقة الاستنباط وغزارة العلم وبسط المسائل يقول عنه ابن عثيمين: «إذا ابتدأ شيخنا الشنقيطي درسه انهالت علينا الدرر من الفوائد العلمية من بحر علمه الزاخر، فعلمنا أننا أمام جهبذ من العلماء وفحل من فحولها فاستفدنا من علمه وسمته وخلقه وزهده وورعه».

٤ ـ **الشيخ علي بن حمد الصالحي** كان يعلم صغار طلاب ابن سعدي وقد درس العثيمين عليه بعض العلوم.

٥ ـ **الشيخ محمد ابن عبد العزيز المطوع** قرأ عليه العثيمين «مختصر العقيدة الطحاوية» و«منهاج السالكين» في الفقه كلاهما لشيخه ابن سعدي وكذا قرأ عليه «الآجرومية» و«الألفية» في النحو والصرف.

٦ ـ **الشيخ عبد الرحمٰن بن علي بن عودان** قرأ عليه العثيمين بعض كتب الفقه وكذا قرأ عليه في الفرائض.

٧ ـ **الشيخ عبد الرحمٰن بن سليمان آل دامغ** جد الشيخ ابن عثيمين لأمه وقد قرأ عليه القرآن حتى أتم حفظه.



جلوسه للتدريس

جلس الشيخ للتدريس سنة ١٣٧١هـ في حياة شيخه ابن سعدي واستمر على ذلك إلى وفاته في ١٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ أي: أنه أمضى خمسين عاماً كلها جهاد وكفاح في تعليم الناس وتوجيههم ودلالتهم على الخير.

وقد تنوعت دروس الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في مختلف العلوم الشرعية والعربية والسيرة، وتوافد إليه الطلاب من داخل المملكة وخارجها واعتنى شيخنا بطلابه عناية فائقة وهيأ لهم الجو العلمي المناسب، فأقبل الطلاب على دروسه ولازموها وتخرج من هذه الحلقات مئات الطلاب واستمر كثيرون منهم يطلبون العلم على يد الشيخ إلى وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.



منهجه في التدريس

سلك الشيخ ابن عثيمين منهج شيخه ابن سعدي حيث يقول: «إنني تأثرت به ـ ابن سعدي ـ كثيراً في طريقة التدريس وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

ولذا كثيراً ما يكلف شيخنا طلابه بالبحوث وتحرير المسائل المشكلة ولعل من آخر تكليفه رحمه الله لطلابه أنني مع بعض الإخوة المشايخ زرنا الشيخ في أواخر شهر رجب يوم الأربعاء ٢٧/ ٧/ ١٤٢١هـ وسألناه عن قنوت النوازل فتكلم بكلام قوي، وقال: لعلك تبحث هذه المسألة وتحصر ما ورد فيها من النصوص وكلام أهل العلم. فقلت له: على أن تقرأ ذلك؟ فقال: إن شاء الله. لكن المنية عاجلته رحمه الله قبل ذلك. بل إنه رحمه الله يكلف صغار طلابه المبتدئين ليزرع الهمة والثقة في نفوسهم ويتلخص منهجه مع طلابه في النقاط الآتية:

١ ـ تكليفهم ببعض المسائل تشجيعاً لهم وتدريباً على الاستنباط والاستفادة والممارسة العملية.

٢ ـ عدم فرض رأيه على طلابه حتى في اختيار الكتاب وتقديم الدرس أو تأخيره أو البدء بالمتن الفلاني وهكذا، وكثيراً ما يقدم رأي الطالب على رأيه وفي هذا تعويد للطلاب على لزوم الحق وليس في ذلك غضاضة على الشيخ بل يدل على تواضعه وإشراكه طلابه معه في الرأي.

٣ ـ تدريب الطلاب على الكلمات بحضور الشيخ فيلقي الطالب على زملائه وهم مستعدون لإبداء الملاحظات على الطالب ليكون في ذلك تدريب للطالب على الإلقاء ولإخوانه الآخرين على إبداء الرأي والملاحظة الهادفة.

٤ ـ إسناد بعض الدروس لبعض طلابه تدريباً لهم وشحذاً لهممهم وتهيئة لهم لنفع الناس.

سمات دروس الشيخ

١ ـ العناية بعلوم الشريعة من التفسير والحديث والعقيدة والفقه وأصول الفقه والفرائض وغيرها.

٢ ـ العناية بالدليل وبناء الحكم عليه والاستنباط منه ليكون ذلك أكثر طمأنينة للعالم والمتلقي.

٣ ـ العناية بالمتون وشرحها وتوضيحها وتقريبها للمتعلمين.

٤ ـ كثرة المراجعة والتكرار للأبواب والفصول ليكون ذلك أدعى لثباتها عند الطلاب.

٥ ـ استغلال الوقت والحرص عليه وعدم تضييعه فيما لا ينفع.

٦ ـ الترجيح في معظم المسائل التي تمر في الدروس وبيان وجه الترجيح من المنقول أو المعقول.



تلاميذه

قد يصعب على الباحث حصر تلاميذ الشيخ رحمه الله لأن الغالبية العظمى من أساتذة الجامعات والقضاة وطلاب العلم والمدرسين من تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه؛ لأن هناك من جلس يدرس على يده في الجامع الكبير في عنيزة وهناك من درس عليه في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم، وهناك من درس عليه في المعهد العلمي بعنيزة، وهناك من درس عليه في الحرم المكي الشريف، وقد كثر تلاميذه وتوافدوا عليه من كل مكان ولا سيما خلال عشرين سنة ماضية، بدأت شهرته تصل إلى مشارق الأرض ومغاربها ولقد حدث لي عام ١٤١١هـ في الولايات المتحدة الأمريكية أن ألقيت عدة محاضرات، وذات مرة كان هناك لقاء مع طبقة مثقفة ممن يحضرون للماجستير والدكتوراه ودارت مناقشة حول بعض القضايا، فقال بعض الطلبة من جنسيات مختلفة: نحن نريد رأي الشيخ عبد العزيز أو الشيخ محمد، فقلت له: رأيهما كذا وكذا، ولذا أجد من الصعب عليّ حصر تلاميذ الشيخ بأسمائهم لكنني أقول إن درس الفقه في السنوات الأخيرة يحضره في الجامع الكبير ما يزيد على أربعمائة طالب وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. ثم إن الشيخ رحمه الله رتب درساً خاصاً متنقلاً لكبار طلابه وقد حضرت هذا الدرس فترة من الزمن، وكانت بدايتي في هذا الدرس خلال عام ١٤١٣هـ في شهر جمادى الآخرة قراءة على الشيخ في كتاب الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل لشرف الدين موسى الحجاوي المتوفى ٩٦٨هـ.

ثم يطرح الحاضرون، وكانوا لا يزيدون على عشرة طلاب، ما يجدّ من القضايا وما يشكل عليهم في دروس الجامع أو يرد عليهم من طلابهم في الجامعة؛ لأن غالبية الحضور لهذا الدرس من أساتذة الجامعة في القصيم.

ولعل من أسباب كثرة طلاب الشيخ وإقبال الناس على دروسه ما يأتي:

١ ـ الصدق والإخلاص في طلب العلم وتعليمه وبذله للناس.

٢ ـ الصبر والمتابعة والحرص على الاستمرار حتى إن الشيخ يعتذر عن الذهاب لكثير من المناطق حرصاً على طلابه، ولقد قال لي ذات مرة حينما ألححت عليه أن يذهب إلى الأحساء: «كيف أذهب وأترك طلابي وأنت ترى العدد الكبير وهؤلاء تفرغوا لطلب العلم وذهابي يؤثر عليهم ويوهن من عزيمتهم؟!».

٣ ـ البساطة والتواضع ومراعاة الصغير والكبير فكل يعطيه على قدره بل إنه يترجل إلى المسجد ذهاباً وإياباً بل ويسجلون حتى يصل الشيخ إلى بيته.

٤ ـ سلامة المنهج في المعتقد وهذه سمة علماء بلاد الحرمين ولله الحمد والمنة، وذلك من آثار دعوة المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

٥ ـ انتشار دروس الشيخ ولا سيما في الحرم المكي والمسجد النبوي ومدينة الرياض وكذا مشاركة الشيخ الإعلامية الجادة في: «نور على الدرب» و«سؤال على الهاتف» وغير ذلك.

٦ ـ الوضوح في الأداء والعمق في الفهم والدقة في الاستنباط وطرح القول بقوة والترجيح في معظم المسائل أخذاً بالدليل.

٧ ـ تصدي الشيخ لكثير من المتون في فنون مختلفة وتسجيل ذلك حيث انتفع به خلق كثير وقد ذكرت بعض المجلات أن عند تسجيلات الاستقامة بعنيزة آلاف الأشرطة كلها محفوظة ويمكن الحصول عليها بكل سهولة.

٨ ـ تبني بعض طلاب العلم لآراء الشيخ ونشرها مكتوبة في البحوث أو مسموعة في أشرطة أو في المحاضرات الخاصة في الكليات أو المساجد، كل ذلك جعل كثيراً من الطلاب يحرصون على حضور دروس الشيخ والاستماع له وتلقي العلم على يديه.

آثاره العلمية

للشيخ آثار علمية كثيرة في مجالات متعددة منها المسموع والمكتوب في العقيدة والتفسير والفقه والحديث والأخلاق والسلوك والمعاملات والعلاقات، بل لا تكاد تجد نازلة في هذا العصر إلا وللشيخ فيها قول فصل عبارة عن رسالة علمية أو جواب محرر.

ولعل آثار الشيخ العلمية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما حرره الشيخ بنفسه وتولى تأليفه بقلمه وهذا أكملها وأحسنها وأدقها وأضبطها لأنه بعناية الشيخ ومتابعته.

الثاني: قسم فرغه بعض تلاميذ الشيخ من الأشرطة وهو قسمان: أحدهما عرض على الشيخ وقرأه بنفسه وعلق عليه بقلمه، وذلك مثل لقاء الباب المفتوح واللقاء الشهري، والآخر: اطلع عليه الشيخ وبدأ بمراجعته ولكن المنية عاجلته قبل إكماله.

الثالث: لا يزال حبيس الأشرطة والأوراق وهذا ما نتمنى أن يقيض الله له من يخرجه من تلاميذ الشيخ تحت نظر من ترك الشيخ لهم مهمة ذلك الأمر. وهنا سأذكر بعض مؤلفات الشيخ مما وقفت عليه:

١ ـ فتح رب البرية بتلخيص الحموية.

٢ ـ الأصول من علم الأصول.

٣ ـ مصطلح الحديث.

٤ ـ رسالة في الوضوء والغسل والصلاة.

٥ ـ كفر تارك الصلاة.

٦ ـ مجالس شهر رمضان.

٧ ـ الأضحية والزكاة.

٨ ـ تلخيص كتاب الزكاة.

٩ ـ المنهج لمريد العمرة والحج.

١٠ ـ تسهيل الفرائض.

١١ ـ شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٢ ـ عقدية أهل السنة والجماعة.

١٣ ـ القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى.

١٤ ـ رسالة في الحجاب.

١٥ ـ رسالة في الصلاة والطهارة لأهل الأعذار.

١٦ ـ مواقيت الصلاة.

١٧ ـ سجود السهو في الصلاة.. وقد استأذنت الشيخ وطبعتها في كتابي: «سجود السهو».

١٨ ـ أقسام المداينة.

١٩ ـ وجوب زكاة الحلي

٢٠ ـ الضياء اللامع من الخطب الجوامع.

٢١ ـ زاد الداعية إلى الله.

٢٢ ـ الفتاوى النسائية.

٢٣ ـ فتاوى الحج.

٢٤ ـ حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة.

٢٥ ـ الخلاف بين العلماء: أسبابه وموقفنا منه.

٢٦ ـ من مشكلات الشباب.

٢٧ ـ رسالة في المسح على الخفين.

٢٨ ـ رسالة في الدماء الطبيعية للنساء.

٢٩ ـ مختارات من زاد المعاد لابن القيم.

٣٠ ـ مختارات من أعلام الموقعين.
٣١ ـ مختارات دروس وفتاوى الحرم المكي.
٣٢ ـ مجموعة دروس وفتاوى الحرم المكي.
٣٣ ـ مجموعة أسئلة في بيع وشراء الذهب.
٣٤ ـ اثنان وخمسون سؤالاً عن أحكام الحيض والنفاس.
٣٥ ـ الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين، جمع فيه ثلاث عشرة رسالة منها: زاد الداعية، والوصول إلى القمر، ورسائل في العقيدة الإسلامية، وأصول التفسير، وأثر المعاصي على الفرد والمجتمع وغيرها مما ذكرته سابقاً.
٣٦ ـ فتاوى سلسلة كتاب الدعوة صدر منه للشيخ الجزء الأول والثاني.
٣٧ ـ المنتقى من فرائد الفوائد.
٣٨ ـ رسالة في التيمم.
٣٩ ـ شرح ثلاثة الأصول.
٤٠ ـ الفوائد المنتقاة من شرح كتاب التوحيد.
٤١ ـ الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات.
٤٢ ـ مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن عثيمين جمع وترتيب الشيخ فهد بن ناصر السليمان، صدر منه حتى الآن عدة مجلدات.
٤٣ ـ إزالة الستار عن الجواب المختار لهداية المحتار.
٤٤ ـ أسئلة مهمة أجاب عنها الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين. .
٤٥ ـ فتاوى التعزية.
٤٦ ـ أسئلة من بعض بائعي السيارات.
٤٧ ـ نور على الدرب ـ الجزء الأول.
٤٨ ـ ألفاظ ومفاهيم في ميزان الشريعة.
٤٩ ـ الشرح الممتع شرح زاد المستقنع صدر منه ثمانية أجزاء.
٥٠ ـ فقه العبادات.

٥١ ـ شرح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٥٢ ـ شرح رياض الصالحين صدر منه سبعة أجزاء والثامن والتاسع عند الشيخ لمراجعته.

٥٣ ـ لقاء الباب المفتوح طبع منه إلى العدد رقم (٧٠) ومن (٧١ ـ ٨٠) تحت الطبع بعد أن أذن الشيخ بذلك.

٥٤ ـ اللقاء الشهري طبع منه حتى الآن إلى العدد رقم (٢٠) وتم إعداد البقية إلى العدد (٧٤).

٥٥ ـ فتاوى منار الإسلام.

٥٦ ـ شرح بلوغ المرام.

٥٧ ـ شرح كتاب التوحيد[1].



(١) هذه بعض مؤلفات الشيخ وثروته العلمية وليعلم أنني لم أقيد إلا ما وقفت عليه وهو عندي في مكتبتي وقد يكون هناك الكثير لم أطلع عليه.

صلتي الخاصة بالشيخ

بدأت معرفتي للشيخ عندما كان فضيلة شيخنا ـ الخال ـ عبد الله بن سابح الطيار يحدثنا عنه ويثني عليه كثيراً ويقول بفراسة عجيبة: إن هذا الرجل سيكون له شأن عظيم في المستقبل وهذا الحديث كان في أعوام (١٣٨٨ ـ ١٣٨٩ ـ ١٣٩٠هـ) حينما كان يدرسنا مادة الفقه وأصول الفقه بالمعهد العلمي بالزلفي.

ثم بدأت بزيارة الشيخ وحضرت بعض دروسه حتى تعينت عميداً لكلية العلوم العربية والاجتماعية في القصيم عام ١٤٠٣هـ وعندما توثقت علاقتي بالشيخ واستفدت منه كثيراً وقد منحني رَحِمَهُ اللهُ ثقة غالية وأعطاني من وقته الشيء الكثير وتكرّم عليّ بالإجابة عن الكثير من الأسئلة خلال لقاءات خاصة كنت أقيد فيها كل أجوبة الشيخ وكذلك ما طرحت عليه خلال الاتصالات الهاتفية، وقد رأيت طباعة هذه اللقاءات وما دار فيها من نقاش علمي حول بعض المسائل المهمة، وإجابات الشيخ الشافية حول بعض المسائل المشكلة.

وبعد أن توثقت علاقتي بالشيخ حضرت الدرس الخاص لكبار طلابه مع مجموعة من المشايخ الفضلاء، ثم رتبنا مع الشيخ درساً خاصاً لبعض المشايخ من الزلفي وقرأنا على الشيخ في كتاب زاد المعاد لابن القيم.

وقد أذن لي رَحِمَهُ اللهُ بإخراج بعض كتبه، وقد طبعت وانتفع بها كثير من الخلق وفي شهر ربيع الأول من عام ١٤٢١هـ قبل سفر الشيخ إلى أمريكا قابلته وسألني عن رياض الصالحين والعقيدة السفارينية فقلت له: إن تفسير سورة البقرة عندكم، فقال: سينتهي قريباً وبعد أسبوع علمت أن الشيخ وجد الجزء الثامن والتاسع من رياض الصالحين عنده في المكتبة، وهما جاهزان لإخراجهما وكذا العقيدة السفارينية في مجلدين.

ووعدني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمراجعة ذلك وإعادتها وقد أعطاني مع فضيلة الشيخ محمد بن صالح السحيباني قاضي البدائع إذناً خطياً في إخراج بقية لقاء الباب المفتوح واللقاء الشهري.

وخلال هذه الفترة من عام (١٤٠٣ ـ ١٤٢١هـ) أي: خلال تسعة عشر عاماً كانت هناك لقاءات ومكاتبات وإجابات عن أسئلة كثيرة ومواقف عجيبة منها الشخصي للشيخ ومنها الخاص بفرع الجامعة ومنها العام، والكل مقيد في هذه المذكرات التي أسميتها: «لقاءاتي مع الشيخ العثيمين».

وقد قلت في ترجمة شيخنا قبل عشر سنوات أثناء ترجمتي لتلاميذ العلامة ابن سعدي ما يأتي: «شيخنا محمد بن صالح بن عثيمين أحد أبرز تلاميذ ابن سعدي وهو الذي تولى الخطابة بعده. له قدم راسخة في العلم ودروسه في الجامع الكبير في (عنيزة) مضرب المثل في الحلقات العلمية الجادة الرصينة. تخرج على يديه مئات الطلاب، له إسهامات وافرة في شتى العلوم والمعارف، تخرج من كلية الشريعة ودرّس في معهد عنيزة العلمي ثم عيّن أستاذاً في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم، عضو هيئة كبار العلماء له مشاركات إعلامية جادة خصوصاً في برنامج نور على الدرب له رسائل كثيرة جداً وطبع له مجموعة من الفتاوى والدروس التي ألقاها في الحرم وغيره، له نشاط ملموس في الدعوة إلى الله وذلك بإلقاء المحاضرات في كثير من الأحيان وفي أنحاء من المملكة في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ووسطها حباه الله قوة في الاستدلال ومهارة في النقاش وقدرة على استحضار المسائل المتفرقة وجمعها مما يستطيع به إقناع المقابل بكل يسر وسهولة، له مكانة عظيمة في نفوس طلابه ومحبيه حتى أنك لا تكاد تجد جامعة أو هيئة علمية إلا وفيها أحد تلاميذه البارزين، له عناية خاصة يمتاز بها على غيره في الدروس حيث يحرص على استمرارها وعدم قطعها مهما كانت الشواغل والعوائق».



جوانب من حياة الشيخ

هناك جوانب كثيرة لها علاقة وثيقة بحياة الشيخ وعطائه والناس بأمس الحاجة لمعرفة منهج الشيخ فيها وما كان عليه وهذه الجوانب كثيرة وسأختار منها ثلاثة أمور مهمة:

الأول: منهج الشيخ في الدعوة إلى الله وما ينبغي أن يكون عليه الداعية.

الثاني: منهج الشيخ في التعامل مع ولاة الأمر وما ينبغي أن يكون العالم وطالب العلم في هذا الباب.

الثالث: الوفاء للأصحاب كباراً وصغاراً.



منهج الشيخ في الدعوة إلى الله

الداعية عند شيخنا هو الذي يصدق في دعوته ويتقي الله في السر والعلن وإذا كان حريصاً على لزوم المنهج الصادق في الدعوة إلى الله فعليه بما يأتي:

١ ـ أن يكون على علم فيما يدعو إليه على علم صحيح مرتكز على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لأن كل علم يتلقى من سواهما يجب عرضه عليهما فما وافقهما قبل وما خالفهما رد على قائله كائناً من كان، والدعوة إلى الله بغير علم خلاف ما كان عليه النبي ﷺ ومن اتبعه قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] والبصيرة هنا فيما يدعو إليه بأن يكون عالماً بالحكم الشرعي فيما يدعو إليه في حال المدعو وما يناسبه من الأسلوب وفي كيفية الدعوة فينظر إلى النتائج ويلتمس الحكمة ويتحلى بالتأني ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢ ـ أن يكون الداعية صابراً على دعوته، صابراً على ما يدعو إليه، صابراً على ما يعترض دعوته، صابراً على ما يعترضه هو من الأذى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

٣ ـ الحكمة، فيدعو إلى الله بالحكمة ثم بالموعظة الحسنة ثم الجدال بالتي هي أحسن، والحكمة إتقان الأمور وإحكامها بأن تنزل الأمور منازلها وتوضع في مواضعها.

يقول الشيخ رحمه الله: «... ليس من الحكمة أن تتعجل وتريد من الناس أن ينقلبوا عن حالهم التي هم عليها إلى الحال التي كان عليها الصحابة بين عشية وضحاها ومن أراد ذلك فهو سفيه في عقله بعيد عن الحكمة.. فلا بد

من طول النفس واقبل من أخيك الذي تدعوه ما عنده اليوم من الحق وتدرج معه شيئاً فشيئاً حتى تنتشله من الباطل».

٤ ـ أن يتخلق الداعية بالأخلاق الفاضلة بحيث يظهر عليه أثر العلم في معتقده وفي عبادته وفي هيئته وفي جميع مسلكه حتى يمثل دور الداعية إلى الله. يقول الشيخ: «فعلى الداعية» أن يكون متخلقاً بما يدعو إليه من عبادات أو معاملات أو أخلاق وسلوك حتى تكون دعوته مقبولة وحتى لا يكون من أول من تسعر بهم النار.

٥ ـ كسر الحواجز بينه وبين الناس لأن كثيراً من الدعاة إذا رأى قوماً على منكر قد تحمله الغيرة وكراهة هذا المنكر على أن لا يذهب إلى هؤلاء ولا ينصحهم وهذا خطأ، بل على الداعية أن يصبِّر نفسه ويكرهها حتى يتمكن من إيصال دعوته إلى من هم في حاجة إليها وهذا دأب نبينا وإمامنا وقدوتنا محمد ﷺ، ومن الواجب علينا أن نكون مثله في الدعوة إلى الله.

٦ ـ أن يكون قلبه منشرحاً لمن خالفه لاسيما إذا علم أن الذي خالفه حسن النية وأنه لم يخالفه إلا بمقتضى قيام الدليل عنده.

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يرى أن يجتهد كل مسلم حسب استطاعته في الدعوة إلى الله كل على قدر طاقته، العالم بفتواه وتوجيهه وإمام المسجد بنصح جماعته ومتابعتهم والأب في البيت وهكذا الأم والمدرس في المدرسة والجار مع جاره، الكل يتعاون في هذا الباب العظيم لأن الله أوجب هذا الأمر ولا تتحقق الخيرية إلا به، ولو أن كل مسلم صدق مع الله وأبلى في هذا الباب بلاء حسناً واجتهد لكانت حال أمة الإسلام غير هذه الحال، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه.

ولقد سار شيخنا رَحِمَهُ اللهُ على هذا المنهج وبذل كل وسيلة مستطاعة فهو يدعو في كل مناسبة ويوجه الحديث حسب الحضور فلا تراه إلا ناصحاً أو موجهاً أو مرشداً أو مفتياً، فوقته كله عبادة لله ولذا نفع الله بعلمه واستفاد منه القريب والبعيد، وهكذا الصدق مع الله والصبر على الدعوة وطول النفس يحقق الله من خلاله الشيء الكثير، وقد لا تظهر الثمرة خلال وقت قريب

ولكن على المسلم الجد والاجتهاد والنتائج يتولاها رب العباد.

يقول الشيخ[١]: «لا شك أن الدعوة الإسلامية منذ بعث الرسول ﷺ وإلى أن تقوم الساعة أولياتها وأصولها واحدة لا تتغير بتغير الزمان، لكن قد تكون بعض الأصول محققة عند قوم وليس فيها ما ينقضها أو ينقصها فيعمل الداعية إلى النظر في أمور أخرى يكون فيها من يدعوهم مقصرين...».

ويقول الشيخ[٢]: «والدعوة إلى الله لا بد أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ولين الجانب وعدم التعنيف واللوم والتوبيخ...».



(١) فتاوى الدعوة ٥/ ١٥٤.

(٢) فتاوى الدعوة ٥/ ١٥٥.

منهج الشيخ في إنكار المنكر

يرى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامة المجتمع فلا يقوم المجتمع إلا إذا شعر كل فرد من أفراده أنه جزء من كل، وأن فساد جزء من هذا الكل فساد للجميع.. ولا بد أن يسعى في إصلاح المجتمع بشتى الوسائل بالطرق التي تضمن المصلحة وتزول بها المفسدة فيأمر بالمعروف بالرفق واللين والإقناع وليصبر على ما يحصل له من الأذى القولي الفعلي، فإنه لا بد من ذلك لكل داع كما جرى لسيد المصلحين وخاتم النبيين.

يرى الشيخ أنه يجب على الجميع أن يتعاونوا تعاوناً حقيقياً فعالاً في إصلاح المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يكون الجميع كلهم جنداً وهيئة في هذا الأمر العظيم، ويمثل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمثال بديع في هذا السياق فيقول: «... إننا لو علمنا في بيت من بيوت هذا البلد مرضاً فتاكاً لأخذنا القلق والفزع ولاستنفدنا الأدوية وأجهدنا الأطباء للقضاء عليه هذا وهو مرض جسمي.. فكيف بأمراض القلوب التي تفتك بديننا وأخلاقنا. إن الواجب علينا إذا أحسسنا بمرض ديني أو خلقي يفتك بالمجتمع ويحرّف اتجاهه الصحيح أن نبحث بصدق عن سبب هذا الداء، وأن نقضي عليه وعلى أسبابه قضاءً مبرماً من أي جهة كانت لا تأخذنا في ذلك لومة لائم قبل أن ينتشر الداء ويستفحل أمره...».

ويرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يجوز اتخاذ الخطأ، سبباً في القدح في الداعية ورجل الحسبة وغيرهم والتنفير ممن يقع منه الخطأ فهذا ليس من سمات المؤمنين فضلاً أن يكون من سمات الدعاة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويرى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن منكر المنكر مثل الطبيب، لو أن الطبيب أتى على

الجرح وشقه مباشرة ليستخرج ما فيه فربما يتولد ضرر أكبر، ولكن لو أنه شقه يسيراً يسيراً وصبر على ما يشم من رائحة منتنة لحصل المقصود.

ويرى الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنه لا يجوز غشيان المكان الذي فيه منكر إلا إذا كان باستطاعته إزالة المنكر أو تخفيفه.



الوفاء لأصحابه

الوفاء من شيم الكرام والعلماء هم أولى من يتحلى بهذه الصفة ولقد كان لشيخنا رحمه الله قصب السبق في هذا الباب، فقد كان وفياً لأصحابه ومحبيه يحنو عليهم ويتصل بهم ويبادلهم الزيارة ويتفقدهم رغم كثرة أعماله وانشغاله بالعلم والتعليم والفتوى والتدريس والبحث.

وسأذكر في هذا الباب مثالاً واحداً من أمثلة وفاء شيخنا لأصحابه ومحبيه فأقول: كانت العلاقة بين شيخنا رحمه الله وأخيه أبي سليمان عبد اللطيف القشعمي رحمه الله علاقة حميمة لا يكاد يمر أيام إلا ويتصل أبو سليمان بالشيخ ويطمئن عليه ولا يمضي وقت إلا ويركب السيارة ويذهب للشيخ في المسجد ويسلم عليه ويطمئن عليه ثم يعود. وهذه المحبة لله وفي الله ولذا كان شيخنا يقدر لأبي سليمان هذا الشعور النبيل فكان لا يرد طلبه ولذا لما دعاه قبل سنوات إلى الزلفي لبّى الشيخ دعوته وجاء وتناول معه طعام الغداء، وقد دعا أبو سليمان مجموعة من المشايخ وطلاب العلم بالإضافة إلى الأقارب والجيران والأرحام، وهكذا أصبحت عادة سنوية يسميها الشيخ رحمه الله «صبرة سنوية» في كل عام مع بدء الدراسة يحضر الشيخ ويزور بلدة ـ الجوي ـ ويجلس عند أبي سليمان ثم يزور بعض المشايخ وبعد المغرب له لقاء سنوي ثابت في المسجد نفع الله به كثيراً وقد وافق الشيخ على إخراج هذا اللقاء في رسالة[١] خاصة.

ثم بعد ذلك يزور شيخنا الأخوين تركي وعبد الرحمٰن الطوالة ويتناول هناك طعام العشاء ويتم خلال ذلك جلسة علمية نافعة. بل إن من وفاء

---

(١) سيتم التنسيق مع أبناء الشيخ ومكتب الدعوة بالزلفي لإتمام هذا الأمر بمشيئة الله.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للأخوين تركي وعبد الرحمٰن الطوالة أنه لا يرد دعوتهما سواء في مكة أو الطائف حيث يزورهم سنوياً في شهر رمضان وأحياناً في الصيف ويجتمع مجموعة من العلماء وطلاب العلم وأصحاب الفضل ويتحقق من خلال ذلك خير كثير، ولا أنسى ذلك الاجتماع الحافل في اليوم الثاني من قدوم شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أمريكا حينما دعاه أخونا ـ عبد الرحمٰن الطوالة ـ في الطائف وحضر الشيخ واجتمعنا به واطمأن الجميع عليه بعد عودته وبعدها بأسبوع كان اللقاء في منزل الشيخ صالح بن حميد الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.

وفي هذا اليوم الخميس ١٤/ ١١/ ١٤٢١هـ دعا أخونا عبد الرحمٰن بن عبد اللطيف القشعمي أبناء الشيخ وأقاربه ليحققوا ما كان يقوم به والدهم من زيارة سنوية ـ كان عبد الرحمٰن ـ يتولاها بعد وفاة أبيه حيث زاره الشيخ وقال: إن هذه الزيارة ستستمر ما حييت. وفي هذا العام اعتذر الشيخ لظروفه الصحية فألح عبد الرحمٰن على أبنائه أن يفوا بما كان أبوهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قطعه على نفسه، وإن مجيء أبناء الشيخ وزيارتهم لصاحب أبيه من البر لوالدهم ومن الوفاء لأصحابه. أسأل الله جل وعلا أن يجعل البركة فيهم وأن يوفقهم وأن يغفر لشيخنا ويجمعنا به وبهم في جنات النعيم.



منح الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية

منح شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام لعام ١٤١٤هـ وقد ذكرت لجنة الاختيار في حيثيات الاختيار وفوز الشيخ بالجائزة ما يلي:

١ ـ تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع والزهد ورحابة الصدر وقول الحق والعمل لمصلحة المسلمين والنصح لخاصتهم وعامتهم.

٢ ـ انتفاع الكثيرين بعلمه تدريساً وإفتاءً وتأليفاً.

٣ ـ إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

٤ ـ مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة.

٥ ـ اتباعه أسلوباً متميزاً في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتقديمه مثلاً حياً لمنهج السلف الصالح فكراً وسلوكاً.

والشيخ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهل لهذه الجائزة فقد نفع الله به داخل البلاد وخارجها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.



الشيخ في أروقة الجامعة

لقد كان شيخنا رَحِمَهُ اللهُ داعياً إلى الله على علم وبصيرة ومجاهداً في سبيله بما آتاه الله عَزَّ وَجَلَّ من علم غزير وفطنة وعقل كبير، لقد كان في أروقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم لنا معه وقفات، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ في هذه الجامعة داعياً إلى الله بلسانه وقلمه، وكان يرجع إليه في معظم الأمور الشرعية وفي الفتوى العلمية المدعمة بقول الله وقول رسوله ﷺ.

وكان مرجعاً لطلاب العلم وسنداً لهم بعد الله تعالى يعتد برأيه ويؤخذ به، وقد أشاد أهل العلم في بلادنا بعلمه وفقهه وكان في مقدمة ذلك سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللهُ.

ولشيخنا في أروقة الجامعة مواقف مضيئة نذكر طرفاً منها فمن ذلك:

١ ـ أنه إذا دخل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بوابة الجامعة استقبله الأساتذة والطلاب وأخذوا يسألونه حتى يدخل القاعة الدراسية.

٢ ـ كانت بداية تقييد الأسئلة مع الشيخ حينما كنت عميداً لكلية العلوم العربية والاجتماعية في القصيم، وأقف كثيراً منذ دخول الشيخ وخروجه وجلوسه في مكتب العميد وأطرح عليه بعض الأسئلة وأقيد إجابتها عندي.

٣ ـ يعجب المرء من عظم نفع الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إذ يندر أن يمشي وليس معه أحد يسأل ويسترشد ويتعلم.

٤ ـ الشيخ في مواعيده في الجامعة بلغ درجة كبيرة من الضبط والدقة فيندر أن يتخلف عن موعد أعطاه في الجامعة، وإذا طرأت ظروف للشيخ قدم اعتذاره مسبقاً.

٥ ـ في جلسة مجلس الكلية إذا لم يتيسر للشيخ أن يحضر يبعث اعتذاره

أحياناً مكتوباً في ورقة صغيرة يكتب فيها: «فضيلة عميد الكلية لا أستطيع اليوم أن أحضر للمجلس أرجو قبول اعتذاري» أخوك محمد بن عثيمين. وهنا درس تربوي بالغ الأهمية فهذا العالم الجليل يكتب لتلميذه معتذراً لكنه العلم والعمل والتربية على منهج الرسول ﷺ فهل يعي ذلك العلماء والمعلمون والمربون والدعاة والمصلحون؟ هل ينتبه لذلك أولئك الذين لا يكترثون بمواعيدهم ويحبسون غيرهم الساعة والساعتين ثم لا يحضرون.

ومن المصائب والمصائب جمة حبس الجماعة في انتظار الواحد

٦ ـ أما الشيخ مع طلابه في أروقة الجامعة فكان له معهم شأن آخر فهو الطبيب لقلوبهم المعلم لدروسهم المربي لأنفسهم الآخذ بهم إلى سبيل النجاة من الشبه والشبهات فرحمه الله نعم المربي ونعم الطبيب ونعم المعلم.

لقد كان رحمه الله يحرص كل الحرص على تربية طلابه على العلم الشرعي، والحرص على الدعوة إلى الله، بل يحضهم على الدراسة النظامية وإكمال الدراسات العليا حتى ينفع الله بهم البلاد والعباد.



الشيخ والبرامج العامة لنفع الأمة

كان شيخنا رَحِمَهُ اللهُ عالماً لعامة المسلمين لم يكن حكراً لطائفة معينة من الناس ولا طبقة محددة، بل كان رَحِمَهُ اللهُ عالماً لجميع الطبقات من عالم إلى عامي يعلم ويعظ ويفتي ويدرس ويوجه ولذا حصل ببرامجه العامة النفع الكثير لأفراد الأمة شعوباً وجماعات وأفراداً، فكم كانت لفتواه ونصائحه وإرشاداته من آثار حميدة على من سأله وأرشده وسأذكر هنا طرفاً من بعض برامجه العامة التي نفع الله بها هذه الأمة، من هذه البرامج:

أولاً: برنامج نور على الدرب:

(هذا البرنامج اسم على مسمى) هذا هو قول شيخنا عنه وبالفعل فقد نفع الله تعالى بهذا البرنامج خلقاً كثيراً، ويعد هذا البرنامج أول البرامج التي بدأ بها مشواره الدعوي من خلال الإذاعة، أعني إذاعة القرآن الكريم حيث مكث يفتي من خلاله (١٤) أربعة عشر عاماً وتبلغ فتواه الآفاق وكانت فتواه متميزة بما يلي:

١ ـ سهولة ووضوح الإجابة للسائل.

٢ ـ وهو من أعظمها رفقه بالمستفتي وهذا مما أكسب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ محبة وتعظيماً لمن يسمع فتواه ولذا كانت بعض الأسئلة التي تصل إلى هذا البرنامج موجهة باسمه وكان أصحابها يبدون مشاعرهم تجاه الشيخ وتقديرهم لعلمه الواسع ورفقه بالسائل.

٣ ـ التحري في الفتوى حيث كان رَحِمَهُ اللهُ لا يتعجل في فتواه، فإذا أشكل عليه لفظ من خلال فتوى أو احتاج إلى استفسار يرجئ الفتوى إلى حين مراجعة السائل لتوضيح سؤاله.

٤ ـ الفتوى المدعومة بالدليل حيث إنك قلما تسمع له فتوى عارية عن الدليل الشرعي من الكتاب والسنة والإجماع أو قول صحابي وغير ذلك.

ثانياً: ومن البرامج التي نفع الله بها أيضاً العامة: برنامج سؤال على الهاتف:

فلقد كان شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ من أول من ابتدأ بالإجابة على أسئلة المستمعين من خلال هذا البرنامج يسأله المستفتي من جميع الطبقات عالم ـ طالب علم ـ عامي ـ كلهم يسألونه فيجيبهم رَحِمَهُ اللَّهُ بأسلوب محبب إلى النفوس فيرد السلام بمثله أو بأحسن منه، ويتلطف بالجاهل ويصبر على جفاء السائلين وعنت المتعنتين.

ثالثاً: أحكام من القرآن:

هذا البرنامج كان مشتملاً على فوائد ودروس يستنبطها من القرآن الكريم، هذه الفوائد والاستنباطات يعيش المستمع معها في جو إيماني مع عالم من علماء الأمة ينير له الطريق ويرشده إلى ما في آيات القرآن الكريم من فوائد دينية ودنيوية وفردية واجتماعية.

رابعاً: ومن برامجه العامة خطبه في الجمع والأعياد وكلماته في المناسبات، فدروسه في الحرمين غنية عن التعريف فكم كان يجتمع لهذه الدروس من شتى أنحاء العالم كلهم يستفيد من علمه رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما عن دروسه خارج الحرمين فهي أيضاً لا يجهلها أحد، ومن هذه الدروس ما فازت به محافظة الزلفي من اللقاء السنوي مع فضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فكان يجتمع بأهل هذه المحافظة الذين تمتلئ بهم الجوامع المعدة للقاء معه وكان لي شرف ترتيبها وتنظيمها والتقديم لها والمناقشة معه وسؤاله عما يحتاجه السائل أو يشكل عليه فيجيب رَحِمَهُ اللَّهُ بأسلوبه الفذ الذي لا يجارى فيه، وفي السنوات الأخيرة أصبح اللقاء يستمر من قبل صلاة الظهر إلى أن يتناول الشيخ طعام العشاء ثم ينصرف، وهذا اليوم يعتبر يوماً علمياً في هذه المحافظة المباركة.

مواقف من حياة الشيخ رحمه الله

الناظر في حياة الشيخ رحمه الله يجد أنها مليئة بالمواقف التي تعبر عن أصالة في المنهج والسلوك القويم، كيف لا وهو رحمه الله كان من أحرص الناس على اتباع هدي سلف الأمة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وسأذكر هنا طرفاً من بعض مواقفه رحمه الله الجامعة للمناقب الحميدة والأوصاف العالية الرشيدة مما وقفت عليه بنفسي من خلال لقاءاتي بالشيخ، ومن هذه المواقف:

أولاً: مواقف من تواضعه رحمه الله:

كان رحمه الله متواضعاً لين الجانب لإخوانه المسلمين خافضاً الجناح لهم من يتعامل معه يأنس بمعاملته السامية الرفيعة وأسلوبه العذب الفريد من لقيه لأول مرة يسأله عن نفسه وعن أهله وأسرته كأنه يعرفه من زمن بعيد، وإن كان طالب علم سأله عن دروسه ونشاطه العلمي والدعوي. أسلوبه مع الآخرين أسلوب راق من نوع خاص فهو أسلوب لا تكلف فيه فليس لزخرفة القول وتنميق العبارات وشقشقة الكلام ليس لهذا وغيره مكان ولا وجود في كلامه بل أسلوبه كله بساطة وهذه طبيعة فيه، ومن هنا كان التواضع سمته وخلقه لأن النبي ﷺ قدوته في ذلك. وكان شيخنا من أشد الناس حرصاً على اتباع نبيه ﷺ في العبادات والمعاملات ولذا نجد شيخنا رحمه الله يجعل للتواضع جانباً في دعوته ودروسه يحث من حضر دروسه ومحاضراته بأن يكون متواضعاً فكان مما قاله رحمه الله: «يجب على الإنسان أن يكون لين الجانب لإخوانه المؤمنين ويجب عليه أيضاً كلما رأى إنساناً اتبع الرسول الله ﷺ فليخفض له جناحه أكثر لأن المتبع للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهل لأن يتواضع له».

ومن صور تواضعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ـ خروجه مع طلابه في رحلاتهم البرية وغيرها ثم يشاركهم في برامج رحلتهم فتراه يتسابق معهم جرياً ورماية وغيره.

ـ حينما وقفت سيارة أحد أصحابه في أثناء سيره إلى جامعه ما كان منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا أن قال للسائق: ابق أنت مكانك وسأقوم أنا بدفع السيارة لكي تتحرك وتم هذا فعلاً.

ـ صورة أخرى من تواضعه أنه كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا كان في بيته يكون في خدمة أهل بيته يساعدهم فيما يحتاجونه بدون تأفف ولا تململ محققاً بذلك قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حينما سئلت عن حال النبي ﷺ في بيته قالت: «يكون في خدمة أهله»، وكان أحياناً إذا حضرنا مجلسه في بيته أخذ الدلة ليصب القهوة للحاضرين لولا الإلحاح عليه ويقول: «لا يخدم الإنسان في بيته».



مواقف من كرمه رَحِمَهُ اللَّهُ

وإن سألت عن كرم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فنقول: بأنه كان من أكرم الناس حين تلقاه كريماً في أفعاله الحميدة وأخلاقه السديدة، كريماً لضيوفه كريماً مع محبيه بل ومع الناس جميعاً. يتوافد الناس إليه من كل مكان من المملكة ومن غيرها للنيل من كرمه وجوده والظفر بشيء من ذلك المال الذي يوزعه إما لسداد دين أو إعانة على زواج أو تفريج كربة شاب أو مساعدة في إيجار بيت وغير ذلك.

أما عن كرمه في الشفاعة لغيره فحدث ولا حرج فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصاً على نفع الناس وذلك بالشفاعة لهم عند المسؤولين فكم بشفاعته حقنت دماء، وكم بشفاعته عم الخير والرخاء على الأفراد والأسر والمجتمعات فلا ننسى يوم أن شح الماء في عنيزة وتدخل رَحِمَهُ اللَّهُ في حل هذه المشكلة وحث المسؤولين على إيجاد الحل وتم بالفعل حل هذه المشكلة وعاد الرخاء والخير لمدينة عنيزة، فهذه إحدى الصور المشرقة وإلا فالصور التي تدل على كرمه كثيرة يعرفها كل من رأى الشيخ وسمع عنه.

ومن المواقف في حياة الشيخ:

- حرصه على المشي إلى المسجد والاحتفاء أحياناً وخصوصاً في صلاة الفجر.

- الحرص على إجابة المؤذن مهما كانت الأسباب والتوقف عن الحديث حتى فراغ المؤذن وإجابته.

- حرصه على كثرة السلام وإلقاؤه على الآخرين صغاراً وكباراً راكباً أو ماشياً.

ـ البشاشة في وجه القابل والابتسامة المعروفة عند الشيخ والترحيب الحار لمن يدخل بيته ويقابله.

ـ الحرص على إفادة الناس من خلال الفتوى ويظهر ذلك من خلال برنامج نور على الدرب الذي كان أحياناً يسجل بعض حلقاته وهو واقف لطرد الملل والسأم والنوم وهذا دليل يوضح الجلد والصبر والتحمل لدى العلماء العاملين.

ـ ومن المواقف أيضاً صبره وعدم ملله من حديث الآخرين فكان يقف الوقت الطويل ويستمع الأسئلة والشكاوى الخاصة والعامة، ثم ينبري لها كالطبيب الذي يعالج الأبدان بل علاجه أنفع وأنجع لأنه علاج للقلب والعقل.

ـ كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً حريصاً على النصح الصادق فكم نصح وأرشد وعلم.

ـ كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يهتم بأمور المسلمين أشد الاهتمام يشاركهم في أمورهم فيتألم لآلامهم ويقف معه في نكباتهم ومصائبهم ويدعو لهم بالنصر والتأييد ويعاونهم بمديد العون، وخير شاهد على ذلك ما جرى وحدث لإخواننا المسلمين في البوسنة والهرسك فكم تألم الشيخ لما جرى لهم وكم تعاون لجمع التبرعات لهم وكم خفف من آلامهم وكم ألقى من المحاضرات عليهم وأجاب على أسئلتهم فرحمه الله رحمة واسعة.



ذكر بعض المواقف الخاصة بي مع الشيخ رَحِمَهُ اللهُ

لقد عرفت شيخنا عن قرب وكل لحظة أجلس معه أو أتصل به عبر الهاتف أتعلم خلالها الكثير من الأدب والخلق والعلم النافع والعمل الصالح.

• زارني الشيخ في مكتبتي فعرضت عليه كتابي: «زكاة الحلي» وقلت للشيخ أرجو قراءة ترجيحي لهذه المسألة وطلبت من الشيخ أن يقدم له. فقال: لو قدمت له لنسفته يعني أن الشيخ سيرجح وجوب الزكاة، فقلت للشيخ: هذا شرف لي ثم قلت له: هل ترى يا شيخ أني أطبعه أو أتركه ضمن الأوراق التي قد لا ترى النور فقال لي: رَحِمَهُ اللهُ بل اطبعه وأنت تدين الله بما انتهيت إليه.

• ومن المواقف الخاصة أن هناك مقالات نشرت وفيها رد على الشيخ في بعض الصحف في الداخل والخارج، فطلبت من الشيخ أن يرد عليها فرفض، وذات مرة قدر الله أن يكتب شخص مقالاً ويرد به على الشيخ ثم في نهاية المقال رد عليّ حول موضوع الاستنساخ، فقلت للشيخ: إني أريد أن أرد عليه فقال: إني أرى أن تتركه فمثل هذا يشتهر بالرد عليه.

• دخلت ذات مرة المقبرة مع الشيخ وكان يريد الصلاة على أبي سليمان عبد اللطيف القشعمي رَحِمَهُ اللهُ فقال لي: لماذا تتركون فراغاً بين القبور هذه أرض المسلمين فقلت للشيخ: أنت ترى أنه لا يوجد فراغ كبير لا يتجاوز عشرة سنتيمترات فقال: هذه مسؤوليتك أبلغ المسؤولين عن المقبرة فبادرت بالاتصال بالهيئة المشرفة على المقبرة ونقلت لهم كلام الشيخ.

• سألت الشيخ في آخر أيامه عن مسائل ثلاث وقلت له: يشاع يا شيخ أنك رجعت عنها فقال: هذا غير صحيح والناس لا يتورعون فيما ينقلون،

وهذه المسائل هي صرف العملة الورقية بالريالات الحديد حيث يرى شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يجوز التفاضل فيها ولا يجوز النسأ، فلمن يصرف أن يعطي تسعة ريالات حديد بعشرة ريالات ورقية. وهذه المسألة محل خلاف بين أهل العلم والصواب أن ذلك لا يجوز لأنها عملة واحدة والقيمة لها واحدة والقوة الشرائية واحدة.

والمسألة الثانية: مسألة القصر والجمع في السفر حتى ولو عزم على الإقامة شهراً أو سنة أو أكثر أو أقل فشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن الشخص إما أن يكون مسافراً أو مستوطناً، وأما الإقامة المؤقتة فيلحقها بالسفر ولو طالت خلافاً لجمهور أهل العلم الذين يرون أنه إذا عزم على الإقامة أكثر من أربعة أيام فلا يترخص برخص السفر، ورأي الجمهور أرجح وأحوط وأبرأ للذمة.

والمسألة الثالثة: لبس الإزار المخيط الذي يشبه التنورة فشيخنا يقول: لا بأس أن يحرم به الرجل وله وضع ما يحفظ به جواله ونقوده وغيرها ولو كان ذلك بخياطة ثابتة وهذا خلافاً لعامة أهل العلم الذين يمنعون لبس المخيط المفصل على الأعضاء والراجح رأي جمهور أهل العلم.

• جاءني أحد طلاب العلم ـ من تلاميذي ـ وهو محل ثقة عندي فقال لي: إن الشيخ محمد ابن عثيمين سئل عن رؤيا في البرنامج سؤال على الهاتف وهذه الرؤيا من امرأة قالت: رأيت شخصاً يطوف بالكعبة عرياناً ـ وكان ذلك أيام الحج ـ فقال الشيخ: بشريه بالخير فلعلها مغفرة لذنوبه ثم قالت المرأة صاحبة الرؤيا: أنت يا شيخ ثم يقول ـ تلميذي: فبكى الشيخ بكاء شديداً وانتهت المكالمة، فقلت: هل أنت متأكد من هذا؟ قال: نعم متأكد تماماً فاتصلت بشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ وقلت له: ذكر لي أحد الثقات كذا وكذا فقال الشيخ: ليس لها أصل بل هي كذب فقلت: الذي حدثني ثقة فقال: أقول لك كذب وتقول إنه ثقة.

ثم زرت الشيخ بعدها بأيام فقلت له: لعلك يا شيخ تنفي ذلك من باب التواضع وعدم العجب ولئلا يتحدث الناس بذلك فقال: يا ولدي لما كثر عليّ الأمر اتصلت بالمذيع وقلت له: هل حصل شيء حول هذا الأمر فقال: لا

يقول شيخنا: حتى أنا حصل عندي شك ولكن هي كذب جملة وتفصيلاً وقل لصاحبك يتثبت مرة ثانية قبل أن ينقل مثل هذا.

• زارني الشيخ في منزلي عام ١٤٠٧هـ وخرجت معه وحدنا من مكتبتي إلى المسجد وعجبت من صنيعه حيث يقف عند الأطفال الصغار الذين يلعبون لعبة ـ الخرز ـ ويسلم عليهم ويقول: ما شاء الله ما هذا الله يعينكم ثم قال لهم: أصلحكم الله توضؤوا صلوا بارك الله فيكم وكلما مر على مجموعة ألقى عليهم وتحدث معهم.

• ولما دخلنا المسجد وأدينا السنة الراتبة أقيمت الصلاة فأنبت الشيخ عني وكنت نائباً عن الإمام في ذلك الوقت وكان طرف الصف الأيمن أكثر من الأيسر فقال لهم الشيخ: اعدلوا الصف يذهب بعضكم من جهة اليسار، فلما، خرجنا من المسجد قلت للشيخ أفهم من فعلك يا شيخ أنه يجوز نقل المصلين من الفاضل إلى المفضول، قال: نعم لأن توسيط الإمام أمر معتبر في الصلاة ثم إن الأيسر من جهة الإمام الأقرب أفضل من الأيمن الأبعد، قلت: مع أن نقل المصلين من جهة اليمين إلى جهة اليسار محل نظر عندي ففي النفس منه شيء والعلم عند الله.

• وسألت الشيخ لما توفي شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز عن السفر للصلاة عليه والتعزية فقال: الأولى عدم الذهاب فقلت له: وأنت يا شيخ هل ستذهب؟ قال: نعم لأنه يترتب على عدم ذهابي أمور لا تخفاك، فقلت وهل يأثم من ذهب؟ فأجاب الأولى عدم الذهاب، فقلت له: والله لا تطيب نفوسنا إلا بالذهاب، فقال: كل أدرى بمصلحة نفسه.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

فهرس إجمالي للكتب